رسائل السلام
(٨)

أكوان اللّه

القراءة العرفانية للكون برؤية قرآنية

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

رسائل السلام

(8)

أكوان الله

القراءة العرفانية للكون برؤية قرآنية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

من مظـاهر الصـراع الـتي أفرزتهـا غفلـة الإنسـان وكبريـاؤه: الصـراع مـع الكـون.. مـع السـماء والأرض.. والنبات والحيوان.. والرياح والأمطار.. وكل الأشياء.

وهـذا الصـراع يكتسـي لبوسـا مختلفـة، ويتـوزع على مظاهر متنوعة، ولكن الأساس في جميعها واحد، وهو أننـا نتعامل مع أكوان ننسبها إلى الطبيعة، أو ننسبها إلى الآلهة الجاثمـة على عـروش قلوبنـا وعقولنـا، أو ننسـبها إلى اللاشيء الذي تفرزه الغفلة، وننسـى في هـذا الخضـم أن ننسبها إلى الله.

فالأكوان أكوان الله، والأشياء جميعا خلقت بيـد اللـه، وصورت باسم الله، وهي تتوجـه إلى اللـه قبـل أن تتوجـه إلينا.

وهذه النظرة هي مبدأ السلام مع الكون، ومنطلقه.

فكما أن بداية السلام مع المستعمرات، هـو اعـتراف المستعمر لها بحريتها، وبحقها في تقرير مصيرها، ليتعامل معها بعد ذلك تعامل المسالم لا المحارب، وتعامـل النـد لا المتعالي، وتعامل الصديق لا العدو، فكذلك يكـون السـلام مع الكون.

فأي سلام نحلم به مع الكـون، ونحن لا نعـترف بـه؟.. أو أن اعترافنا به مجرد معـنى محصـور في زاويـة خاملـة من زوايا العقل، لا نتأثر لها، ولا نهتم بها.

وهذا المنطلق الذي يحدد تعاملنا مع الكون هـو الـذي يشـعرنا بالسـعادة والأمـان، ويـنزع عنـا حجب الوحشـة والضيق، ويزرع في قلوبنا الابتسـامة، ويـنزع من صـدورنا الحزن.

***

وانطلاقا من هذا نحاول في هـذه الرسـالة أن ننظـر نظرة جديدة للكون، تنطلق من قراءته باسم الله، وتنتهي بصحبته في الله.

ودليلنا في هـذا أقـدس كلام، وأشـرف كلام، وأصـدق كلام، كتاب الله تعـالى، فهـو الكتـاب الـذي يجعلنـا نشـعر بصداقة حميمة مع الكون، تجعلنا نراه كتابا تقلب صـفحاته ليتجلى من خلالها أعظم محبوب، وأجمل محبوب، وأكمـل محبوب، فنصادق من خلال الكـون رب الكـون، ونعـبر من الكون إلى المكون.

وهذه الصحبة الشريفة للكون، والتي تتعامل معه كما تتعامل مع الإنسان، هي التي كان عليها رسول الله ﷺ .

وقد صور لنا بعض الصحابة بعض هذه الصحبة فقـال: (أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر قال فحسر رسـول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه من المطر فقلنـا: يـا رسـول اللـه لم صنعت هذا؟ قال: لأنه حديث عهد بربه تعالى)(1)

وهذه الصحبة تستدعي نظـرة شـاملة للكـون بجميـع أنواعه، وبجميع خصائصه ووظائفه وصفاته، فبحسب سمو

1) رواه مسلم وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد.

المعرفة يكون سمو التعامل.

وقـد حاولنـا حصـر أوصـاف الكـون ــ انطلاقـا من النصوص المقدسـة ـ في أربعـة أوصـاف كـل واحـد منهـا معراج من معارج السلام، ورقية من رقى السعادة.

وهـذه الأوصـاف الأربعـة هي: الحيـاة، والعبـادة، والتسخير، والمقروئية.

فمعرفتنا بالكون الحي تشعرنا بالأنس، وتملؤنا ينشوة الصداقة الحميمة، فلا يمكن أن نصادق جمادا.

ومعرفتنا بالكون العابد تعرفنا بوظيفتنا، وتجعلنـا نلهج بالتسبيح في حلقة ذكر الكون الواسع.

ومعرفتنا بالكون المسخر تجعلنا نتناول الأشياء من يد الله، لا من يد الطبيعة، ونتناول الأشياء بالله، لا بأيدينا.

ومعرفتنـا بـالكون المقـروء تعـبر بنـا من الكـون إلى المكون، وتزج بنا في رحـاب الحضـرة المقدسـة، فنبصـر من خلال الأشـياء مشـيئ الأشـياء، فنصـادق مـع قطـرات الندى، وتفتح الزهر، وهبوب النسيم، رب الكون ومبدعه.

وهذه الألقاب الأربعة لأكـوان اللـه هي الوحيـدة الـتي تملؤنا بالأنس، وتشعرنا بالسلام.

السـلام الشـامل الـذي يسـتغرق جميـع طاقاتنـا، لا السلام الذي يتغـنى بـه الغـافلون عن اللـه، والـذي يجعـل أسمى غاياته أن يحفظ تماسك هذا التراب الـذي تمتطيـه أرواحنا.

ونبنه في هذه الرسالة ـ كما نبهنا في سائر الرسائل ـ إلى أن ما في هذه الرسالة من حقائق نوعان:

أما النوع الأول، فهو حقائق مطلقـة لا ينبغي لأحـد أن يجحـدها، لأن كـل شـيء يـدل عليهـا ابتـداء من النصـوص المقدسة.. وهذه الحقائق لا نقبل مناقشة أحد فيهـا.. ولن نجيبـه إن ناقشـنا، لأنـه لا يمكن أن يجـادل أحـد في البديهيات.

وأما النوع الثـاني، فهـو آراء وقـع فيهـا الخلاف.. وقـد اخترنـا في الخلاف مـا رأينـاه راجحـا.. ولا حـرج علينـا في ذلك.. ونحن في هذا النوع من الحقائق نتقبل كل مخالفة، ونخضع لكل توجيه، ونـتراجع عن كـل خطـأ.. ونـدعو اللـه لكل من نبهنا لذلك، فلا عصمة إلا لمن عصمه الله.

أولا ـ الكون الحي

هل تدب الحياة فيما حولنا من أشياء؟

وهل تعقل هذه الكائنات الكثيرة التي تحيط بنا نفسها وحقيقتها ووظائفها؟

وهل تعقل غيرها، وعلاقتها به؟

وهل تحزن وتئن، وتفرح وتسر؟

وهل تبغض وتحب، وتحلم وتأمل؟

وهل في قدرتها التعبير عن مشاعرها وأفكارها؟

ثم ما علاقتها بنا، وما علاقتنا بها؟

وهل نحن وسط كون حي ينبض بالحيـاة، أم نحن في لجة كون جامد لا روح فيه ولا مشاعر له؟

وما تأثير هذه المعارف على أنفسنا وأنماط حياتنا؟

هل هي مجرد قضايا فلسفية وتـرف عقلي قـد يعـني الخاصة، ولا علاقة لـه بالعامـة، أم أن لـه ارتباطـا بنـا نحن العوام والبسطاء والدهماء؟

إن هذه التساؤلات من القضايا الأساسية التي تشـغل بال الإنسان ويهتم لها، ويرسل في سبيل معرفة جزء منها المركبات الفضائية، ليسبر أغوار الكون، ويبحث عن أحيـاء فيه، ويتساءل بحماقة وغـرور: هـل هنـاك حيـاة على غـير الأرض؟

ولكن الحقائق الكبرى ــ التي تبينها الوثيقة الإلهية التي تنطوي على حقائق الوجود وأسراره ــ تخبر أن هذا الكون لا يحوي أحياء فقط، بل هو نفسه حي، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني.

أما ما نتصوره نحن من حياة فهو صورة فقط من صور الحياة، وهي صورة ارتباطات مادية حيوية بعضها ببعض.

وكما أن العلم الحديث يقر بوجود حياة في الخلية الواحدة، سواء كانت ضمن نسيج واحد أو كانت مستقلة منفردة، فكذلك تنبئنا النصوص المقدسة أن الكون كله حي جملة وتفصيلا، وكل ذرة فيه أو ما دونها كائن حي له حقيقته التي استدعت وجوده، كما أن له صورته التي نعرفه من خلالها.

قال بديع الزمان النورسي مبينا هذه الحقيقة وأثرها النفسي:(فالكونُ بجميع عوالمه حيّ ومشع مضئ بذلك التجلي، وِالاّ لأصبح كل من العوالم - كما تراه عين الضلالة - جنازة هائلة مخيفة تحت هذه الدنيا المؤقتة الظاهرة، وعالماً خرباً مظلماً)(1)

* * *

ولكن الإيمان بهذه الحقائق إيمانا ذوقيا شهوديا يستدعي مرآة صافية، وقلبا محررا من أوثاق الهوى.

هذا في الدنيا، أما في النشأة الآخرة فإن الإنسان ـ

1) الكلمة العاشرة - ص: 120.

مؤمنا كان أو كافرا ـ بعد انحسار حجاب الغفلة يدرك هذه الحقـائق، كمـا قـال تعـالى: لَقَـدْ كُنْتَ فِي غَفْلَـةٍ مِنْ هَـذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (قّ:22)

فمن معاني الغفلة في الآية تعطل الطاقـات عن أداء وظيفتها بسبب إهمالها وعدم استعمالها.

وقد أخبر ﷺ عن هذا الإدراك في أحاديث كثـيرة لعـل أشهرها ما أخبر به عن معرفة أهل الجنة والنار للموت مع أنه جاءهم في صورة حسية، قال ﷺ:(يجاء بـالموت يـوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنـار، فيقـال: يا أهـل الجنـة هـل تعرفـون هـذا؟، فيشـرئبون وينظـرون، ويقولون: نعم هذا الموت، ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هـذا؟ فيشـرئبون وينظـرون ويقولـون: نعم هـذا المـوت، فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النـار خلـود فلا مـوت، ثم قـرأ رسـول اللـه ﷺ قولـه تعالى: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (مريم:39) وأشار بيده إلى الدنيا)(1)

فهـذا الحـديث يكـاد يصـرح بالقـدرات الهائلـة لأهـل النشأة الآخرة في التعرف على هذه الحقائق، يستوي في ذلك مؤمنهم وكافرهم، وأهل الجنة وأهل النار.

بل إن القرآن الكريم صـرح بـذلك حين ذكـر قـدرتهم على سماع جوارحهم، وهي تخـاطبهم، قـال تعـالى: يَـوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (النور:24)

---

1) رواه البخاري ومسلم.

***

انطلاقا من هذه المعاني سـنتحدث في هـذا الفصـل عن بعض الغيب الـذي كشـف لنـا عن بعض دلائـل الحيـاة ونوعها فيما نراه من كائنات سواء كانت جامدة لا حظ لها من الحيـاة والعقـل، أو حيـة نعطيهـا صـورة من صـورة الحياة، وهي صورة الحركة والنمو، وننفي عنها أهم ما في الحياة من العقل والوعي والشعور والاختيار.

وسـنكتفي بأربعـة مظـاهر للحيـاة تكفي أي عاقـل ليحكم من خلالها بالحيـاة لمن اتصـف بهـا، وهي: الإدراك، والمشاعر، والتعبير، والتحضر.

1 ـ الإدراك:

الإدارك هو أهم صفة من صفات الحياة، بـل هـو ركن الحياة الركين، حتى أن من القدامى من عـرف الحي بأنـه المدرك النامي، أو عرفه بأنه المدرك فقـط، فمن اكتمـل له الإدارك كان له من الحياة حظهـا الأوفـر، ومن كـان لـه بعض الإدراك كان له من الحياة ما كان له من الإدراك.

ويراد بالإدراك توفر الواسـائل المتيحـة للتعـرف على العالم الخارجي.

وربما يكون هذا الحد هو الحجاب الذي جعلنا، أو جعل أوهامنا تعتقد موت ما نراه من أشياء.. ذلك أننا لا نرى لها عيونا ترى بهـا، أو آذانـا تسـمع بهـا، أو جلـودا تلمس بهـا.. فنحكم من خلال غياب الوسيلة على غياب الغاية.

وهذا حكم خاطئ ابتداء.. ومن السهولة التعرف على

خطئه.

فقبل قرنين من الزمان فقط كان اللسان شرطا من شروط القدرة على الكلام.. ولكنا الآن، وبفضـل مـا تـوفر لنا من تقنيـات أزحنـا هـذا الشـرط.. فأصـبحت الشـريحة الصغيرة التي لا تكاد ترى تتحدث بلسان فصيح، بل تــترنم بألحان دونها كل الحناجر مع أنه ليس لها لسان ولا حنجرة ولا هواء يدخل أو يخرج.

وهكذا القول في شـئون كثـيرة كـان الـوهم المتلبس بلبــاس العقــل يحكم فيهــا بأحكامــه على العقــل.. ولكن الحقائق التي أتاحها العلم مكنتنـا من التعـرف على محــل الوهم.

وهكذا ينبغي أن نتعامـل مـع مـا لم نعلم علمـه بعـد.. وإلا وقعنا فيما وقع فيه أهل القرون السـالفة من الأوهـام المتلبسة بلباس العلم.

بعد هذا الخطاب البديهي للعقل، والذي قد لا نســتفيد منه شيئا غـير كـون كـل ذلـك ممكنـا، نرجـع إلى المصـدر المعصـوم للمعـارف لنتعـرف على ترجيحــه لأحــد وجهي الإمكان.

والنصوص المقدسة تخبرنا عن هـذا الــوعي والإدراك بأساليب مختلفة، ربمـا تكـون هـذه الرسـالة جميعـا، أدلـة عليها.

ولكنا سنقتصر هنا على بعض ما ذكرت النصــوص من نماذج على هذا الشرط من شروط الحياة.

فمن مظـاهر الإدراك مثلا إدراك المـدرك للعـواقب، فلذلك يحترز منها بصنوف الاحترازات.. فنعـرف من خلال احترازه على مدى إدراكه.

ومما يـذكر هنـا من بـاب التنكيت أن بعضـهم زعم الصـمم، ليتخلص من وظيفـة كلـف بهـا، فاحتـال عليـه المسؤول بأن صاح فجأة فيه:(احذر.. فإن عقربا تريـد أن تلدغك).. فابتعد الرجـل مسـرعا.. وانطلت الحيلـة عليـه.. وعرف أن إدركه سليم بسبب احترازه.

وهذا الدليل نسـتطيع أن نفهم منـه قولـه تعـالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَـةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَـأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا الْإِنْسَـانُ إِنَّهُ كَـانَ ظَلُومـاً جَهُولاً (الأحزاب: 72)، فالحياة العاقلة المدركة للعـواقب هي التي منعت هذا الكون من قبول أمانة التكليف.

ولـولا مـا في الكـون من طاقـة الإدراك والاختيـار مـا عرض عليه هذا العرض الخطـير، ولولاهـا مـا أجـاب هـذه الإجابة الواعية.

ومع صراحة النصـوص الدالـة على هـذا المعـنى نجـد بعض المفسرين يجنح بها إلى التأويل الذي لا يحتـاج إليـه، فقد ذهب بعضهم ـ كمـا يـذكر القرطـبي وغـيره ــ إلى أن العـرض في هـذه الآيـة ضـرب مثـل، (أي أن السـموات والأرض على كبر أجرامها، لـو كـانت بحيث يجـوز تكليفهـا لثقل عليها تقلد الشرائع، لما فيها من الثواب والعقاب، أي أن التكليـف أمـر حقـه أن تعجـز عنـه السـموات والأرض

والجبال، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل)(1)

وقال قوم: إن الآية من المجاز، أي إنا إذا قايسنا ثقـل الأمانــة بقــوة الســموات والأرض والجبــال، رأينــا أنهــا لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت.

وهذا التأويل البعيد للآية تغليب للعقــل المحــدود على الوحي المطلق، وهو نتيجة لصحبة العقـل المسـلم للفكـر المادي، ولهذا كـان السـلف الـذين لم يتلوثـوا بمثـل هـذه الصحبة أشـرف فهمـا، وأعظم إيمانـا، وقـد روي في هـذا عن عبدالله بن مسعود قال: لما خلـق اللـه الأمانـة مثلهـا صخرة، ثم وضعها حيث شاء ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها، وقال لهن: إن هـذه الأمانـة، ولهـا ثـواب وعليها عقاب؛ قالوا: يا رب، لا طاقة لنا بها؛ وأقبل الإنسان من قبل أن يدعي فقـال للسـموات والأرض والجبـال: مـا وقوفكم؟ قالوا: دعانا ربنـا أن نحمـل هـذه فأشـفقنا منهـا ولم نطقها؛ قال: فحركها بيـده وقـال: واللـه لـو شـئت أن أحملها لحملتها؛ فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه، ثم وضعها وقـال: واللــه لـو شـئت أن أزداد لازددت؛ قـالوا: دونـك! فحملها حتى بلـغ بهـا حقويـه، ثم وضـعها وقـال: واللـه لـو شئت أن أزداد لازددت؛ قالوا: دونك، فحملها حتى وضــعها على عاتقه، فلما أهـوى ليضـعها، قـالوا: مكانـك! إن هـذه الأمانة، ولها ثـواب وعليهـا عقـاب وأمرنـا ربنـا أن نحملهـا فأشفقنا منها، وحملتهـا أنت من غـير أن تـدعي لهـا، فهي في عنقك وفي أعناق ذريتك إلى يـوم القيامـة، إنـك كنت

1) تفسير القرطبي:14/225.

ظلوما جهولا(2).

2 ـ المشاعر:

المشاعر الوجدانية هي روح الحيـاة.. ومن لا مشـاعر له لا حياة له..وقديما قال الشاعر يسخر من الذي لم يذق قلبه طعم الحب:

إذا لم تذق في هذه الدار صبوة فموتك فيهـا والحيـاة سواء

وقال الآخر معبرا عن قصـور حيـاة من لم يـذق طعم هذه المشاعر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فـأنت وعـير في الفلاة سواء

وقال الآخر يرميها بالجمود:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر مـا الهـوى فكن حجـرا من يابس الصخر جلمدا

وقال الآخر يرميها بالبهيمية:

إذا أنت لم تعشق ولم تـدر مـا الهـوى فقم فـاعتلف تبنا فأنت حمار

وكل هؤلاء ـ ما عدا أولهم ـ عـبروا حسـب معـارفهم، وحسبما دلتهم عليه مداركهم المحدودة.. أما الحقيقة التي تنص عليها النصوص المقدسة.. فتخـالفهم في ذلـك تمـام

2) انظر: القرطبي:14/257.

المخالفة..

فالنصوص المقدسة تنطق بكل لسان على ما لهذه الموجودات ـ سواء كان منها ما ينتمي إلى العالم الذي نسميه جمادا، أو العالم الذي نعطيه بعض أوصاف الحياة، وننزع منه أهمها.

وسننطلق من النصوص المقدسة لنتعرف على بعض أسرار المشاعر التي تمتلئ بها قلوب الكائنات:

الخشوع:

فمنها الخشوع، وهو مجموعة مشاعر سامية يختلط فيها الحب بالهيبة وبالخشية وبالرجاء.. وهو لا يمكن أن يكون إلا لمن امتلأ بالحياة الحقيقية..

قال تعالى واصفا تأثير نزول القرآن على الجبل: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر:21)

بل إنه من فرط الخشوع للتجلي يندك، قال تعالى: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً (لأعراف: 143)

بل ينهد لسماع شرك المشركين، قال تعالى:﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (مريم: 90 ـ91)

وقد ذكر العلماء ـ انطلاقا من هذه الآية ـ الأثر الشديد الذي خلفه الشرك في الأشياء، فذكر عن بعضهم أنه

قال:(إن الله تعالى لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم تك في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة وكان لهم منها منفعة فلم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم فجرة بني آدم تلك الكلمة العظيمة وهي قولهم: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (مريم:88)، فلما قالوها اقشعرت الأرض وشاك الشجر)(1)

وكان ابن عباس يرجع ما في الأرض من الأذى بسبب هذا قال: (اقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار والبحار وما فيها من الحيتان فصار من ذلك الشوك في الحيتان وفي الأشجار الشوك)(2)

ونحن وإن كنا لا نجزم بهذا، ولكنا مع ذلك ندرك أن الصور والخصائص التي نراها للأشياء لها علاقة كبيرة بانفعالاتها التي يسببها سلوكنا، ولذلك قد نستلذ طعوما أو مناظر في بعض الأيام، ثم نستقبحها أياما أخرى، وقد نعزو ذلك إلى نفوسنا فقط ونعزل الكون من هذا الأثر المتناقض للأشياء.

وقد ورد في الآثار ما يدل على سرور الأشياء، والذي قد يسري إلى الناظرين ليشعرهم بالأنس والسعادة، فقد روي أن الجبل يفخر إن مر عليه ذاكر لله تعالى، فعن ابن مسعود قال:(إن الجبل ليقول للجبل: هل مرَّ بك اليوم ذاكر لله؟ فإن قال: نعم، سُرَّ به) ثم قرأ عبد الله قوله

---

1) رواه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

2) القرطبي: 11/158.

تعـالى: وَقَـالُوا اتَّخَـذَ اللَّهُ وَلَـداً سُـبْحَانَهُ بَـلْ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُـلٌّ لَـهُ قَـانِتُونَ (البقـرة:116) قـال: (أفتراهن يسمعن الزور ولايسمعن الخير)(1)

وعن أنس بن مالك قـال:(مـا من صـباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضا، يا جاره هل مـر بـك اليـوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك، فمن قائلة لا، ومن قائلة نعم، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلا عليها)(2)

وقد أخبر القرآن الكريم عن مشاعر الخشية من الله الـتي تجعـل الحجـارة تهبـط أو تتفجـر أو تتشـقق.. قـال تعالى: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّـقَّقُ فَيَخْـرُجُ مِنْـهُ الْمَـاءُ وَإِنَّ مِنْهَـا لَمَـا يَهْبِـطُ مِنْ خَشْـيَةِ اللَّه(3))(البقرة: 74)

وقد زعم بعضهم أن إسناد الخشوع إلى الحجارة جاء من باب المجاز، كما أسندت الإرادة إلى الجـدار في قولـه تعـالى: فَوَجَـدَا فِيهَـا جِـدَاراً يُرِيـدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَـهُ (الكهف: 77)

ولا حاجة إلى هذا كما ذكرنا، والنصوص الكثـيرة الـتي أوردناها تدل على هذا.

الغضب:

---

1) ابن أبي شيبة: 7/110.

2) رواه ابن المبارك في (دقائقه)، انظر: القرطبي:10/267.

3) انظر: ابن كثير: 1/114 فقد رد على هذا الزعم بالنصوص الكثيرة.

ومن المشاعر التي ورد في النصـوص الحـديث عنهـا الغضب..

فقد أخبرنا القـرآن الكـريم أن جهنم ـ مثلا ـ ليسـت تنورا للعذاب لا عقل له، وإنما هي كائن ككينونـة الإنسـان لها عقل ووعي ومشاعر.

بل إن مصدر عذابها وشدته نابع من غضبها للـه، فهي مغتاظـة على الجاحـدين، كمـا قـال تعـالى: إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (الفرقان:12)

وقد صور بعض السلف شدة هذه الزفرة النابعــة من الغيظ بقوله:(إن جهنم لتزفر زفـرة لا يبقى ملـك مقـرب ولا نـبي مرسـل إلا خـرَّ لوجهـه، ترتعـد فرائضـه، حـتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه، ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي)[1]

ومثل زفير استقبالها لأهلها، يصورها القرآن الكـريم بصورة الجلاد الحي الذي يتفنن في التعذيب، وهـو مـدرك ماذا يفعل ولماذا يفعل، قال تعـالى: كَلَّا إِنَّهَـا لَظَى نَزَّاعَـةً لِلشَّوَى تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى (المعـارج:15 ـ 18)

فـالقرآن الكـريم عـبر عمـا يحصـل فيهـا من نـزع للشوى[2]، بصيغة (نزاعة) للدلالـة على أن شـخص جهنم

1) رواه عبد الرزاق.

2) قال ابن عباس: جلدة الرأس، انظر: الطبري: 29/76، ابن كثير: 4/422.

الحي هو الذي يؤدي هذه المهمة، بل يخـبر أنهـا تـدعو من أدبر وتولى.

وهذا الغيـظ الـذي تبديـه جهنم لأهلهـا ليس ناتجـا من قسوة طبعية، بل هو كما توضـح النصـوص نـابع من غـيرة إيمانية، وقد قـال ابن عبـاس:(إن الرجـل ليجـر إلى النـار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الــرحمن: مــا لك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقـول أرسـلوا عبـدي؛ وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقـول: فمـا كـان ظنـك؟ فيقـول: أن تسـعني رحمتـك، فيقول: أرسلوا عبدي؛ وإن الرجل ليجر إلى النار فتشــهق إليه النار شهقة البغلـة إلى الشـعير، وتزفـر زفـرة لا يبقى أحد إلا خاف)(1)

والقرآن الكريم يخبرنـا بـأن جهنم ــ لشـوقها لأهلهـا ـ تدرك بما أعطاها اللـه من البصـيرة أن هنـاك من لا يـزال خارجها، فلذلك تطالب بالمزيـد، قـال تعـالى: يَـوْمَ نَقُـولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (قّ:30)

والجنــة في القــرآن الكــريم، وكمــا توضــح الأخبــار والآثار المفسرة له ــ مثـل جهنم وكـل مكونـات العـالم الآخر ـ كائن حي مدرك متكلم، له مشـاعره الوجدانيـة، جعله الله تعـالى محلا لرحمتـه، ومجلى لصـفات فضـله وكرمه.

وقد ورد في الآثار ما يدل على شـوق الجنـة لأهلهـا شـوقا لا يقـل عن شـوق أهلهـا إليهـا، قـال ﷺ:(قـالت

1) ذكره ابن جرير في تفسيره وقال ابن كثير: إسـناده صـحيح، انظـر: الطـبري: 18/187، ابن كثير: 3/312.

الجنة: يا رب قد أطردت انهاري وطـابت ثمـاري فعجـل على بأهلي)(1)

الشفقة:

ومنها شعور الشفقة هيبة من الله وإجلالا له، قال ﷺ: (إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله وهـو أعظم عند الله من يوم الأضـحى ويـوم الفطـر فيـه خمس خلال خلق الله فيـه آدم وأهبـط اللـه فيـه آدم إلى الأرض وفيـه توفى الله آدم وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شـيئا إلا أعطاه ما لم يسأل حراما وفيه تقوم الساعة ما من ملــك مقـرب ولا سـماء ولا أرض ولا ريـاح ولا جبـال ولا بحـر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة)(2)

والـذراع المسـمومة تشـفق على رسـول اللـه ﷺ، فتخبره عن سميتها(3).

والجبـل يشـفق على رسـول اللـه ﷺ، كمـا روي أن النبي ﷺ قال:(قال لي ثبير اهبط فإني أخـاف أن يقتلـوك على ظهري فيعـذبني اللـه. فنـاداه حـراء: إلي يـا رسـول الله)(4)

والشجر يمشي حين يدعوه رسول الله ﷺ .

1) رواه الليث بن سعد.

2) رواه أحمد وابن ماجة.

3) انظر: شعب الإيمان: 1/160.

4) أورده القرطبي: 1/466. ولا نعلم درجته.

والجذع يحن لفقـد رسـول اللـه ﷺ، فلا يسـكن حـتى يضمه ﷺ، عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى لزق جـذع فأتـاه رجـل رومي فقـال أصـنع لـك منـبرا تخطب عليه فصنع له منبرا هذا الذي ترون، قال فلما قام عليه النبي ﷺ يخطب حن الجذع حـنين الناقـة إلى ولـدها، فنزل إليه رسول الله ﷺ فضمه إليه فسـكن فـأمر بـه أن يحفر له ويدفن)(1)

وقد كان ﷺ يبادل هذه الأشياء مشاعرها، فكان يقول عن أحد: (هذا جبل يحبنا ونحبه)(2)

الرحمة:

ومن المشــاعر الــتي ورد في النصــوص المقدســة نسـبتها للكائنـات مشـاعر الرحمـة.. وهي من المشـاعر العظيمة التي تستدعي منتهى الكمال والرقي.

ومن ذلــك مــا ورد في النصــوص من الإخبــار عن المشــاعر الفائضــة من قلــوب الأشــياء دموعــا رحمــة للمؤمن، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَمَـا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (الدخان:29)

فهذا البكاء الذي أخـبر عنـه القـرآن الكـريم ليس من جنس مـا كـانت تعـبر بـه العـرب عن أحزانهـا، كمـا قـال الشاعر:

---

1) الترمذي: 2/379، الدارمي: 29.

2) البخاري: 2/539، مسلم: 2/993.

فالريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامة

وقال آخر:

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وقالت الأخرى:

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

لأن النصوص المقدسة لا يدخلها مثل هذا التأويل، ولو ورد في كلام العرب، فلا النقل ينفيه، ولا العقل يحيله.

بل قد ورد في النقل ما يدل عليه، ومن ذلك قوله ﷺ :(ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان، باب ينزل منه رزقه، وباب يدخل منه كلامه وعمله، فإذا مات فقداه فبكيا عليه، ثم تلا قوله تعالى:﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ (الدخان: 29)[1]

ولهذا أخبر القرآن الكريم بعدم بكاء السموات والأرض على الكفار، لأنهم لم يعملوا على الأرض عملا صالحا تبكي عليهم لأجله، ولا صعد لهم إلى السماء عمل صالح فتبكي فقده، قال علي:(إنه يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء)[2]

---

1) رواه الترمذي.

2) انظر هذه الآثاروغيرها في: القرطبي: 16/140، ابن كثير: 4/143.

وكمـا تبكي الأرض والسـماء على المـؤمن، تستبشـر به، وقد قال أنس:(لما كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة أضاء كل شيء، فلما كـان اليـوم الـذي قبض فيـه أظلم كل شيء، وإنا لفي دفنه ما نفضنا الأيدي منـه حـتى أنكرنا قلوبنا)(1)

ولهذا لا يصح اعتبار المسلم غريبا ما دام محاطا بكـل هذه المشاعر الفياضة التي تتدفق من حوله، قال ﷺ:(إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبـا كمـا بـدأ فطـوبى للغربـاء يوم القيامة قيل: من هم يا رسول الله؟ قـال - هم الـذين إذا فسد الناس صلحوا - ثم قال - ألا لا غربة على مـؤمن، وما مات مؤمن في غربة غائبـا عنـه بواكيـه إلا بكت عليـه السماء والأرض) ثم قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى:﴿ فَمَـا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾، ثم قال:(ألا إنهما لا يبكيان على الكافر)(2)

وكما أن المؤمن يعيش بصحبة هذه المشاعر الفياضة التي تفيض عليه من الكون، فـإن الكـافر والغافـل بعكس ذلك، فقد أخبر ﷺ أن البلاد والشجر والدواب تسـتريح من أذى العبد الفاجر، فقد روي أن جنـازة مـرت على رسـول الله ﷺ فقال:(مستريح ومستراح منه) قـالوا:(يـا رسـول الله ما المستريح والمسـتراح منـه) قـال:(العبـد المـؤمن يسـتريح من نصـب الـدنيا وأذاهـا إلى رحمـة اللـه، والعبـد

---

1) ابن ماجة.

2) البيهقي في الشعب.

الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)(1)

وقد ذكر العلماء وجوها من استراحة الكون من العبد الفاجر الكـافر أو العاصـي منهـا أن العبـاد يسـتريحون من ظلمه لهم، وما يأتي به من المنكر، فإن أنكروا آذاهم، وإن تركوه أثموا.

والبلاد تستريح مما يفعله فيها من المعاصي، فيحصل الجـدب، ويهلـك الحـرث والنسـل، أو لغصـبها ومنعهـا من حقها.

والشجر يستريح منه لقلعه إياه غصبا أو غصب ثمره.

والدواب تسـتريح منـه لاسـتعماله لهـا فـوق طاقتهـا، وتقصيره في علفها وسقيها(2).

وهي وجوه لا يراد بها الحصر، فالتأذي الذي يحصـل لها من جنس التأذي الذي يحصل للمؤمن عنـدما يسـمع كلمة الكفر، وقد ذكرنا سابقا قوله تعالى عن تأثير كلمة الكفـرعلى الأشـياء: ﴿ تَكَـادُ السَّـمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْـهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾ (مريم:90)

بل ورد في النصوص والآثـار أن العلاقـة بين المـؤمن والكون ليست علاقة مشاعر فقط، بـل هي علاقـة تعـاون وتكافل، فقد أخبر ﷺ أنـه:(لا تقـوم السـاعة حـتى يقاتـل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر أو الشجرة فيقول الحجر أو الشجر يـا مسـلم

1) رواه البخاري ومسلم.

2) انظر: شرح الزرقاني: 2/125.

يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقـد فإنـه من شجر اليهود)(1)

وأخبر ابن عباس عن عابد كـان يتعبـد في غـار فكـان يأتيه غراب كل يوم برغيف حتى مات العابد.

التعظيم:

من المشـاعر الـتي ورد في النصـوص نسـبتها لهـذه الكائنات التعظيم.. وهو نابع من معارف كثيرة لا يمكن أن تكون إلا لحي عاقل قد اكتمل له الحياة والعقل.

فقد ورد في النصـوص مـا يـدل على تعظم الكائنـات لرسول الله ﷺ بسجود الاحترام والتقدير.

فقـــد روي أن رســـول اللـــه ﷺ كـــان في نفـــر من المهاجرين والأنصار، فجاء بعير فسجد له، فقـال أصـحابه: (يا رسول الله تسجد لك البهائم والشجر، فنحن أحـق أن نسجد لك) فقال:(اعبدوا ربكم، وأكرموا أخاكم)(2)

وفي الحـــديث دليـــل على تكـــرر ذلـــك من البهـــائم المختلفة والشجر.

ومن هذا الباب طاعتها لرسول الله ﷺ وشهادتها لـــه، فقـد روي أن أعرابيـا دنـا من رسـول اللـه ﷺ، فقـال لـه رسول الله ﷺ: أين تريـد؟ قـال: إلى أهلي قـال: هـل لـك في خير، قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحـده

1) مسلم.

2) أحمد.

لا شريك له وأن محمدا عبده ورسـوله، قـال: ومن يشـهد على ما تقول، قال: هذه السلمة، فدعاها رسـول اللـه ﷺ وهي بشـاطئ الـوادي، فـأقبلت تخـد الأرض خـدا، حـتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثـا، فشـهدت ثلاثـا أنـه كمـا قـال، ثم رجعت إلى منبتهـا، ورجـع الأعـرابي إلى قومـه، وقال: إن اتبعوني أتيتك بهم وإلا رجعت فكنت معك(1).

وقد تكرر ذلك مرات مختلفة، منهـا أنـه جـاء أعـرابي إلى رسول الله ﷺ فقال:(بم أعرف أنك نـبي) قـال:(إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول اللـه) فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حـتى سـقط إلى النبي ﷺ ثم قال:(ارجع) فعاد فأسلم الأعرابي(2).

وقد كان احترام الكائنات لرسـول اللـه ﷺ وتعظيمهـا له ومعرفتهـا بمنزلتـه عنـد اللـه داعيـة لهـا للاسـتجارة بـه واللجوء إلى بابه كما يلجأ الصـادقون، وقـد روي من ذلـك أن جزارا فتح بابا على شـاة ليـذبحها، فـانفلتت منـه حـتى جاءت النـبي ﷺ فتبعهـا وأخـذ يسـحبها برجلهـا، فقـال لهـا النبي ﷺ: (اصبري لأمر الله، وأنت يا جـزار فسـقها سـوقا رفيقا)(3)

وروي مثل ذلـك عن جمـل جـاء إلى رسـول اللـه ﷺ يشكو صاحبه، فقد دخل رسول الله ﷺ حائطـا لرجـل من

1) الدارمي: 22، مسند أبي يعلى: 10/34.

2) الترمذي: 5/594، الأحاديث المختارة: 9/539.

3) رواه عبد الرزاق.

الأنصـار فـإذا فيـه جمـل، فلمـا رأى النـبي ﷺ حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله ﷺ فمسـح ذفـراه فسـكت فقـال: من رب هـذا الجمـل؟ لمن هـذا الجمـل؟ فجـاء فـتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال ﷺ:(أفلا تتقى اللـه في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنـه شـكا إلى أنـك تجيعه وتذيبه)(1)

وفي روايـة أخـرى أو في حادثـة أخـرى عن يعلى بن مرة قال:(كنت مع النبي ﷺ جالسا ذات يوم إذ جاء جمل يخبب حتى ضرب بجرانه بين يديه ثم ذرفت عيناه، فقـال: ويحك انظر لمن هذا الجمل؟ إن له لشـأنا، قـال فخـرجت ألتمس صـاحبه فوجدتـه لرجـل من الأنصـار فدعوتـه إليـه فقال: مـا شـأن جملـك هـذا؟ فقـال: ومـا شـأنه؟ لا أدرى والله ما شأنه، حملنا عليـه ونضـحنا عليـه حـتى عجـز عن السقاية فأتمرنا البارحة أن ننحره ونقسـم لحمـه، قـال: لا تفعل هبه لي أو بعنيه، فقال: بل هـو لـك يـا رسـول اللـه، قال: فوسمه بميسم الصدقة ثم بعث به)(2)

وفي روايـة أخـرى أن رسـول اللـه ﷺ قـال لصـاحب البعير:(ما لبعـيرك يشـكوك؟ زعم أنـك سـنأته حـتى كـبر تريد أن تنحره، قال: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أفعل)

وفي رواية أخرى أو حادثة أخرى قال رسول اللــه ﷺ لصاحب البعير:(بعنيه)، فقال:(لا بل أهبـه لـك يـا رسـول

---

1) رواه أحمد وأبو داود.

2) رواه أحمد.

الله، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره)، فقال:(أما إذا ذكرت هذا من أمره فإنه شكا كثرة العمل وقلة العلف، فأحسنوا إليه)

ومثل ذلك روي عن أنس قال: مر رسول الله ﷺ على قوم قد صادوا ظبية فشدوها إلى عمود فسطاط، فقالت: يا رسول الله إني وضعت ولدين خشفين، فاستأذن لي أن ارضعهما ثم أعود، فقال رسول الله ﷺ: خلوا عنها حتى تأتى خشفيها فترضعهما وتأتى إليكما، قالوا: ومن لنا بذلك يا رسول الله؟قال أنا. فأطلقوها فذهبت فأرضعتهما ثم رجعت إليهما فاوثقوها، قال: أتبيعونها؟ قالوا: يا رسول الله هي لك، فخلوا عنها، فأطلقوها، فذهبت[1].

3 ـ التعبير

من أهم مظاهر الحياة القدرة على التعبير.. وهي وإن كانت ليست شرطا في الحياة إلا أن كمال الحياة لا يتحقق إلا بها.

وقد أخبر القرآن الكريم عن هذه الطاقة التي تتمتع بها الأشياء، بل أخبر أن هذه الطاقة زودت بها الأشياء منذ ولادتها، فقد قال تعالى عن الكون المتشكل من السموات والأرض:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

---

1) رواه الطبرانى.

(فصلت:11)(1)

وأخبر عن الإنسان أنه تحدث، وهو لا يـزال في عـالم الذر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِـرَبِّكُمْ قَـالُوا بَلَى شَـهِدْنَا أَنْ تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـذَا غَـافِلِينَ﴾ (لأعراف:172)

بـل أخـبر أن الكـافرين يكتشـفون يـوم القيامـة هـذه القـدرة الـتي تتمتـع بهـا الكائنـات الـتي كـانوا يحسـبونها جامـدة، قـال تعـالى حكايـة عن كلام الجلـود بعـد تعجب الكفار من كلامها: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَـالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (فصلت: 21)

بالإضافة إلى هذا، فقد ورد في النصـوص أن الجنـة تتكلم، وتعقل أهلها، قال ﷺ:(لما خلـق اللـه جنـة عـدن خلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشـــر ثم قـــال لهـــا تكلمي فقـــالت: قـــد أفلح المؤمنون)(2)

وقد أخبرنا ﷺ عن حوار جرى بين الجنة والنار، فقال: (تحاجت الجنـة والنـار، فقـالت النـار: أوثـرت بـالمتكبرين

---

(1) استطاع العلم الحديث ـ بما زود من وسائل ـ أن يتوصل إلى ما يـدل على هـذا الحديث الكوني، وقد كان شرف هـذا الاكتشـاف لأحـد علمـاء الفضـاء، وهـو البروفيسـور (مارك ويتل) من جامعـة فيرجينيـا.. فقـد تحـدث هـذا العـالم عن الأمـواج الصـوتية الـتي أطلقها الكون عندما كان عمره 380 ألـف سـنة، واسـتمر هـذا الصـوت النـاتج عن تمـدد وتوسع الكون حتى أصبح عمر الكون مليون سنة، عندها بـدأت النجـوم الأولى بالتشـكل. (انظر: السماء تتكلّم! حقائق كونيـة حديثـة جـداً تتجلّى في القـرآن، بقلم المهنـدس عبـد الدائم الكحيل، من موقع: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) وانظـر في هـذا: رسالة (معجزات علمية)

(2) المعجم الكبير للطبراني: 11/184.

والتمجـبرين؛ وقـالت الجنـة: مـالي لا يـدخلني إلا ضـعفاء الناس وسقطهم؟ قال اللّه عزَّ وجلَّ، للجنـة: أنت رحمـتي أرحم بـك من أشـاء من عبـادي، وقـال للنـار: إنمـا أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها)[1]

وهذه النصوص وغيرها تدل على حياة العالم الآخـر ووعيه وإدراكه وشعوره، وهو مـا يهب ذوقـا خاصـا لمن تأمله وعاشه.

فإدراك المؤمن ـ مثلا ـ بأن هذه الأرض التي يعيش فيها، والتي لم يسمع حديثها، أو لم يخطر على باله أنهـا تتحدث، ستتحدث يوما ما لتخـبره بكـل حركـة قـام بهـا على ظهرهـا، يجعلـه محتاطـا متأدبـا متواضـعا، فهـو لا يركب جمادا لا يعقل، بل هو يمتطي كائنا حيـا لـه وعيـه ومشاعره.

قال تعالى مصـورا ذلـك اليـوم: إِذَا زُلْـزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْـرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَـا وَقَـالَ الْإِنسَـانُ مَـا لَهَـا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (الزلزلة)

وقد فسر ﷺ حديث الأرض في ذلـك اليـوم العظيم بقولـه بعـد أن تلا قولـه تعـالى: يَوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ أَخْبَارَهَا (الزلزلة:4):(أتدرون ما أخبارها؟ قـالوا: اللّـه ورسـوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمـل كـذا وكـذا يـوم كـذا وكذا، فهذه أخبارها)[2]

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

ولهــذا ورد في الحــديث الأمــر بمراعــاة الأرض والتحفـظ منهـا، قـال ﷺ:(تحفظـوا من الأرض فإنهـا أمكم، وإنه ليس من أحد عامـل عليهـا خـيراً أو شـراً إلا وهي مخبرة)(1)

بل أخبر ﷺ أن بعض هذا الكشف سيحصل في الـدنيا عندما تقترب رحلتها من الدار الآخرة، أو في البرزخ الـذي بين الدنيا والآخرة، قال ﷺ:(والـذي نفسـي بيـده لا تقـوم السـاعة حـتى تكلم السـباع الإنسـان وحـتى تكلم الرجـل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بمـا أحـدث أهلـه من بعده)(2)

وليس ذلك خاصا بالآخرة.. ولا بالبرزخ الذي بين الدنيا والآخرة، بل ورد في النصوص مـا يشـمل الـدنيا والآخـرة، وقد قال رسول اللـه ﷺ:(إني لأعـرف حجـرا بمكـة كـان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن)(3)

هذا في عالم الجماد، أما في عالم الحيوان، فقد ذكـر القرآن الكريم منطق حيوانين هما الهدهد والنملة:

أما الهدهد، فقد وردت قصته في قولـه تعـالى إخبـارا عن بعض ما وهب سليمان ؑ من الملـك أنـه ذات يـوم: ﴿ تَفَقَّدَ الطَّيْــرَ فَقَــالَ مَــا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُــدَ أَمْ كَـانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ (النمل: 20)

---

1) الطبراني في المعجم الكبير.

2) رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان.

3) رواه مسلم.

وبنبرة الحزم الـتي تقتضـيها السـلطة، قـال: لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُـلْطَانٍ مُّبِينٍ (النمـل: 21)

وبعد مدة جـاء الهدهـد، ومعـه الحجـة الـتي يـبرر بهـا غيابه، وهي حجـة جعلتـه يـدخل على سـليمان ﷺ مزهـوا فاخرا، ليقول له: أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُـكَ مِن سَـبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (النمل: 22)

ثم ذكر النبأ اليقين الذي جاء به، فقـال: إِنِّي وَجَـدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُـلِّ شَـيْءٍ وَلَهَـا عَـرْشٌ عَظِيمٌ (النمل: 23)

وبنبرة الغاضب لله قـال: وَجَـدتُّهَا وَقَوْمَهَـا يَسْـجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (النمل: 24)

وبنبرة العـارف باللـه والناصـح لخلـق اللـه قـال: أَلَّا يَسْـجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْـرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَـا تُخْفُـونَ وَمَـا تُعْلِنُـونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) (النمل)

وقد عـبر عن معرفتـه للـه بحسـب حالـه، فـذكر من صـفات اللـه أنـه يُخْـرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ

أما النملة، فقد وردت قصتها في قولـه تعـالى: حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَـالَتْ نَمْلَـةٌ يَـا أَيُّهَـا النَّمْـلُ ادْخُلُـوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُـودُهُ وَهُمْ لَا يَشْـعُرُونَ

(النمل: 18)

وهي تمثل بقولها هذا عالما جليلا من عـوالم الرحمـة والتكافل والأدب مما يقصر الكثير من البشر المتطـاولون عن البلوغ إليه.

فقد كانت في موضع تهديد بوطء جيش سـليمان ﴿عليه السلام﴾ لها، فلم تكتف في تلك اللحظة المملوءة بالرعب أن تفـر بنفسـها، بـل التفتت إلى النمـل من أصـحابها أن يفـروا بأنفسهم.

وهي في تلـك اللحظـة لم تتخـل عن الأدب، فـذكرت عذر سليمان ﴿عليه السلام﴾ وجنوده، وهو أنهم قد يطؤونهم من غـير شـعور منهم، وهـو خلـق نبيـل قـل من يكـون عليـه من البشر.

وقد كانت هذه النملة ينبوعا من المنابع الـتي فاضـت منها الروايات الكثيرة عن عالم النمل:

ومنهـا مـا روي أن سـليمان ﴿عليه السلام﴾ خـرج يستسـقي بالناس، فمر بنملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول:(اللهم إنـا خلـق من خلقـك ليس بنـا غنى عن رزقـك، فامـا أن تسـقينا وإمـا أن تهلكنـا)، فقـال سليمان ﴿عليه السلام﴾ للناس:(ارجعوا فقد سـقيتم بـدعوة غـيركم) (1)

وقد كانت لذلك ـ أيضا ـ منبعا للرحمة والشفقة ـ كما وردت بذلك النصوص والآثار، ومنها أن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ رأى قرية

1) الدر المنثور: 6/345.

نمل قد حرقت، فقال: من حرق هذه؟ قـالوا: نحن، قـال: (إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار)(1)

وورد في الحـديث أن النـبي ﷺ:(نهى عن قتـل أربـع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد)(2)

ولعل أكثر الحيوانات قدرة على التعبـير كمـا ورد في النصـوص والآثـار هي الطيـور، فهي بنغماتهـا المختلفـة الجاذبـة للقلـوب تعـبر عن أسـمى المعـاني، وأشـرف الحقائق.

وسنهتدي بنور قوله تعـالى عن سـليمان عليه السلام:﴿ عُلِّمْنَـا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ (النمل: 16) لنسمع بعض أغـاني الطيـور، دون اهتمام بأسانيد ما نذكره أو مدى صحته.

بل إنا نحاول أن نجعل من الطيـور هـداة نهتـدي بهـا، ومواعظ عبرة نعتبر بها، ونأكل البقلة من ألسنتها دون أن نسأل عن البقال(3):

وأول ما نتعلمه من الطيور الزهد والقناعة الـتي عـبر عنها هذا البلبل الزاهد الذي مر به سـليمان عليه السلام وهـو على فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبـه، فقـال سـليمان عليه السلام لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: لا يا نبي الله. قال: إنه يقول: أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء.

---

1) رواه أبو داود.

2) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة.

3) انظر هذه الآثار في: الدر المنثور: 6/344،

ونتعلم الأدب من هـذا الطـائر المـؤدب الـذي عـرف كيف يخاطب نبي الله، فقد كان سـليمان ﵇ جالسـا ذات يوم إذ مر به طـائر يطـوف، فقـال لجلسـائه: أتـدرون مـا يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي: السلام عليك أيها الملــك المسـلط والنـبي لبـني إسـرائيل! أعطـاك اللـه الكرامـة، وأظهرك على عدوك، إني منطلق إلى أفراخي ثم أمر بك الثانية؛ وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع؛ فقـال إنـه يقـول: السلام عليك أيها الملك المسـلط، إن شـئت أن تـأذن لي كيما أكتسب على أفراخي حتى يشبوا ثم آتيك فافعــل بي ما شئت. فأخبرهم سليمان بما قال؛ وأذن له فانطلق.

ونتعلم الإيمان بالقضاء والقدر من الهدهد الذي مر به سليمان ﵇، وهو فوق شجرة وقـد نصـب لـه صـبي فخـا فقال له سليمان: احذر يا هدهد! فقال: يا نـبي اللـه! هـذا صبي لا عقل له فأنا أسخر به، ثم رجع سليمان فوجده قد وقع في حبالة الصبي وهو في يده، فقال: هدهد مـا هـذا؟ قال: ما رأيتها حتى وقعت فيها يا نـبي اللـه، قـال: ويحـك! فأنت ترى الماء تحت الأرض أما تـرى الفخ! قـال: يـا نـبي الله إذا نزل القضاء عمي البصر.

ونتعلم قصر الأمل من هذا الورشان الـذي صـاح عنـد سليمان ﵇ فقال: أتدرون ما يقـول؟ قـالوا: لا. قـال: إنـه يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب. وصاحت فاختة، فقــال: أتـدرون مـا تقـول؟ قـالوا: لا. قـال: إنهـا تقـول: ليت هـذا الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا.

ونتعلم وجوهــا من الأخلاق من هــذه الطيــور الــتي صاحت عنده، وفسرها لنا:

فقد صاح عنـده طـاوس، فقـال: أتـدرون مـا يقـول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: كما تدين تدان.

وصاح عنده هدهد فقال: أتدرون ما يقـول؟ قـالوا: لا. قال: فإنه يقول: من لا يرحم لا يرحم.

وصاح صرد عنده، فقال: أتدرون ما يقـول؟ قـالوا: لا. قال: إنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين.

وصـاحت عنـده طيطـوى فقـال: أتـدرون مـا تقـول؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول: كل حي ميت وكل جديد بال.

وصـاحت خطافـة عنـده، فقـال: أتـدرون مـا تقـول؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول: قدموا خيرا تجدوه.

ونتعلم صنوف الذكر من هذه الطيور الـتي فسـر لنـا سليمان عليه السلام منطقها:

فقد هدرت حمامة عنـده، فقـال: أتـدرون مـا تقـول؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى عدد مــا في سماواته وأرضه.

وصاح قمري عنده، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال إنه يقول: سبحان ربي العظيم المهيمن.

وصاح دراج عنده، فقال: أتدرون ما يقـول؟ قـالوا: لا. قال: إنه يقول: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (طـه:5)

وحدثهم عن الغراب أنه يقول:(اللهم العن العشار)

وعن الحدأة أنها تقول: كُلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ إِلَّا وَجْهَـه

(القصص: 88)

وعن القطاة أنها تقول:(من سكت سلم)

وعن الببغاء أنها تقول:(ويل لمن الدنيا همه)

وعن الضفدع أنها تقول:(سبحان ربي القدوس)

وعن البازي أنه يقول:(سبحان ربي وبحمده)

وعن السـرطان أنـه يقـول:(سـبحان المـذكور بكـل لسان في كل مكان)

وهذه النصوص الـتي أوردناهـا ــ مـع القـول باحتمـال صحتها وعدمه ـ الغرض منهـا هـو التنبيـه إلى الحكم الـتي نطقت بها، والمعارف التي منحتها.

أما المبالغة في ذلك ــ ممـا ينتشـر بين العامـة ــ من التفـاؤل بـالطيور وأصـواتها أو التشـاؤم بهـا، فهـو محـرم شرعا، كتحريم التنجيم سواء بسواء.

فالأقدار بيد الله لا بيـد الطيـور أو النجـوم أو الكهـان، وقد روي أن طائرا مر على ابن عباس وهو يصـيح؛ فقـال رجل من القوم: خير، خير. فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شر.

وقد كانت العرب تتيمن بالسانح، وهو الـذي يـأتي من ناحية اليمين، وتتشاءم بالبارح، وهو الـذي يـأتي من ناحيـة الشـمال، وكـانوا يتطـيرون بصـوت الغـراب؛ ويتأولونـه

البين(1).

وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضـها بعضـا على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلـك، ومثلهـا الظبـاء إذا مضـت سـانحة أو بارحـة، ويقولـون إذا برحت:(من لي بالسانح بعد البارح)

ولهـذا سـمي التشـاؤم تطـيرا، وقـد جـاءت الشـريعة بالنهي عن التطير والتشاؤم بما يسمع من صوت طائر مـا كان، وعلى أي حال كان:

فنفى ﷺ نسبة المتطـير عن الأمـة، قـال ﷺ:(لن يلج الدرجا ت العلى من تكهن أو استقسم أو رجع من سـفره تطيرا)(2)

بل اعتبر التطير شـركا، فقـال ﷺ:(الطـيرة شـرك - ثلاثا - وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل)(3)

وعلمنا ﷺ كيف نوحد الله، وننفي الشرك عند التطـير بقولـه ﷺ:(من رجعتـه الطـيرة عن حاجتـه فقـد أشـرك) قيل: ومـا كفـارة ذلـك يـا رسـول اللـه؟ قـال: (أن يقـول

---

1) وكان منهم أيضا من لا يـرى التطـير شـيئا، ويمـدحون من كـذب بـه، كمـا قـال المرقش:

ولقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واق وحاتم

فإذا الأشائم كالأيا ... من والأيامن كالأشائم

2) رواه الطبراني في الكبير.

3) رواه أحمد والبخاري في الأدب.

أحدهم اللهم لا طـير إلا طـيرك ولا خـير إلا خـيرك ولا إلـه غيرك ثم يمضي لحاجته)[1]

وفي حديث آخر علمنا أن نقول:(إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بك)[2]

ونهى ﷺ عن كل سبب يؤدي إلى التطـير، فقـال ﷺ: (أقروا الطير على مكناتها[3]) [4]

وذلك أن كثيرا من أهل الجاهلية كـان إذا أراد الحاجـة أتى الطـير في وكرهـا فنفرهـا؛ فـإذا أخـذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هـو السـانح عنـدهم، وإن أخـذت ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم، فنهى النـبي ﷺ عن هذا.

ولكن الخرافـة مـع ذلـك لا تعـني سـد البـاب مطلقـا، ولذلك لا نرى أن العلم بمنطق الطير أو غيره من الأشـياء خاص بسليمان عليه السلام، فالنصوص الكثيرة تنفي ذلـك، ويكفي ما أخبر ﷺ عنـد ذكـره لعلامـات السـاعة:(والـذي نفسـي بيده لا تقوم السـاعة حـتى تكلم السـباع الإنسـان، وحـتى

---

1) رواه أحمد والطبراني في الكبير وابن السني في عمل اليوم والليلة.

2) رواه ابن السني.

3) الوكنة: اسم لكل وكر وعش، والوكن: موضع الطائر الذي يبيض فيه ويفرخ، وهو الخرق في الحيطان والشجر.

4) رواه أبو داود والحاكم.

تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخـذه بمـا أحدث أهله من بعده)(1)

وقد نفى الألوسي أن يكون ذلك خاصا بسـليمان ﷺ بقوله:(وقيل كانت الطير تكلمـه ﷺ معجـزة لـه نحـو مـا وقــع من الهدهــد، وقيــل علم ﷺ ماتقصــده الطــير في أصـواتها في سـائر أحوالهـا فيفهم تسـبيحها ووعظهـا ومـا تخاطبه به ﷺ وما يخاطب به بعضها بعضا، وبالجملـة علم من منطقهــا مــا علم الانســان من منطــق بــني صــنفه، ولايستبعد أن يكون للطير نفوس ناطقة ولغات مخصوصة تؤدي بها مقاصـدها كمـا في نـوع الانسـان إلا أن النفـوس الانسانية أقوى وأكمل، ولايبعـد أن تكـون متفاوتـة تفـاوت النفوس الانسانية الذي قال بـه من قـال، ويجـوز أن يعلم اللـه تعـالى منطقهـا من شـاء من عبـاده ولا يختص ذلـك بالأنبيــاء عليهم الســلام ويجــري مــا ذكرنــاه في ســائر الحيوانات)(2)

وقـال الشـيخ عبـد الوهـاب الشـعراني يتحـدث عن نفسه:(وقد وقع لي في ابتداء أمري أني كنت أسمع كلام من في أقطار الأرض من الهنـد والصـين وغيرهمـا، حـتى أني كنت أسمع كلام السمك في البحـار المحيطـة، ثم إن الله تعالى حجب عني وأبقى معي العلم كي لا أنكـر مثـل ذلك على أحد)(3)

---

1) رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان.

2) تفسير الألوسي.

ولذلك نرى أنه يمكن للبشر أن يفهموا لغة الحيوانات سواء عن طريق الكرامة أو الاستدراج أو حـتى بالدراسـة والبحث، مع قصور البحث عن الوصول إلى كل ما يعبر به الحيوان عن نفسه، فالعلم في صورته الحديثة قاصر على معرفة الحاجات المادية للأشياء.

وفي هذا المجال أثبتت الدراسات العلمية(1) أن لكـل نوع من أنواع الحيوانـات رائحـة خاصـة بـه، وداخـل النـوع الواحد هناك روائح إضافية تعمل بمثابة بطاقة شخصـية أو جـواز سـفر للتعريـف بشخصـية كـل حيـوان أو العـائلات المختلفة، أو أفراد المستعمرات المختلفة.

و الرائحة تعتـبر لغـة خفيـة أو رسـالة صـامتة تتكـون مفرداتهـا من مـواد كيماويـة أطلـق عليهـا العلمـاء اسـم (فرمونات)، وهي بمثابة الحروف.

وكمثال على لغات الحيـوان، نعـود إلى عـالم النمـل، فالعلم الحديث ينص على أن النمـل يتمـيز برائحـة خاصـة تدل على العش الذي ينتمي إليـه، والوظيفـة الـتي تؤديهـا كـل نملـة في هـذا العش، وحينمـا تلتقي نملتـان فإنهمـا تسـتخدمان قـرون الاستشـعار، وهي الأعضـاء الخاصـة بالشم، لتعرف الواحدة الأخرى.

وقد وجد أنه إذا دخلت نملة غريبة مستعمرة لا تنتمي إليها، فإن النمل في هذه المستعمرة يتعرفهـا من طريـق

---

3) العهود المحمدية.

1) انظر: رحيق العلم والإيمان، للدكتور أحمد فؤاد باشا.

رائحتهـا ويعـدها عـدواً، ثم يبـدأ في الهجـوم عليهـا، ومن الطريف أنه في إحـدى التجـارب المعمليـة وجـد أن إزالـة الرائحـة الخاصـة ببعض النمـل التـابع لعشـيرة معينـة ثم إضافة رائحـة رائحـة خاصـة بنـوع آخـر عـدو لـه، أدى إلى مهاجمته بأفراد من عشيرته نفسها.

وفي تجربة أخرى تم غمس نملة برائحة نملة ميتة ثم أعيدت إلى عشها، فلوحظ أن أقرانها يخرجونها من العش لكونها ميتة، وفي كل مرة تحاول فيها العودة يتم إخراجهـا ثانية على الرغم من أنها حية تتحرك وتقاوم، وحينمـا تمت إزالة رائحة الموت فقط تم السـماح لهـذه النملـة بالبقـاء في العش.

وحينما تعثر النملة الكشافة على مصدر للطعام فإنهـا تقـوم على الفـور بـإفراز (الفرمـون) اللازم من الغـدد الموجودة في بطنها لتعليم المكـان، ثم ترجـع إلى العش، وفي طريق عودتها لا تنسـى تعليم الطريـق حـتى يتعقبهـا زملاؤها، وفي الـوقت نفسـه يصـيفون مزيـداً من الإفـراز لتسهيل الطريق أكثر فأكثر.

ومن العجيب أن النمل يقلـل الإفـراز عنـدما يتضـاءل مصدر الطعام ويرسل عـددا أقـل من الأفـراد إلى مصـدر الطعام، وحينما ينضب هذا المصدر تماماً فـإن آخـر نملـة، وهي عائدة إلى العش لا تترك أثراً على الإطلاق.

بالإضافة إلى هذا، فقد أثبت العلم الحديث[1] أن لكل نـوع من أنـواع الحيوانـات لغـة خاصـة بـه، يتفـاهم بهـا،

1) انظر: (الله والعلم الحديث)، عبد الرزاق نوفل.

ويتعـارف مـع غـيره على أحـوال مـا حولـه.. فهـذه هي الدجاجة التي تصدر أصواتاً ممـيزة، فـنرى صـغارها أقبلت في سرعة تلتقط معها الحب.. وتصدر أصواتاً مخافة، فإذا بالصغار تهرول إلى العش في لحظة.

يقول (ألن ديفو) ـ وهو أحد علماء الحيوان ـ أنه وقف يوماً يراقب ثلاثة من صـغار الثعلب تلعب حـول أمهـا، وإذا بصغير منها يدخل في الغابة، ويبتعد عنها بعـدا بحيث غـاب عن النظر، فاستوت الأم قائمـة ومـدت أنفهـا إلى الناحيـة التي ذهب منها، وبقيت على حالها هـذه برهـة عـاد بعـدها الصغير في اتجاه أمه لا يلتفت يمنة أو يسرة، كأنما كـانت تجذبه بخيط لا تراه العين.

ومثـل ذلـك وجـدوا أن النحلـة إذا عـثرت على حقـل مزهر عادت إلى الخليـة، ومـا إن تتوسـطها حـتى تـرقص رقصاً خاصاً، فإذا بالنحـل ينـدفع إليهـا، ويسـير خلفهـا إلى حيث تهديه النحلة إلى الزهور.

ويتكلم نمـل الشـجر في المنـاطق الاسـتوائية بلغـة عجيبة، إذ يصعد إلى الشجرة ويـدق دقـات غـير منتظمـة، تقـارب إشـارات مـورس التلغرافيـة، ويبلـغ من قوتهـا أن تسمع من بعيد.

وقـد لوحـظ أن أسـراب الفيلـة، لا تكـف لحظـة عن غمغمة، طالما هي تسير في رهط، فإذا تفرقت الجماعـة، وسـار كـل فيـل على حـدة انقطـع الصـوت تمامـاً.. ومن أعجب ما يؤيد لغة الفيلـة، تلـك الأصـوات المزعجـة الـتي تلاحـظ عنـدما تجتمـع الفيلـة على المحكـوم عليـه ليعيش

وحيدا ويسير منفرداً..

وأصوات الغراب مميزة تميزاً واضحاً.. فنعيبه أكبر على الخطر، وهو يصدره ليحذر به أبناء جنسه، بينما يصدر في مرحه ولعبه أصواتاً أخرى تقرب من القهقهة.

ويفهم الحيوان لغة الإنسان ويستجيب لها، كما يدعو الإنسان الدجاج إلى الغذاء بصوت معروف، ويدعو الإوز والبط بصوت مغاير، ويدعو الدواب إلى الشراب بالصفير كما يستطيع الأولاد في الريف عند صيد السمك من جذبه قريباً منهم بأصوات خاصة، وكلنا نعلم أن الكلب في المنزل يعرف بل ينفذ أوامر سيده، وفي أمريكا رجل اسمه (جاكماينز) تخصص في دراسة الإوز البري، وبلغ من علمه بلغتها، أنه يستطيع أن يدعو سربا طائراً إلى النزول، حيث يختفي وذل بأن يخاطب الإوز بلغتها ويخبرها بوجود بركة صالحة وطعام كثير.

وما ذكره العلم الحديث من هذا هو بداية فقط.. ويمكن للعلم في المستقبل أن يتعرف على الكثير من المعارف في هذا الجانب، بل يمكنه لو تخلى من منطق الصراع الذي يتعامل به مع الكون أن يعقد صداقة حميمة مع الكائنات جميعا، فيستفيد منها من غير أن يؤذيها ومن غير أن تؤذيه.

وهذه العلاقة النافعة لا تقتصر على منافع الدنيا مما قد يكون كرامة لبعض الصالحين، أو لحاجة من الحاجات، بل هي عامة شاملة، يمكن حصولها إن توفرت أسبابها:

فجميع الأشياء تشهد للمؤذن، قال ﷺ:(لا يسمع

صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مـــدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة)(1)، وقال ﷺ:(يغفر للمؤذن منتهى أذانه ويستغفر له كل رطب ويابس سمعه)(2)

وسر هذا هـو مـا ذكرنـا سـابقا من أن جميـع الأشـياء تفـرح لـذكر اللـه، وهـذا الفـرح يبعثهـا على مجـازاة من يسـمعها هـذا الـذكر بالاسـتغفار والشـهادة لـه، وصـوت المـؤذن الـذي يجتهـد في رفـع صـوته ليبلغهـا هـذا، يكـون جزاؤه بحسب منتهى آذانه.

4 ـ التحضر:

نقصد بالتحضر في هـذا المبحث مرحلـة من مراحـل الحياة، أو صفة من صـفات الأحيـاء.. وهي ترتبـط بتعامـل الحي مع العالم الخارجي.. ومحاولتـه الانسـجام معـه إمـا بصـنوف التنظيم، وإمـا بـالأخلاق والآداب، وإمـا بـالقوانين والنظم، وإمـا بـالبحث في سـبل تيسـير الحيـاة، وتوفـير المرافق التي تتطلبها.

ويشـير إلى هــذا النــوع من الحيــاة، أو من أوصــاف الحياة قوله تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَـابِ مِنْ شَـيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام:38)

فالآية تقرر حقيقة جليلة تهذب علاقتنا بغيرنا في هــذا الكون، وهي أنـه (مـا من دابـة تـدب على الأرض - وهـذا

1) رواه البخاري.

2) رواه أحمد والطبراني في الكبير والبزار.

يشمل كل الأحياء من حشرات وهوام وزواحف وفقاريـات - وما من طائر يطير بجناحية في الهواء - وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة غير ذلك من الكائنـات الطـائرة.. ما من خلق حي في هـذه الأرض كلهـا إلا وهـو ينتظم في أمة، ذات خصائص واحدة، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك.. شأنها في هذا شأن أمة الناس)(1)

و لا تكون هـذه المخلوقـات أممـا إلا إذا كـان لهـا من الوعي والإدراك ما تقيم به الروابط الاجتماعية فيما بينهــا، وهذا بدوره يسـتدعي تـوفر وسـائل خاصـة للتفـاهم فيمـا بينها، وهو مـا كشـف عنـه العلم الحـديث في حيـاة أنـواع كثيرة من الطيور والحشرات والحيوان.

وسنحاول انطلاقا من النصوص المقدسـة، ومن خلال مــا اكتشــفه العلم أن نبحث في دلائــل أمميــة الكائنــات الحية، وما وهبته من قدرات على التحضر.

التنظيم:

ويشير إليه من القرآن الكريم قولـه تعـالى: حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (النمل:18)

ففي هذه الآية إشارة إلى أن عالم النمل عالم منظم محكوم بقوانين لا يخالفها، فهذه النملة لم تكتـف بـالهرب بنفسها، بل دعت سائر النمل، ولولا علمها بأنهن سيطعنها ما فعلت.

---

1) في ظلال القرآن: 2/1080.

ولا بأس أن نقتبس هنا ـ مهتدين بنور الآيـة ـ بعض مـا اكتشفه العلم الحديث(2) من مجتمعات النمل الدالـة على وعي هذه الحشرة الصغيرة بما تفعله.

ذكــر أحــد علمــاء التــاريخ الطــبيعي، وهــو (رويــال ديكنسون) في كتابه (شخصية الحشرات) أنه ظل يدرس مدينة النمل حـوالي عشـرين عامـاً في بقـاع مختلفـة من العـالم فوجـد نظامـاً لا يمكن أن نـراه في مـدن البشـر، وراقبه وهو يرعى أبقاره، وهي عبارة عن خنافس صـغيرة رباها النمل في جوف الأرض زماناً طويلاً حتى فقـدت في الظلام بصرها.

وذكر أن أمة النمل ـ شأنها شـأن أمـة الإنسـان ــ قـد سخرت مئات الأجناس من حيوانات أدنى منهـا جنسـاً في مصالحها، ومنها (بق النبات)، وهو حشــرة صـغيرة تعيش على النبات ويصـعب استئصـالها، لأن أجناسـها كثـيرة من النمل ترعاهـا، ولأن داخـل المسـتعمرة لا يمكن أن تعيش النباتات، فإن النمـل يرسـل الرسـل لتجمـع لـه بيض هـذا البق حيث تعنى بـه وترعـاه حـتى يفقس وتخـرج صـغاره، ومتى كـبرت تـدر سـائلاً حلـوا كالعسـل يقـوم على حلبـه جماعـة من النمـل لا عمـل لهـا إلا حلب هـذه الحشـرات بمسها بقرونها، وتنتج هذه الحشرة 48 قطرة من العسـل كل يوم، وهذا ما يزيد مائـة ضـعف عمـا تنتجـه البقـرة إذا قارنا حجم الحشرة بحجم البقرة.

ووجد أن النمل زرع مساحة بلغت خمسة عشر مـتراً

2) اقتبسنا هذه الاكتشافات من كتاب: رحيق العلم والإيمان الـدكتور أحمـد فـؤاد باشا.

مربعاً من الأرض حيث قامت جماعة من النمل بحرثها على أحسن ما يقضى به علم الزراعة، فبعضها زرع الأرز، وجماعة أزالت الأعشاب، وغيرها قامت لحراسة الزراعة من الديدان.

و لما بلغت عيدان الأرز نموها، وكان يرى صفاً من شغالة النمل لا ينقطع، يتجه إلى العيدان فيتسلقها إلى خب الأرز، فتنزع كل شغالة من النمل حبة، وتنزل بها سريعة إلى مخازن تحت الأرض الصورة.

و قد طلى العالم أفراد النمل بالألوان، فوجد أن الفريق الواحد من النمل يذهب دائما إلى العود الواحد حتى يفرغ ما عليه من الأرز. ولما فرغ الحصاد هطل المطر أياماً وما إن انقطع حتى أسرع العالم إلى مزرعة النمل ليتعرف أحواله فوجد البيوت تحت الأرض مزدحمة بالعمل، ووجد النملة تخرج من عشها تحمل حبة الأرز وتذهب إلى العراء في جانب مائل من الأرض معرض للشمس، وتضع حبتها لتجف من ماء المطر، وما إن انتصف النهار حتى كان الأرز قد جف وعاد الشغالة به إلى مخازنه تحت الأرض.

العمران:

ونقصد به ما زودت به الأحياء من قدرات على توفير ما تحتاجه في حياتها من مرافق، ويشير إلى هذا النوع من التحضر ما ذكره الله تعالى من وحيه للنحل بكيفية بناء بيوتها، فقال تعالى: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ

الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْـرُجُ مِنْ بُطُونِهَـا شَـرَابٌ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُـهُ فِيـهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (النحل:68 ـ 69)

فالآيتــان تشــيران إلى أن للنحــل نظامــا في منتهى الدقــة والإحكــام، وهــو مــا ســنراه من مكتشــفات العلم الحديث، وتشير كذلك ـ وهو المهم ـ إلى أن لهذا المخلوق من الوعي ما يستطيع أن يتلقى به وحي الله الــذي يوجــه أفعاله(1).

وقــد كشــف العلم الحــديث عن بعض أســرار الــوحي الذي تتلقاه أمة النحل، ولا بـأس من اسـتعراض النـاحيتين اللتين أشارت إليهما الآيـتين، واعتبرتهمـا ثمـرة وحي اللــه تعالى، وهما: بيوت النحـل، والطـرق ــ أو سـبل اللـه كمـا يسميها القرآن الكريم ـ التي يسلكها النحل مهتديا بالوحي الإلهي(2):

فأول ما يشير إلى اعتماد النحــل على الــوحي الإلهي هو بناء أقراص الشمع على هيئة خلايـا سداسـية تسـتعمل كمستودعات لاختزان العسل، وقد أشـار كثـير من علمـاء المسلمين إلى الحكمة من اختيار ذلك الشكل، يقــول ابن العربي:(ومن عجيب ما خلـق اللـه في النحـل أن ألهمهـا

---

1) وتعبير (الوحي) هو التعبـير الـدال على حقيقـة مـا يبديـه الكـون من عجـائب لا يستطيع عقله الصغير أن يقوم بها بمعزل عن إلهام وتوجيه الله تعالى، ولذلك يعبر القرآن الكريم عن ما يحصل في الأرض عند القيامة بقوله تعالى: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (الزلزلة:4 ـ5)

2) المعلومات الحديثة مقتبسة من كتاب (رحيـق العلم والإيمـان) للـدكتور أحمـد فؤاد باشا.

لاتخــاذ بيوتهــا مسدســة، فبــذلك اتصــلت حــتى صــارت كالقطعــة الواحــدة، وذلــك أن الأشــكال من المثلث إلى المعشــر إذا جمـع كـل واحـد منهـا إلى أمثالـه لم يتصـل وجاءت بينهما فرج، إلا الشـكل المسـدس؛ فإنـه إذا جمـع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة)(1)

ويؤيد العلم الحديث هذا، فقد نص على أنــه يكفي أن نتعـرف على عظمـة هـذا الإعجـاز الهندســي من علمـاء الرياضيات الـذين يقولـون بـأن النحـل يصـنع خلايـاه بهـذا الشكل لأنه يسمح لها باحتواء أكبر عدد ممكن من أعضـاء المملكة، وبأقل قدرة ممكن من الشمع الغالي اللازم لبناء جدرانها، وهي عملية عبقرية تبلغ درجة من الكمـال تفـوق كل عبقريات البشر مجتمعين.

و ينص علماء الحشرات على أن شغالات النحل تبذل جهـداً خارقـاً للحفـاظ على العسـل، فهي تنظـف الخليـة بمهارة فائقة وتسدّ كل الشقوق وتلمع كل الحوائط بغـراء النحل، وهي لا تقنع بتهويـة الخليـة بـل تحافـظ على ثبـات درجة الحرارة فيها عند مستوى ثابت وتقوم بعملية تكييف للهواء داخل الخلية.

ففي أيام الصيف القائظ يمكن للمرء أن يرى طوابير الشغالات وقد وقفن بباب الخلية واتجهن جميعاً إلى ناحية واحدة ثم قمن بتحريـك أجنحتهن بقـوة. وهـذه الشـغالات يطلق عليها اسم (المروحة) لأن عملهـا يـؤدي إلى إدخـال تيارات قوية من الهواء البارد إلى الخلية.

---

1) القرطبي: 10/134.

ومن ناحية أخـرى توجـد في داخـل الخليـة مجموعـة أخرى من الشغالات منهمكة في طرد الهواء الساخن إلى خارج الخلية. أمـا في الأجـواء البـاردة فـإن النحـل يتجمـع فوق الأقراص لكي تقلـل مـا يتعـرض من سـطحها للجـو، وتزيد حركة التمثيل الغـذائي ببـدنها، وتكـون النتيجـة رفـع درجة الحرارة داخل الخلية بالقدرة اللازمة لحماية العسل من الفساد.

أما الناحية الثانية التي أشار إليها القرآن الكـريم فهي الطرق التي يسلكها النحل ليجمع رحيق الأزهار، وقـد نص علماؤنـا القـدامى على بعض وجـوه الـوحي الـذي يتلقـاه النحل لتحقيق ذلك، قال ابن كثير:(ثم أذن لها تعـالى إذنـا قـدريا تسـخيريا أن تأكـل من كـل الثمـرات وأن تسـلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها أي مسـهلة عليهـا حيث شـاءت من هـذا الجـو العظيم والـبراري الشاسـعة والأودية والجبال الشـاهقة ثم تعـود كـل واحـدة منهـا إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسـرة بـل إلى بيتهـا ومالهـا فيـه من فراخ وعسل)(1)

والعلم الحديث يؤيد هذا بالشواهد الكثيرة التي تحيـل أن يفعل النحل ذلك بعقلـه الفطـري البسـيط، بـل يحتـاج إلى الوحي الإلهي الذي نص عليه القرآن الكريم.

فالدراسات العلمية المستفيضة لمملكـة النحـل تنص على أن إلهام الله تعالى لها يجعلها تطير لارتشـاف رحيـق الأزهار، فتبتعد عن خليتها آلاف الأمتار، ثم ترجع إليها ثانيـة

1) ابن كثير: 2/576.

دون أن تخطئها وتدخل خلية أخرى غيرها، علما بأن الخلايا في المناحل تكون متشابهة ومرصوصة بعضها إلى جوار بعض، وذلك لأن الله تعالى قد ذلل الطريق وسهلها لها ومنحها من قدرات التكيف الوظيفي والسلوكي ما يعينها في رحلات استكشاف الغذاء وجنية ثم العودة بعد ذلك إلى البيت.

و قد نص العلم الحديث على أن العشيرة الواحدة من النحل تستطيع أن تجمع نحو 150 كيلوجراما من العسل في الموسم الواحد. والكيلوجرام الواحد من العسل يكلف النحلة ما بين 120000 و150 ألف حملٍ من الرحيق تجمعها بعد أن تطير مسافة تعادل محيط الأرض عدة مرات في المتوسط. وتستطيع النحلة أن تطير بسرعة 65كيلومترا في الساعة، وهو ما يعادل سرعة القطار. وحتى لو كان الحمل الذي تنوء به يعادل ثلاثة أرباع وزنها فإنها يمكن أن تطير بسرعة 30 كيلومترا في الساعة.

و في رحلة الاستكشاف لجمع الغذاء الطيب تستعين العاملة بحواسها التي منحها الله إياها. فهي مزودة بحاسة شم قوية عن طريق قرني الاستشعار في مقدم الأخص اللونين الأزرق والأصفر، وهي تمتاز على العين البشرية في إحساسها بالأشعة فوق البنفسجية، لذلك فهي ترى ما لا تراه عيوننا، مثل بعض المسالك والنقوش التي ترشد وتقود إلى مختزن الرحيق ولا يمكننا الكشف عنها إلا بتصويرها بالأشعة فوق البنفسجية. ثم إذا حطت على زهرة يانعة وبلغت ورحيقها استطاعت أن تتذوقه وتحدد

بكم فطرتها مقدار حلاوته.

و في رحلــة العــودة تهتــدي النحلــة إلى مســكنها بحاستي النظر والشم معا. أما حاسة الشم فتتعـرف على الرائحــة الخاصــة الممـيزة للخليـة. وأمـا حاسـة الإبصـار فتساعد على تذكر معالم رحلة الاستكشاف، إذ يلاحظ أن النحـل عنـدما تغـادر الـبيت تسـتدير إليـه وتقـف أو تحلـق أمامـه فـترة وكأنهـا تتفحصـه وتتمعنـه حـتى ينطبـع في ذاكرتها، ثم هي بعد ذلك تطـير من حولـه في دوائـر تأخـذ في الاتسـاع شـيئاً فشـيئاً، وعنـدما تعـود إلى الـبيت تخـبر عشيرتها بتفاصيل رحلتها، وتدل زميلاتها على مكان الغذاء فينطلقن تباعــاً لجـني الرحيـق من الزهـور والإكثـار منـه لادخاره ما يفيض عن الحاجة لوقت الشتاء ببرده القـارص وغذائه الشحيح.

وأغرب ما اكتشفه العلم الحديث في عالم الحشرات هو أن للنحل لغة خاصـة يتفـاهم بهـا عن طريـق الـرقص، وقد شرحها بالتفصيل عالم ألماني ضمنها كتابـه المسـمى (حياة النحل الراقص)، فقـد تـبين لهـذا العـالم أن للنحلـة الشغالة في جسمها من الأجهزة ما يجعلها تستطيع قياس المسافات والأبعاد والزوايـا بين قـرص الشـمس والخليـة، ثم إنهـا تسـتخدم لغــة سـرية في التخـاطب عن طريــق رقصات خاصة معبرة تنبئ بها أخواتهـا عن وجـود الرحيـق الحلـو وتحـدد لهن موضـعه تحديـدا دقيقـاً من حيث زاويـة الاتجاه إليه وبعده عن بيتها.

وليس الأمر في هـذا قاصـرا على عـالم النحـل.. بـل ذكر العلماء في هذا الباب الكثير من الحقائق الـتي تعمـق

فهمنـا للآيـتين الكريمـتين(1)، فقـد ذكـروا أن للحيوانـات أساليب مختلفة في طريقة إنشـاء بيوتهـا بتفاصـيل تقنيـة بـاهرة، بـل في أحيـان كثـيرة تتصـرف الحيوانـات مثـل مهندس معماري بارع، وتعمل على شـاكلة بنّـاء مـاهر في عمله، وتجد حلاً لكل مشكلة قد تواجهها أثناء البنـاء تمامـا مثـل المهنـدس، ومثـل أخصـائي في الـديكور حيث تقـوم بتوفير مـا يلـزم لـداخل العش، وفي أحيـان كثـيرة أخـرى تعمل هذه الحيوانات ليـل نهـار للإعـداد لهـذه الأعشـاش، وإذا كـان لهـذه الحيوانـات أزواج فتقـوم بتوزيـع الادوار و التعاون في صورة مثيرة للإعجاب.

ومن أكثر الأعشاش والمنازل الـتي يعتـنى بهـا عنايـة خاصة من قبل البالغين هي الـتي تنشـأ لاسـتقبال الصـغار الجدد.

والتقنية التي تستخدمها هذه الكائنات ـ التي تبدو لنـا غير عاقلة ـ تثير الإعجـاب والدهشـة في آن واحـد، فهـذه الحيوانات تخطط وتخطـو مراحـل متعـددة قبـل الشـروع في بناء أعشاشها أو منازلها لوضع بيضها أو ولادة صغارها، كذلك تختار المكان الأمثـل والأكـثر أمنـا لإنشـائها، فهي لا تنشئ منازلها عبثا و أينما اتفق.

وطريقة بناء العش أو المسكن يتم اختيارها من قبـل الحيوان أو الطير وفقا للمـواد الأوليـة المتـوفرة وظـروف البيئة الخارجية، فمثلا تستخدم الطيـور البحريـة الأعشـاب البحرية التي تطفوا على سطح الماء وتقـاوم الأمـواج في

1) انظر: كتاب التضحية عند الكائنات الحية، هارون يحي.

بنــاء أعشاشــها، أمّــا الطيــور الــتي تعيش في منــاطق الأعشاب الطويلة فتنشئ أعشاشا عميقة وواسعة لتفادي السـقوط عنـد هبـوب الريـاح، والطيـور الصّـحراوية تبـني أعشاشها على قمم النباتات الـتي تمتـاز بانخفـاض درجـة حرارتها أقل بعشر درجـات عن درجـة المحيـط، وإلاّ فـإنّ درجـة حـرارة اليابسـة تربـو على 45 درجـة، وهي تـؤدي حتما إلى موت الأجنة الموجودة داخل البيض.

ويتطلب اختيـار المكـان المناسـب لبنـاء العش ذكـاء ومعرفـة واسـعة، إلاّ أن هـذه المخلوقـات لا تسـتطيع أن تتوقع مدى الضرر الـذي سـيلحق بمنازلهـا بتـأثير الأمـواج العاتية أو درجة الحرارة العالية للبيئة الصحراوية.

ولا تكتفي هذه الحيوانـات ببنـاء المنـازل، وإنمّـا تبـني أعشاشـا وهميـة لمجـرد التمويـه بهـدف لفت الانتبـاه إلى هـذه الأعشـاش الوهميـة حفاظـا على حيـاة الصـغار من خطر الأعداء.

ومن الأساليب التي تستخدمها الحيوانات للتمويه بنـاء الأعشـاش بين أغصـان الأشـجار الكثيفـة الأوراق أو فـوق النباتات الشوكية، وبعض أنواع الحيوانات تنشئ لها أوكـارا خاصة تبيض فيها وترقد على بيضـها وتقـوم بإنشـاء جـدار خاص لمـدخل هـذا الـوكر باسـتخدام الطين الموجـود في البيئة الخارجية، وإذا لم يوجـد تقـوم بـإفراز سـائل خـاص تخلطه مع كميـة من الـتراب لإعـداد الطين اللازم لإنشـاء هذا الجدار الواقي.

وأغلب أنواع الطيـور تبـني أعشاشـها غريبـة الشـكل

باستخدام ألياف النباتات أو الأعشـاب والحشـائش البريـة المتــوفرة في البيئــة، والجــدير بالــذكر أن الطــير الّــذي سيبيض لأول مرة في حياته يبـني عشـه بإتقـان بـالغ دون أن يكون له سابق معرفة أو خبرة ببناء الأعشاش.

والحيـــوان على علم تـــام بكيفيـــة بنـــاء العش أو المسكن، وبالكيفية الخاصة بنوعه والمتميز بها عن الأنواع الأخرى اعتبارا من أول لحظـة لـه في هـذه الحيـاة، وكـل نوع من أنواع الحيوانات يبـني منزلـه بالكيفيـة نفسـها في أية منطقة من مناطق العالم.

واللافت للنظـر عنـد دراسـة كيفيـة بنـاء الحيوانـات لمنازلهــا ليس فقــط التخطيــط البــارع وإنمــا التضــحية والتعاون اللّذين يبديهما كل من الذكر والأنثى في البناء.

ولو تمعّنا في عملية إنشاء الطيور لأعشاشـها لأدركنـا مدى الصعوبات التي تلاقيهـا والجهـد الضـخم الـذي تبذلـه والتفاني الذي تبديه في سبيل إتمام بناء هـذه الأعشـاش، فالطير الواحد يقوم بعـدة مئـات من رحلات الطـيران في سبيل إنشاء عش للتمويه فقـط، فمـا بالـك بالجهـد اللازم لبنــاء العش الحقيقي، والطــير لا يســتطيع أن يحمــل في منقاره سوى قطعة أو قطعـتين من المـواد اللازمـة لبنـاء العش من أغصـان أو غيرهـا، ولكن هـذا الأمـر لا يثـير في الطير الشعور بالملل، و إنما بالعكس من ذلـك يثـابر على العمل بكل صبر، وإذا شعر بتعب أو إرهاق لا يترك العمــل ولا يترك ما في منقاره ولا يهمل أي تفصيل من التفاصـيل اللازمة لبناء العش.

ولا بأس أن نعـود من جديـد لعـالم النمـل ــ باعتبـاره نموذجا لهذه الأحياء ـ لنرى مدى تحضره في هذا الجـانب، كما رأينا تحضره في الجانب التنظيمي.

فقـد ذكـر العلمـاء في هـذا البـاب أن للنمـل ــ مثـل الإنسـان ــ مشـاريعه العمرانيـة الضـخمة، وقـد ذكـر أحـد علماء الحشرات أنه رأى مدينة هائلة للنمل في بنسـلفانيا بلغت مسـاحتها خمسـين فـداناً، وكـانت مكونـة من ألـف وستمائة عش ارتفاع معظمها قرابة ثلاثة أقدام، ومحيطها اثنا عشر قدما عنـد القاعـدة، وهـذا يعـني أن حجم الهـرم الأكبر.

والنظام المعماري في أعشـاش النمـل متنـوع طبقـاً لتنوع أجسام وعاداته، ويحصى العلماء منها أربعة طـرز أو خمسـة طـرز رئيسـية، والسـائد هـو الطـرز الأفقيـة ذو التعاريج الكثيرة والدهاليز التي لا تنتهي والغالبيـة العظمى في أعشـاش النمـل توجـد تحت الأرض، ويحتـوي العش عادة على عدة طوابق، وربمـا يصـل إلى عشـرين طابقـاً في جزئه الأعلى الصورة، وعلى عدد مماثل من الطوابـق تحت سـطح الأرض، ولكن طـابق غرضـه الخـاص الـذي تحدده أساسـا درجـة الحـرارة ن فـالجزء الأكـثر دفئـاً في العش يحتفظ به خصيصاً لتربية الصغار.

ونصت الاكتشافات على أنه من مظاهر مجتمع النمل قيامه بمشروعات جماعية مثل إقامة الطرق الطويلة في مثابرة وأناة، فتحـرص مجموعاتـه المختلفـة على الالتقـاء في صعيد واحد من آن لآخر، ولا تكتفي هـذه المجموعـات بالعمل نهاراً، بل تواصله ليلاً في الليالي القمرية، مع لزوم

مستعمراتها في الليالي المظلمة.

و لأعضاء مجتمـع النمـل طـرق مختلفـة متمـيزة في جمع المواد الغذائية وتخزينهـا والمحافظـة عليهـا، فـإذا لم تستطيع النملـة حمـل مـا جمعتـه في فمهـا كعادتهـا لكـبر حجمه، حركته بأرجلها الخلفية ورفعه بذراعيها.

ومن عاداتهـا الناشـئة من معارفهـا أن تقضـم البـذور قبل تخزينها حتى لا تعود إلى الإنبات مرة أخرى، وتجـزيء البذور الكبيرة كي يسهل عليهـا إدخالهـا في مسـتودعاتها، وإذا ما ابتلت بفعل المطر أخرجتها إلى الهـواء والشـمس لتحف.

والنمل أنواع كثيرة(1) كل منها قد يكون جنسا خاصـا، مثل أجناس أمة البشر، ومنها نوع من النمل يسمى (أتـا) إذا حفرت في مستعمرته على عمق أكثر من متر وجـدت في حجرة خاصة كتلا متبلورة بنية اللون من مـادة شـبيهة بالإسفنج هي في حقيقتها عبـارة عن أوراق متحللـة لنـوع معين من النبـات يسـمى (الكـيريزويت) إذا دققت فيهـا النظـر وجـدت خيوطـاً بيضـاء رائعـة من فطـر (عش الغراب) الذي يعتبر الطعام الوحيد لهـذا النـوع من النمـل الذي يعيش غالبيته في المناطق المدارية.

و لضمان العنايـة الفائقـة لهـذا الغـذاء الحيـوي توجـد بصفة مستمرة في حجرة الزراعة مجموعة من الشغالات

---

1) وقد أحصى العلم منها خمسة عشرة ألف نوع من أنواع النمل متعددة الألـوان والأشكال تعيش في كل بقاع الأرض، منها النمـل الأبيض الـذي تضـرب جنـوده برؤوسـها الكبيرة جدران الأنفـاق إذا شـعرت بهجـوم على عشـها أو أي خطـر يتهـددها فيفهم ذلـك باقي أفراد النوع وتقوم بعمل اللازم نحو حماية نفسها من الخطر المحدق بها.

تستقبل أوراق شجرة (الكريـزونت) وتنظفهـا باعتنـاء، ثم تمضغها فتحيلها إلى عجينـة مبللـة باللعـاب وتكورهـا على شـكل كريـات صـغيرة لتضـيفها إلى الحافـة الخارجيـة للمزرعة بحيث تزداد مساحتها مع تقد الزمن.

ويذكر العالم (جوزيف وودكراتش) أن شـغال آخـرين يقومـون في نفس الـوقت بالاحتفـاظ بفطريـات عش الغراب الناضجة. هذا بالإضافة إلى المجهود الخارق الـذي تبذلـه فرقـة ثالثـة من الشـغالة في تسـلق شـجرة (الكريـزويت) ذات الخمسـة أمتـار طـولاً لتـنزع أوراقهـا وتحملهـا إلى الأرض، ثم إلى العش حيث تسـلمها إلى أفراد الفرقة الأولى.

فهـذا التـدبير العجيب لأمـة النمـل يخفـف من زهـو الإنسان بنفسه، وبمشاريعه الـتي يتصـور أن عقلـه الجبـار هو وحده الذي يستطيع أن يقوم بها.

الأخلاق:

وهي أصـل أصـول الحضـارة، ولب لبابهـا، والحضـارة الـتي تفتقـد الأخلاق حضـارة أشـباح لا حضـارة أرواح، وحضارة موت لا حضارة حياة.

وقـد ورد في النصـوص مـا يشـير إلى تنعم الكائنـات المختلفة بهذا الأصـل العظيم من أصـول الحضـارة.. وقـد ذكرنا ـ سابقا ـ أن الحجـر كـان يسـلم على النـبي ﷺ في الوقت الذي كان فيه القرشيون يرمونه ﷺ بكل ما امتلأت به نفوسهم من أحقاد.

وسنكتفي هنا بـذكر أصـل من أصـول الأخلاق.. ومنـه تتفرع أكثر الأخلاق.. وهو الرحمة، فهي منبع أكثر الأخلاق.

وقد ورد في النصوص ما يشـير إلى اشـتراك الأحيـاء جميعا بما فيهم الإنسـان في الرحمـة الـتي خص اللـه بهـا هذه الدنيا، فقد قال ﷺ:(إن لله تعـالى مائـة رحمـة أنـزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام، فبها يتعـاطفون، وبهـا يـتراحمون، وبهـا تعطـف الـوحش على ولدها، وأخر تسعا وتسـعين رحمـة يـرحم بهـا عبـاده يـوم القيامة)(1)

وسنسـوق ــ هنـا، وباختصـار ــ بعض مـا سـاقه العلم الحديث من هذه الرحمة، وسنقتبس حديث ذلك من عالم أحب الأحيـاء حبـا شـديدا، ودافـع عن انتسـابها للـه دفـاع المستميت، وهو العالم الـتركي هـارون يحي، الـذي يعتـبر بحق من أكبر من رد على نظرية التظور المادية.

فقد ذكر هذا العالم الفاضل في كتابه (التضـحية عنـد الكائنات الحيـة) الكثـير من أدلـة الرحمـة الـتي تمتلئ بهـا هـذه الكائنـات، قـال: إن جميـع الكائنـات الحيّـة خطـيرة وحسّاسة جـدّا في حالـة تعـرّض صـغارها لأيّ خطـر، وردّ فعل هذه الكائنات الحية عند شعورها بـالخطر هـو الفـرار إلى أماكن آمنة، وإذا تعذّر عليها النّأي بنفسـها عن الخطـر تُصبح هذه الكائنات متوحّشة وحـادّة تجـاه الخطـر حفاظـا على حياة الصّغار بشـكل أساسـيّ، فـالطّيور والخفـافيش (الوطاويط) مثلا لا تتوانـى في مهاجمـة البـاحثين يأخـذون

1) رواه ابن ماجة.

صغارها من الأعشـاش لغـرض البحث والدّراسـة، وكـذلك الحمـــير الوحشـــية أو الزيـــبرا الـــتي تعيش على شـــكل مجاميع.

وعنـدما يتهـدّد الخطـر حيوانـات مثـل ابن آوى تقـوم المجموعة بتوزيع الأدوار فيما بينها لحماية الصّـغار والـذّود عنهم بكل شجاعة وإقدام، وتحمي الزّرافـة صـغيرها تحت بطنهـا وتهـاجم الخطـر بسـاقيها الأمـاميّتين، أمّـا الوعـول والظباء فتتميّز بحساسيّة مفرطة وتهـرب عنـد إحساسـها بالخطر، وإذا كان هناك صغير ينبغي الذّود عنـه، فلا تـتردّد في الهجوم مستخدمة أظلافها الحادّة.

أمّا اللّبـائن الأصـغر حجمـا والأضـعف جسـمًا، فتقـوم بإخفـاء صـغارها في مكـان آمن، وعنـدما تحُاصـر تصـبح متوحشّةً ومتوثبّة في وجـه العـدو الـذي يجابههـا، فـالأرنب مثلا مع فرط حساسيّتة وضعفه يتحمّل المشقّة والصّـعاب من أجل حمايـة صـغاره، فهـو يسـرع إلى عشّـه أو وكـره ويعمد إلى ركل عدوّه بأرجله الخلفيّة، ويكون هذا السّلوك أحيانا كافيا لإبعاد الحيوانات المفترسة.

وتتميّز الغزلان بكونها تعمد إلى الجـري وراء صـغارها عند اقتراب الخطر منها، فالحيوانـات المفترسـة غالبـا مـا تهـاجم من الخلـف لـذلك، فـإن الغـزال الأمّ تكـون بـذلك أقرب ما يكون من صغارها وتبعدهم عن مـواطن الخطـر، وفي حالة اقتراب الخطر تجتهد في صرف نظـر الحيـوان المفترس بهدف حماية صغيرها.

وهناك بعض اللّبائن تستخدم ألوان أجسـامها للتّمويـه

وسـيلة لـدرء الخطـر إلاّ أنّ صـغارها تحتـاج إلى توجيـه وتـدريب على وسـيلة الاختفـاء هـذه، وكمثـال على ذلـك حيـوان اليحمـور حيث تقـوم الأنـثى بالاسـتفادة من لـون صغيرها في خطّة للتنكّر بهـدف الإفلات من الأعـداء، فهي تخفي صـغيرها بين شـجيرات وتجعلـه سـاكنا لا يتحـرك، ويكون جلد الصّغير بنّي اللّـون مغطًّى ببقـع بيضـاء، وهـذه التّركيبة اللّونية مع أشعّة الشّـمس المنعكسـة تكـون خـير وسيلة للانسجام مع لون الشّجيرات التي تحيط به، وهــذه الطريقــة في التخفّي تكــون كافيــةً لخــداع الحيوانــات المفترسة التي تمرّ بالقرب منه، أمّـا الأمّ فتبقى على بعـد مسـافةٍ قصـيرةٍ تـراقب مـا يحـدث دون أن تثـير انتبـاه الأعداء، غير أنّها تقترب أحيانًا من صغيرها لكي ترضعه.

وقبل ذهابها إلى الصيّد تجـبر صـغيرها على الجلـوس بواسطة منخرهـا، ويكـون الصّـغير عـادة متيقظـا وحـذرًا، وعنـدما يسـمع صـوتا غـير عـاديّ سـرعان مـا يعـود إلى الجلوس والاختفاء خوفا من أن يكون مصدر خطرٍ بالنّسبة إليه. ويظلّ الوليد على هذا الشّكل حتّى يصبح قــادرًا على الوقوف على قدميه والتّنقّل مع أمّه.

و ثمّـة حيوانـات تُظهـر ردّ فعـلٍ عـنيف تجـاه العـدوّ المرتقب، بل وتوجيه ضرباتٍ بهدف تخويفـه وإبعـاده مثـل البوم وبعض أنواع الطّيور التي تسـلك سـلوكا استعراضـيّا يتمثّل في مدّ جناحيه فيبدو أكبر من حجمه الطّبيعي.

وهناك طيور تقلّد فحيح الأفاعي لإرهاب الأعـداء مثـل طـائر ذو الـرأس الأسـود الـذي يصـدر أصـواتا صـاخبة ويرفرف بجناحيه داخل عشّه، ويبـدوا الأمـر مخيفـا داخـل

العشّ المظلم وسرعان ما يلوذ العـدوّ بـالفرار أمـام هـذه الضّوضاء والحركة.

والظّاهرة الملحوظـة لـدى الطّيـور الـتي تعيش على شـكل تجمّعـات هي العنايـة الـتي يوليهـا الكبـار للصّـغار وحرصهم على حمايتها وخصوصا من خطر طيور النّـورس إذ ينطلق فرد أو اثنان بالغان ويحومان حـول مكـان تجمّـع الأسراب لترهيب النّوارس وإبعادها عن الصّغار.

ومهمّة الحماية هذه يتمّ تنفيذها بالتّنـاوب بين الطّيـور البالغة وكلّ من ينهي مهمّتـه يـذهب إلى مكـان آخـر بعيـد تتوفّر فيه المياه للصّيد والتّغذية وجمع الطّاقة للعودة مـرّة أخرى.

وتتميّـز الوُعـول بـروح التّضـحية من أجـل صـغارها خصوصا عندما تشـعر بخطـر يـداهم صـغيرها، فهي تقـوم بحركة غاية في الغرابة إذ تلقي بنفسها أمام هـذا الحيـوان المفترس لتلهيه عن افتراس ولدها الصغير.

وهذا الأسلوب يمكن ملاحظته في سلوك العديــد من الحيوانات مثل أنثى النّمر التي تجتهـد في القيـام بمـا في وسعها حتّى تصرف انتباه الأعداء المتربّصين بصغارها.

أمّا الرّاكون فـأوّل مـا يفعلـه عنـد إحساسـه بـالخطر الـدّاهم هـو أن يأخـذ صـغاره إلى قمّـة أقـرب شـجرة، ثمّ يسرع نازلا إلى الحيوانات المفترسـة ويكـون وجهـا لوجـه معهـا، ومن ثمّ يبـدأ بـالفرار إلى ناحيـة بعيـدة عن مكـان الصّغار ويستمر في الابتعاد حتّى يطمئنّ إلى زوال الخطـر وعندئذ يتسلل خلسةً عائداً إلى صغاره.

وهذه المحاولات لا يُكتب لها النّجاح دائماً، لأنّ الصّغار قد ينجون من خطر المفترسين إلاّ أنّ الأبوين قد يتعرّضان للموت والهلاك.

وهناك طيور تقوم بتمثيـل دور الجـريح لصـرف نظـر العدوّ المفترس عن الفراخ الصّغيرة، فعند إحساس الأنثى باقتراب الحيوان المفترس تتسلّل بهـدوء من العشّ ولمـاّ تصل إلى مكان وجود العدوّ تبدأ في التخبّـط وضـرب أحـد جناحيهـا على الأرض وإصـدار أصـوات مليئـة بالاسـتغاثة وطلب النّجدة، بيد أنّ هذه الأنثى تأخـذ حـذرها اللاّزم فهي تمثّــل هــذا الــدّور على بعــد مســافة مــا من الحيــوان المفترس، ويتوهّم أنّ الأنثى المستغيثة تعتبر غنيمة ســهلةً ولكنّه بذهابه في اتجاهها يكون قد ابتعـد عن مكـان وجـود الفراخ الصّغار، ثمّ تنهي الأنثى تمثيلها وتهبّ طائرة مبتعدة عن الحيوان المفترس.

وهذا المشهد التّمثيلي يتمّ أداؤه بمهارة مقنعة للغاية، وكثــيرًا مــا تنطلي هــذه الحيلــة على القطــط والكلاب والأفاعي وحتى على بعض أنواع الطّيور.

أمّا الطّيور التي تبـني أعشاشـها مـع مسـتوى سـطح الأرض، فيُعتــبرُ التمثيــل أداة فعّالــةً وناجعــةً في حمايــةِ فراخها من الأعداء المفترسـين، فالبـطّ مثلايقـوم بتمثيليّـة العاجز عن الطّيران من على الماء عنـد إحساسـه بقـدوم الحيوانـات الخطـرة، ويظـلّ هكـذا يضـرب بجناحيـه على سطح الماء مع إحتفاضه بمسافة أمان بينـه وبين الحيـوان المتربّص به، وعنـدما يطمئنّ بـأنّ الحيـوان المفـترس قـد ابتعد عن عشّ الفراخ يقطع مشـهده التّمـثيليّ ويعـود إلى

عشّه.

وهـذا السـلوك ليس قاصـرا على هـذه الأنـواع من الحيوانـات، بـل إن الحشـرات أيضـا تحمي صـغارها من المهالك.

ويعتبر عالم الأحياء السّويدي (أدولـف مـودر) أوّل من اكتشف رعاية الأبوين للصّغار في عـالم الحشـرات وذلـك سنة 1764 عندما كان يجري أبحاثه على حشرة (المـدرع الأوروبي) فوجد أنّ الأنثى تجلس على بيضـها دون أكـل أو شرب، وتصبح هذه الأنـثى مقاتلـة شرسـة عنـدما يقـترب الخطر من بيضها.

وكان العلماء والباحثون في تلك الفترة أو مـا قبلهـا لا يقبلـون فكـرة رعايـة الحشـرات لصـغارها، وسـببُ ذلـك يورده لنـا البروفسـور دوغلاس.و.تللاني من جامعـة ديلاور والذي يعمـل أسـتاذا في علم الحشـرات ويـؤمن بنظريـة التطور، فيقـول:(تجابـه الحشـرات مخـاطر عديـدة أثنـاء دفاعهـا عن صـغارها، ويتسـاءل العلمـاء في مجـال الحشـرات عن السـرّ في عـدم انقـراض هـذه الخصـلة (خصلة الدفاع والحمايـة) أثنـاء عمليـة التّطـور، لأنّ وضـع البيض بأعـداد كبـيرة أفضـل اسـتراتيجياّ من اتبـاع وسـيلة الدّفاع المحفوفة بالمخاطر والمهالك)

ويعلّق دوغلاسن.و.تللاني أحد دعاة التّطـور على هـذا التّساؤل المحيّر ويـرى أنّـه يجب أن تنقـرض هـذه المـيزة حسب فرضيّات نظرية التّطور، ولكنّ الموجود والملاحـظ في الطّبيعة أنّها لا تزال موجودة وبصور عديدة سـواء في

عالم الحشرات أو غيرها وليس دفاعا عن الصّغار فحسب بل عن الكبار أيضا.

بعد هذا.. قد نرى في سلوك بعض الحيوانات ما نتصوره ظلما لا ينسجم مع ما تتطلبه الأخلاق.. وذلك صحيح.. وقد أخبرت النصوص أن مثل هذه الحيوانات تعاقب على تصرفاتها هذه، فقد جاء في الحديث عن أبي ذر قال: بينما نحن عند رسول اللّه ﷺ إذا انتطحت عنزان، فقال رسول اللّه ﷺ:(أتدرون فيم انطحتا؟) قالوا: لا ندري، قال:(لكن الله يدري وسيقضي بينهما)[1]، وفي حديث آخر، قال ﷺ:(إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة)[2]

ونرى انطلاقا من هذا الحديث أن الحيوانات محاسبة على سلوكها عموما.. وهي مثل الناس في ذلك، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ (التكوير: 5)، بل هو ما ينص عليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام: 38)، وهي تتناسب مع قوله تعالى عن الإنسان: ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُم ﴾ (الأنعام: 108)

وبما أن التكليف يقتضي المجازاة، فإن هذه الحيوانات ستجازى على أعمالها..

وقد ذكر العلماء هذا، ولكنهم أطبقوا ـ للأسف ـ على اعتبار جزاء هذه الحيوانات هو صيرورتها ترابا.

---

1) رواه أحمد.

2) رواه أحمد.

وقد استدلوا لذلك بأدلة لا تنهض لتقرير مثل هذا الأمر الخطير.

ومما استدلوا به من ذلك ما ذكره المفسرون من الصحابة والتابعين لقوله تعالى: إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً (النبأ: 40) فالآثار الواردة في ذلك عن أبي هُرَيرة، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما قد يكون مصدرها الإسرائيليات التي كانت مشتهرة.. وكانت ـ للأسف ـ مرجعا للبعض في تفسير القرآن الكريم.

مع أن تفسير الآية واضح لا يحتاج إلى مثل هذا.. فالكافر ـ عندما يعاين جرائمه وما يترتب عليها من جزاء ـ يود لو أنه كان ترابا.. أو يود لو أنه بقي ترابا، ولم يصر إنسانا.. وهي في ذلك مثل قوله تعالى: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً (مريم: 23)

ومما استدلوا به من الحديث ما يسمى بحديث الصور الطويل[1]، وهو حديث مملوء بالغرائب، وهو أشبه بأحاديث القصاص منه بأحاديث النبي ﷺ، وقد قال فيه ابن كثير:(هذا حديث مشهور، وهو غريب جدا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة.

1) الأحاديث الطوال للطبراني برقم (36) وقد خولف فيه أحمد بن الحسن الأيلي، فرواه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة برقم (387) من طريق إسحاق بن راهوية، والبيهقي في البعث والنشور برقم (669) من طريق أبي قلابة الرقاشي كلاهما إسحاق- وأبو قلابة - من طريق أبي عاصم الضحاك، عن إسماعيل بن رافع، عن محمد بن أبي زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة. به، وروى من طريق أخرى مدارها على إسماعيل بن رافع المدني، وقد ضعفه الأئمة وتركه الدار قطني، وقال ابن عدي: (أحاديثه كلها مما فيه نظر)انظر: ابن كثير: 3/287.

تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة، وقد اختلـف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكـارة حديثه غير واحد من الأئمـة، كأحمـد بن حنبـل، وأبي حـاتم الرازي، وعمرو بن علي الفَلاس، ومنهم من قال فيه: هــو متروك. وقـال ابن عـدي: أحاديثـه كلهـا فيهـا نظـر إلا أنـه يكتب حديثه في جملة الضعفاء.

وقد اختلف عليه في إسناد هـذا الحـديث على وجـوه كثيرة، قد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه، فغريب جدًا، ويقال: إنه جمعـه من أحـاديث كثـيرة، وجعلـه سـياقا واحدا، فأنكر عليه بسبب ذلك. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول: إنه رأى للوليد بن مسلم مصـنفا قـد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحـديث، فاللـه أعلم)(1)

وبناء على هذا نرى أن الجزاء المعد لهـذه الكائنـات ـ كما ذكرنا تفاصيله في رسالة (أسرار الأقـدار) ــ يتناسـب مـع الرحمـة الإلهيـة الـتي وسـعت كـل شـيء، والرحمـة تقتضي أن يعامل كل شيء بحسب حاجته وهواه.. وبما أنا لا ندري نوع الحاجات التي تمتلئ بها نفوس هذه الكائنات، فإن الأدب يقتضي التوقف في المسألة إلا أن يـرد الـدليل المعصوم، وحينها يسلم له مع اعتقاد انسجامه مع مــا ورد في النصوص المحكمة من رحمة الله.

وقد نقلت لنا النصوص مـا يشـير إلى بعض التكـاليف التي كلفت بها هذه الكائنات، والطاقـات الـتي منحت لهـا

1) رواه البخاري ومسلم.

لأجل ذلك، ومنها قوله ﷺ:(بينما رجل يسوق بقرة له، قد حمل عليها، التفتت إليه البقرة، فقالت:(إني لم أخلق لهذا، ولكني إنما خلقت للحرث)[1]

وهذا الحديث لا يعني فقط جانبه الإعجازي، ولعله ﷺ لم يقصده بادئ الرأي، وإنما فيه الإشارة إلى أن لكل مخلوق الحدود الضابطة لوظيفته وتسخيره، وأن هذا الحيوان الذي نتصوره أعجم له من الوعي ما يدرك به حقيقته ووظيفته.

ولعل الثور الهائج الذي يمتطيه مدعي الفروسية، والناس من حوله يضحكون ويصفقون يصيح بملء فيه بما صاحت هذه البقرة، ولكن صياحه لا تسمعه إلا آذان الروح.

وقد أخبر ﷺ عن بعض طاقات هذه الحيوانات ووعيها، ومنها أنها ترى ما لا يراه الإنسان، فترى الملائكة والشياطين، وتنفعل لمرآهما، قال ﷺ:(إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكا وإذا سمعتم نهيق الحمار، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه رأى شيطانا)[2]

وقد يتصور البعض أن ما ذكره ﷺ عن الحمار من قدرته على رؤية الشيطان ذم له وعيب فيه، وهو فهم غير صحيح.

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

بـل إن رسـول اللـه ﷺ أخـبر عن طاقـة من طاقـات الحمار التي ننتفع بها، وهي قدرته على رؤية عـالم الشـر، ورؤية الشر ليست شرا، بـل إن العلم بالشـر هـو الـواقي للإنسان من الوقوع فيه.

والحمار بهذه الطاقة، وما ينبه به داعية من دعاة ذكر الله، وقد قال ﷺ:(لا ينهق الحمـار حـتى يـرى شـيطانا أو يتمثل له شـيطان ، فـإذا كـان ذلـك فـاذكروا اللـه وصـلوا علي)(1)

ولعل ذلك الصوت المزعج للحمار سببه هذه الرؤيـة، وليكون تنبيها للنفوس حتى لا تستريح لصـوته ــ في حـال كونه جميلا ـ عن الاستعاذة والصلاة.

والحمار بذلك يمثل جنديا من جنود الله الـتي يتعـرف المـؤمن من خلالهـا على أعدائـه، أو هـو عين من العيـون التي يتبصر بها المؤمن بعض عوالم الله.

وهو في كلا الدورين يشـبه الـديك، فالـديك هـو عيننـا على عــالم الملائكــة، كمــا أن الحمــار عيننــا على عــالم الشياطين.

هـذا بعض مـا ورد في النصـوص، وقـد ذكـر أبـو ذر اهتمام النبي ﷺ بالحديث عن هذه العـوالم، فقـال:(ولقـد تركنا رسول اللّه ﷺ، وما يقلب طائر جناحيـه في السـماء

---

1) رواه الطبراني مرفوعا.

إلا ذكر لنا منه علماً)[1]

---

1) رواه ابن جرير وأحمد وعبد الرزاق، واللفظ لأحمد.

ثانيا ـ الكون العابد

الحياة لا تكفي وحدها لتعقد مواثيق الصداقة بيننا وبين الكون.. فكم من حي هو أشبه بميت، وكم من حي هو أعدى لنا من ميت..

ولذلك، فإن هناك مقاما آخر من مقامات الكون، وخاصة من خواصه ترفع الصداقة بيننا وبين الكون لتجعلها في مرتبة الأخوة في الله.. وتجعل المحبة بيننا وبينه محبة في الله.

هذه الخاصة.. وتلك الصفة الرفيعة هي العبودية لله..

وانطلاقا من النصوص المقدسة ــ التي هي مرجعنا الوحيد في هذا الباب ـ فإن الكون ليس حيا فقط، بل هو حي عابد، يعرف ربه، ويتوجه له بأنواع التسبيح والعبادة، تسبيحا يفقهه، ويدرك معانيه، قال تعالى:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (الاسراء: 44)

ومثلما ذكرنا في تسرب النظرة المادية للنصوص الدالة على حياة الكون، والتي تنطلق من النظرة الحسية أو العقلية المستعبدة للحس، فإن هذه النظرة، وما تستخدمه من فنون التأويل سرى إلى الكون العابد وذلك بقصر عبادته على عبودية الدلالة دون أن يكون له في ذاته عبودية يتوجه بها بوعيه إلى الله.

فقال هؤلاء:(إن تسبيح الجمـادات أنهـا تـدعو النـاظر إليها إلى أن يقول: سبحان الله)، وذلك لعدم توفر الإدراك لها كما قال الشاعر:

تُلقى بتسبيحة من حيث ما انصرفت وتستقر حشا الرائي بترعاد

أي يقول من رآها: سبحان خالقها.

وهذه النظـرة تخـالف النصـوص الصـحيحة الصـريحة الكثيرة التي تفيد بأن للكون تسبيحه وعباداته الخاصة.

بل إن النصوص لم تكتـف بالحـديث العـام، الـذي قـد يحتمل التأويـل، بـل ذكـرت أنـواع العبـادة الـتي يمارسـها الكون.

وسنحاول التعرف على بعض هـذه الشـعائر التعبديـة في هذا الفصل.

1 ـ القنوت :

أول هــذه العبــادات، وعلى رأســها، ويــتربع ذروة سنامها: القنوت لله تعالى، كما قال تعـالى: وَقَـالُوا اتَّخَـذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُـلٌّ لَـهُ قَــانِتُونَ (البقــرة:116)، وقــال تعــالى: وَلَــهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (الروم:26)

والقنوت هو دوام الطاعة، ولـذلك يقـال للمصـلي إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده هو قـانت في ذلـك كلـه، كما قال تعالى: أَمَّنْ هُوَ قَـانِتٌ آنَـاءَ اللَّيْـلِ سَـاجِداً وَقَائِمـاً

يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)(الزمر: 9) فاعتبره تعالى قانتا في حال السجود والقيام.

ومثله ما ورد في الحديث حين سئل رسول الله ﷺ أي الصلاة أفضل فقال:(طول القنوت)(1)، ولم يرد به طول القيام فقط، بل طول القيام والركوع والسجود(2).

وعلى هذا يدل ـ كذلك ـ قوله تعالى:﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل:120) فقد كان إبراهيم تعالى يمارس جميع أنواع الطاعات وفي جميع الأوقات.

فالقنوت إذن هو دوام الطاعة واستمرارها وشمولها.

انطلاقا من هذا، فإن القرآن الكريم يخبرنا أن هذا الكون لم يتخل عن قنوته لله تعالى منذ ولادته، بل يخبر أن ولادته تمثل أعلى درجات القنوت لله تعالى، فكل ما نراه من أشياء ناتج عن الخضوع لأمر الله الواحد ﴿ كُنْ ﴾:

قال تعالى:﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة:117)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل:40)، وقال تعالى:﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يّس:82)، وقال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي

---

1) رواه مسلم.

2) قال ابن حجر:(طول الصلاة يستلزم طول القيام، كالركوع مثلا لا يكون أطول من القيام، كما عرف بالاستقراء من صنيعه ﷺ، ففي حديث الكسوف: فركع نحوا من قيامه) فتح الباري:3/19.

يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْـراً فَإِنَّمَـا يَقُـولُ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ (غافر:68)

وقد أجـاب العلمـاء على مـا قـد يسـأله من يسـتعبده عقله، فيقول: في أي حال يقول له كن فيكون؟ أفي حال عدمـه، أم في حـال وجـوده؟ فـإن كـان في حـال عدمـه استحال أن يأمر إلا مأمورا، كما يسـتحيل أن يكـون الأمـر إلا من آمر، وإن كان في حال وجوده فتلـك حـال لا يجـوز أن يأمر فيها بالوجود والحدوث، لأنه موجود حادث؟

ومن تلك الإجابات أنه خـبر من اللـه تعـالى عن نفـوذ أوامره في خلقه الموجود، كما أمـر في بـني إسـرائيل أن يكونـوا قـردة خاسـئين، ولا يكـون هـذا واردا في إيجـاد المعدومات.

أو أن الله عز وجـل عـالم بمـا هـو كـائن قبـل كونـه، فكانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة بعلمـه قبـل كونهـا مشـابهة للـتي هي موجـودة، فجـاز أن يقـول لهـا: كـوني، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجـود، لتصـور جميعها له ولعلمه بها في حال العدم.

أو أن ذلـك خـبر من اللـه تعـالى عـام عن جميـع مـا يحدثه ويكونه إذا أراد خلقه وإنشاءه كـان، ووجـد من غـير أن يكون هناك قول يقوله، وإنمـا هـو قضـاء يريـده، فعـبر عنـه بـالقول وإن لم يكن قـولا، واسـتدل هـؤلاء على هـذا التأويل بقولهم:(قد قالت الاتساع للبطن الحـق) ولا قـول هناك، وإنما أراد أن الظهر قد لحق بالبطن.

أو قول الآخر:

فأصبحت مثل النسر طارت فراخه إذا رام تطيارا يقال له قع

أو ما قال الآخر:

قالت جناحاه لساقيه الحقا ونجيا لحمكما أن يمزقا

وعن هذا المعنى عبر الغزالي بقوله:(ومن هذا القبيل في كنايته عن الاقتدار قوله تعالى: إِنَّما قَوْلُنَا لِشيءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فإن ظاهره ممتنع إذ قوله (كن) إن كان خطاباً للشيء قبل وجوده فهو محال إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين، ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها)(1)

ومن الإجابات في هذا ما يسمى (بالأعيان الثابتة في العدم).. وأن ثبوت الأشياء في حال عدمها هو الذي جعلها أهلا لأن تخاطب وتكلف بالخروج من العدم إلى الوجود(2).

وكل ذلك يمكن أن يكون صحيحا، ولكن الأصح هو

---

1) الإحياء.

2) وهذا كما هو معلوم قول ابن عربي، وقد ذكر مثله بعض المعتزلة، وليس في هذا القول ما يمكن أن يبدع أو يكفر به أحد من الناس، فالصفر.. وإن لم يكن له وجود عيني إلا أن له وجودا ذهنيا اعتباريا، بالإضافة إلى كل ما نحلم به من أشياء ليست موجودة، فلولا ثبوتها مع عدمها ما أمكننا توهمها.

هذا عن القول أما ما قد يستلزمه هذا القول من مفاهيم خاطئة.. فذلك شيء آخر، والتوجه بالتخطئة حينئذ يكون للاستلزام لا للقول.

التسـليم للـه في قولـه، واعتبـار مـا قالـه حقيقـة قـد لا تستوعب عقولنا صورتها.. وليس للعقل المحدود أن يتجرأ على تصور اللامحدود.

وهـذا التفسـير لطريقـة وجـود الكـون وصـدوره عن خالقه يقي المؤمن من التصـورات المختلفـة الـتي حـاول البشر بعقولهم الضعيفة أن يصـوروا بهـا هـذا الصـدور، ثم يؤسسوا علاقة الكون بربه على أساسه.

يقول سيد قطب موضحا التصور الإسلامي حول هذه المسـألة الخطـيرة:(لقـد صـدر الكـون عن خالقـه، عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة: كن، فيكون.. فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجـود هـذا الكـائن، على الصورة المقدرة له، بدون وسيط من قوة أو مـادة.. أما كيف تتصـل هـذه الإرادة الـتي لا نعـرف كنههـا، بـذلك الكـائن المـراد صـدوره عنهـا، فـذلك هـو السـر الـذي لم يكشف للإدراك البشري عنه)(1)

أما سبب عدم هـذا الكشـف، فراجـع إلى أن طاقـات البشر من المحدودية بحيث لا تصل إلى مثل هذا الإدراك.

فكيـف تـدرك الطاقـات البشـرية تفسـير الصـلة بين الأمــر الإلهي والكينونــة، وهي لا تــدرك أســرار الصــلات الموجـودة في العـوالم الـتي تعمرهـا، والـتي تـدعي أنهـا تفهمها وتبالغ في فهمها؟

وهل يمكن أن نشرح لصبي صـغير نظريـة النسـبية ـ

(1) في ظلال القرآن: 1/106.

مثلا ـ أو أن نجيبه على الأقل على التساؤلات الكثيرة التي يبعثها فضوله؟

أما السبب في محدودية الطاقـة البشـرية فهـو بكـل بساطة ـ كما يقول سيد ـ أن ذلك (لا يلزمها في وظيفتهـا التي خلقت لها وهي خلافـة الأرض وعمارتهـا.. وبقـدر مـا وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قـوانين الكـون التي تفيده في مهمته، وسخر له الانتفاع بها، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى)(1)

أمـا الفلسـفات الـتي هي عصـارة الفكـر البشـري المعتمد على نفسه، والمغتر بقوته، فقد ضربت (في تيـه لا منارة فيه، وهي تحاول كشف هـذه الأسـرار ؛ وتفـترض فروضـا تنبـع من الإدراك البشـري الـذي لم يهيـأ لهـذا المجـال، ولم يـزود أصـلا بـأدوات المعرفـة فيـه والارتيـاد، فتجيء هــذه الفــروض مضــحكة في أرفــع مســتوياتها، مضـحكة إلى حـد يحـير الإنسـان:كيـف يصـدر هـذا عن فيلسوف! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حـاولوا أن يخرجــوا بــالإدراك البشــري عن طبيعــة خلقتــه، وأن يتجـاوزوا بـه نطاقـه المقـدور لـه! فلم ينتهـوا إلى شـيء يطمأن إليـه ؛ بـل لم يصـلوا إلى شـيء يمكن أن يحترمـه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله)(2)

وقـد عصـم اللـه المسـلمين المهتـدين بنـور القـرآن

---

1) في ظلال القرآن: 1/106.

2) في ظلال القرآن: 1/106.

الكريم من الوقوع في هذه المتاهات، أو (أن يحاولوا هذه المحاولـة الفاشـلة، الخاطئـة المنهج ابتـداء، فلمـا أن أراد بعض متفلسـفتهم متـأثرين بأصـداء الفلسـفة الإغريقيـة - على وجه خـاص - أن يتطـاولوا إلى ذلـك المـرتقى، بـاءوا بالتعقيد والتخليط، كما باء أساتذتهم الإغريـق، ودسـوا في التفكـير الإسـلامي مـا ليس من طبيعتـه، وفي التصـور الإسلامي ما ليس من حقيقته.. وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولـة العقـل البشـري وراء مجالـه، وفـوق طبيعـة خلقته وتكوينه)(1)

فالقرآن الكريم إذن يفسر سر ولادة الكون الذي تـاه فيه الفلاسفة وغيرهم، ثم خبطوا بعقـولهم خبـط عشـواء، بهذا التفسير البسيط المعقول الذي تؤيده كل الأدلة، وهو أن كل شيء قانت لله.. ولا يمكنه إلا أن يقنت لله.

***

وقنوت الأشياء للـه، وخضـوعها لأمـره (كن) مسـتمر في كل الأحوال، فالكون الذي أطاع الله ابتداء، فخرج إلى الوجود بأمر (كن) لا زال يجيب الله.. وسيظل يجيبه.

وإلى هـذه الاسـتمرارية في القنـوت الإشـارة بقولـه تعالى: مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)(هود: 56)، وقولــه تعـالى: فَسُـبْحَانَ الَّذِي بِيَـدِهِ مَلَكُـوتُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ (يّـس:83)

وقد أقرت الكائنات بهذه الطاعة لله تعالى، كما قــال

(1) في ظلال القرآن: 1/106.

تعـالى: ﴿ ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّـمَاءِ وَهِيَ دُخَـانٌ فَقَـالَ لَهَـا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت:11)

وهذا هو الجواب الإلهي عن كـل التسـاؤلات المحـيرة التي يتيه فيها الغافل، وينكرها الملحد.

فعندما تعجبت مريم ـ عليها السلام ـ أن تلـد من غـير زواج، أخبرها الله تعالى بأن أمـره وحـده كـاف في ذلـك، قال تعالى: ﴿ قَـالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُـونُ لِي وَلَـدٌ وَلَمْ يَمْسَسْـنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُـقُ مَـا يَشَـاءُ إِذَا قَضَـى أَمْـراً فَإِنَّمَـا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران:47)

وعنــدما تعجب النصــارى من صــدور خارقــة ميلاد المسـيح من غـير حصـول مـا تعـارف عليـه النـاس من أسباب، ودعاهم ذلك إلى الخطأ في تصور طبيعة المسيح تعالى، رد عليهم الله تعالى بقولـه: ﴿ إِنَّ مَثَـلَ عِيسَـى عِنْـدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَـالَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ ﴾ (آل عمران:59)

وعنـدما تعجب المشـركون من أمـر البعث أخـبرهم الله تعـالى أن ذلـك ليس عجبـا، فاللـه تعـالى ﴿ هُـوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُـهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام:73)

وهـذا القنـوت الـذي يتصـف بـه الكـون، فيجعلـه في منتهى الخضـوع للـه لا يسـتثنى منـه شـيء حـتى الكفـار والملحدين، فإنهم يقنتون لله من حيث لا يعلمون.

وقد أخبر القرآن الكريم أن من قنـوت أجسـادهم مـا تشهد به عليهم يوم القيامة، كما قال تعـالى:﴿ يَـوْمَ تَشْـهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُـونَ﴾ (النـور: 24)

وقــد صــور ﷺ ذلــك في مجلس من مجالســه مــع الصحابة نقله لنا أنس بقوله: كنـا عنـد النـبي ﷺ فضـحك حتى بدت نواجذه ثم قال: أتدرون ممَّ أضـحك؟ قلنـا: اللّـه ورسوله أعلم، قال: من مجادلة العبد ربـه، يقـول: يـا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقـول: لا أجـيز عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقـول: كفى بنفسـك اليـوم عليـك شـهيداً، وبـالكرام عليـك شـهوداً، فيختم على فيـه ويقـال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينـه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكنَّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل)[1]

وقد أحصى ابن القيم لقنوت الكفار غير ما ذكرنـا من قنوت جوارحهم خمسـة أنـواع كلهـا ممـا ورد بـه التنزيـل، وهي:(قنـوتهم لخلقـه وحكمـه وأمـره قـدرا واعـترافهم بربوبيته واضـطراهم إلى مسـألته والرغبـة إليـه ودخـولهم فيمـا يـأمر بـه وإن كـانوا كـارهين وجـزاؤهم على أعمالـه ودخولهم فيما يأمر به مع الكراهة)[2]

فالقنوت شامل للجميع، والفرق الوحيد في ذلـك هـو أن المؤمن يقنت له طوعا وغيره يقنت له كرها، كما قـال

---

1) أحمد: 3/94، أبو يعلى: 7/55، الحاكم: 4/644.

2) رسالة في قنوت الأشياء: 27.

تعــالى: وَلِلَّهِ يَسْــجُدُ مَنْ فِي السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعــاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (الرعد:15)

ومثل القنوت الإسلام، فإنه دين الكـون جميعـا طوعـا أو كرها، قال تعالى: أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَـهُ أَسْـلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعـاً وَكَرْهـاً وَإِلَيْـهِ يُرْجَعُـونَ (آل عمران:83)

فالكون جميعا يستسلم لرب واحد، يتلقى منه قوانينه وتوجيهاته، فلذلك حفظ من الفساد، ولم يدب إليه مـا دب للبشر العاقل الذي اختار الكفر من فساد، كما قال تعالى: لَـوْ كَـانَ فِيهِمَـا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا فَسُـبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (الانبياء:22)

2 ـ السجود:

ومن عبادات الكون الـتي نص عليهـا القـرآن الكـريم (السجود).. وهي عبوديـة تجعـل من الكـون كلـه مسـجدا يقيم شعائره، كل بطريقته الخاصة، بحسب قابليته، ومدى نيله لتجليات الأسماء الحسنى.

قــال تعــالى: أَلَمْ تَــرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْــجُدُ لَــهُ مَنْ فِي السَّــمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّــمْسُ وَالْقَمَــرُ وَالنُّجُــومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَـقَّ عَلَيْـهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَـا لَـهُ مِنْ مُكْـرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَـلُ مَـا يَشَاءُ (الحج:18)

والسـجود كمـا يعـبر القـرآن الكـريم سـجود شـامل يشـمل الشـخوص والظلال، أو الجـواهر والأعـراض، كمـا

قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (الرعد:15)

وقد صور القرآن الكريم شكلا من أشكال السجود بقوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (النحل:48)

وقد خاض بعض الناس بعقولهم المحدودة في هذا المجال، واستبعدوا أن تسجد الظلال، وهي أعراض تفتقر إلى الجوهر، وهو فهم محدود منشؤه تعميم المعارف البشرية على الكون جميعا، وما دروا أن للعرض عقله وكيانه وتميزه كما للجوهر عقله وكيانه وتميزه.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن للموت الذي هو عرض من الأعراض صورة تظهر يوم القيامة على هيئة كبش يذبح بين الجنة والنار(1).

ولذلك فإن هذه الأمور تؤخذ تعقلا وتذوقا، لا تخيلا وتصورا، فحس الإنسان لا يدرك إلا ما هو في دائرته المحدودة، وهي من المحدودية بحيث لا يصح الاعتماد عليها في تصوير ما غاب عن الحس.

ومن ذلك ما عبر به ﷺ عن ظاهرة الكسوف التي نكتفي بتفسيرنا المادي لها، فإنه ﷺ يخبر بأن لها تفسيرا

(1) نص الحديث:(إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة! هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه، فيؤمر به فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار! خلود ولا موت) رواه البخاري ومسلم.

روحيا نص عليه بقوله ﷺ:(إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له)[1]

فمعرفتنا بالمواقيت الدقيقة المحددة للكسوف، ومعرفتنا بالأسباب الظاهرة لحصوله لا تنفي هذا، فقد يكون للشيء الواحد الأسباب الكثيرة، فلا ينبغي أن ننكر ما نجهل من الأسباب، ولا ينبغي أن نكون من ضيق الأفق، وقصور الهمة بحيث نكتفي بما لدينا من معارف[2].

وقد يرزق الله بعض خلقه ممن صفت مرآة قلوبهم رؤية سجود الكائنات لبارئها.

ومن ذلك ما روى ابن عباس قال: جاء رجل، فقال: (يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها، وهي تقول: (اللهم اكتب لي بها عندك أجرا وضع عني بها وزرا واجعلها لي عندك ذخرا وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود) قال ابن عباس:(فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد فسمعته، وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة)[3]

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) انظر ما يرتبط بهذا من تفاصيل علمية، ومن دلائل الإعجاز العلمي: رسالة (معجزات علمية)

3) الترمذي: 2/472.

ولأجل هذه العبودية الخاشعة لله نهى ﷺ عن إتخاذ ظهور الدواب منابر (فرب مركوبة خيرا أو أكثر ذكرا لله تعالى من راكبها)(1)

وهذا ما يجعل المؤمن يخفف من غلواء كبرياه، وهو يمشي مطأطئ الراس بخطى وئيدة على الأرض الساجدة لله، ممتثلا قوله تعالى: وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (الاسراء:37)

أما هيئة السجود، والتي قد تستهوي الخيال، وقد تحجب العقل عن الحقائق إن وقف عندها، فإن لكل شيء سجوده الخاص الذي يعبر به عن منتهى خضوعه وذله لله تعالى.

قال ابن القيم:(والسجود من جنس القنوت، فإن السجود الشامل لجميع المخلوقات، وهو المتضمن لغاية الخضوع والذل، وكل مخلوق فقد تواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته، ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ووضع جبهة في رأس مدور على التراب، فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان)(2)

بل إن الأديان تختلف شعائرها وطقوسها في سجودها، فلا يعني السجود بالضرورة ما يفعله

1) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

2) رسالة في قنوت الأشياء: 27.

المسلمون، قال ابن القيم:(من الأمم من يركع ولا يسجد وذلك سجودها.. ومنهم من يسجد على جنب كاليهود.. فالسجود اسم جنس، ولكن لما شاع سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد)[1]

ومثل هذا سائر الألفاظ، فإنه (لما كان المسلمون يصلون الصلاة المعروفة صار يظن من يظن أن كل من صلى فهكذا يصلي، حتى صار بعض أهل الكتاب ينفرون من قولنا: إن الله يصلي، وينزهونه عن ذلك، فإنهم لم يعرفوا من لفظ الصلاة إلا دعاء المصلي لغيره وخضوعه له، ولا ريب أن الله منزه عن ذلك لكن ليست هذه صلاته سبحانه)[2]

ومن هذا الباب ما روي في الحديث أن رسول الله ﷺ قال:(صوت الديك صلاته، وضربه بجناحيه سجوده وركوعه) ثم تلا هذه الآية: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الاسراء: 44)[3]

وعن ابن عباس قال: ينادي مناد من السماء، اذكروا الله يذكركم، فلا يسمعها أول من الديك، فيصيح فذلك

---

1) رسالة في قنوت الأشياء: 27.

2) رسالة في قنوت الأشياء: 27، وقد ذكرنا رد هذه الشبهة في رسالة (معجزات حسية)

3) رواه ابن مردويه وأبو نعيم في فضائل الذكر.

تسبيحه(1).

ومنه ما روي عن سهل بن عبدالله أنه سئل:(أيسجد القلب) قال:(نعم سجدة لا يرفع رأسه منها أبدا)

ومنه ما روي أن أهل الجنة في الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس في الدنيا(2).

وعلى هـذا ينبغي أن تفسـر الآيـات والأحـاديث لـترفع كل وهم أو إشكال أو شبهة قد يزرعها المغرضون.

ومع ذلك حاول بعض الناس أن يدخل بعقلـه إلى هـذا الميدان، فذكر بعضهم هيئة سجود النبات والشـجر، فـذكر أن سجودها هو تفيؤ ظلالها، وهو ما لا دليل عليه، فللنبـات سجوده كما للظلال سجودها.

ومـع ذلـك، فـإن هـؤلاء الـذين تكلفـوا هـذا مقـرين بالسـجود متكلفين لهيئتـه خـير من الـذين راحـوا يؤولـون السجود، فيحولونه إلى سجود مجازي لا حقيقة له.

ومن هــؤلاء من ذهب إلى أن الســجود هــو مجــرد الخضوع الخالي من أي مظهر، كما قال الشاعر:

بجيش تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيه سجدا للحوافر

ومن ذلك مـا ذكـره الـرازي عن بعضـهم، فقـال:(إن

---

1) رواه ابن أبي حاتم.

2) رواه مسلم.

السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعـدم الامتنـاع وكـل من في السـموات والأرض سـاجد للـه بهـذا المعـنى، لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل وتحقيق القول فيـه أن مـا سواه ممكن لذاته والممكن لذاته هو الـذي تكـون ماهيتـه قابلة للعـدم والوجـود على السـوية وكـل من كـان كـذلك امتنـع رجحـان وجـوده على عدمـه أو بـالعكس، إلا بتـأثير موجود ومؤثر فيكون وجود كـل مـا سـوى الحـق سـبحانه بإيجاده وعـدم كـل مـا سـواه بإعدامـه، فتـأثيره نافـذ في جميع الممكنات في طـرفي الإيجـاد والإعـدام، وذلـك هـو السجود وهو التواضع والخضوع والانقياد)[1]

ومن ذلـك مـا ذكـر أن المـراد من سـجودها شـهادتها ودلالتها على الخالق، كما قال أبو الفرج:(الساجدون على ضربين: أحدهما من يعقل فسجوده عبـادة، والثـاني من لا يعقل فسجوده بيان أثر الصنعة فيه والخضـوع الـذي يـدل على أنه مخلوق)[2]

وهذه الأقوال ـ وإن كانت معانيها صـحيحة في ذاتهـا ـ إلا أنـــه لا علاقـــة لهـــا بمعـــنى الســـجود الـــذي ورد في النصوص.. وأدل دليل على هذه المنافاة هـو أن النصـوص الكثيرة دالة على طواعية سجود الأشياء، ولـو كـان الأمـر كما ذكروا لما كانت في ذلك أي طواعية.

بل هذا يتنافى مع ما يدل على تجـدد ذلـك منهـا، كمـا

---

1) التفسير الكبير.

2) رسالة في قنوت الأشياء: 43.

قـال تعـالى: ﴿إِنَّا سَـخَّرْنَا الْجِبَـالَ مَعَـهُ يُسَـبِّحْنَ بِالْعَشِـيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (صّ:18)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَـبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُـلٌّ قَـدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُـونَ﴾ (النـور:41)، فقـد أخبر تعـالى أنـه يعلم ذلـك، بينمـا دلالتهـا على اللـه تعـالى يعلمها جميع الناس.

ومن ذلـك مـا أخـبر اللـه تعـالى بـه من كلام الهدهـد والنمـل، وأن سـليمان علم منطـق الطـير بمـا يـدل على الإختصاص.

ومن ذلــك (أنــه قســم الســجود إلى طــوع وكــره، وانفعالها لمشيئة الرب وقدرته لا ينقسم إلى طوع وكــره، ولا يوصف ذلك بطوع منها ولا كره، فإن دليل فعـل الـرب فيهـا ليس هـو فعـل منهـا ألبتـة، والقـرآن يـدل على أن السجود والتسبيح أفعـال لهـذه المخلوقـات، وكـون الـرب خالقا لها إنما هو كونها مخلوقة للرب ليس فيه نسبة أمــر إليها، ويبين ذلك أنه خص الظل بالسجود بالغـدو والآصـال والظل متى كان وحيث كان مخلوق مربـوب واللـه تعـالى جعل الظلمات والنور)[1]

أما البيت الذي استشهدوا به، فلا يعتبر دليلا شرعيا له حجيته من ناحية، ومن ناحيـة ثانيـة، (فهـذا خضـوع جمـاد لجماد، ولا يلزم أن يكون سائر أنـواع الخضـوع مثـل هـذا، وإنما يشترك في نوع الخضوع، وليس خضوع المخلوقـات

(1) رسالة في قنوت الأشياء: 43.

للخالق مثل هذا)(2)

3 ـ التسبيح:

ومن عبـادات الكـون، وهي أكثرهـا ورودا في القـرآن الكريم، عبادة التسبيح لله تعالى.

وقـد افتتحت خمس سـور من القـرآن الكـريم بـذكر تسبيح ما في السـموات ومـا في الأرض للـه، وهي قولـه تعالى: سَـبَّحَ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (الحديد:1) ونفس الآية في سورة الحشر، وقوله تعالى: سَـبَّحَ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الصف:1)، وقولـه تعـالى: يُسَـبِّحُ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ الْمَلِـكِ الْقُـدُّوسِ الْعَزِيـزِ الْحَكِيمِ (الجمعـة: 1)، وقولـه تعـالى: يُسَـبِّحُ لِلَّهِ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْـكُ وَلَـهُ الْحَمْـدُ وَهُـوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التغابن:1)

وتسـبيح الأشـياء دليـل على معرفتهـا باللـه معرفـة تجعلها تنزهه عن كل ما لا يليق بجلاله.

والمعرفة التنزيهية هي الأصل للمعرفة الإثباتيـة.. بـل إن المعرفة التنزيهيـة معرفـة إثباتيـة.. فمن نـزه اللـه عن الجهل أثبت له علما.. ومن نـزل اللـه عن الجـور أثبت لـه عدلا.. وهكذا.

وقد أخبرت النصوص أن الكائنات تـنزه اللـه بحسـب أحوالها، وأنواعها، فلكل مخلوق تسبيحه الخاص به، والذي

---

2) رسالة في قنوت الأشياء: 43.

قد لا يفقهه غيره ممن لم يذق ذوقه، أو يمر بتجربته.

ولذلك نفى الله تعالى عن أكثر الخلق إمكانية فقه هذه التسابيح التي يعج بها الكون، قال تعالى: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (الاسراء: 44)

وعدم الفقه والتصور لا يعني في المنهج العلمي السليم إنكار ما لم يتمكن من فقهه أو تصوره، كما قال تعالى: وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (الاسراء: 36)

فمن أنكر ما لم يقف على سره وحقيقته كان مقتفيا ما ليس له به علم.

ومن الأخطاء في هذا، والناشئة من اقتفاء سبيل العقل المجرد عن نور الوحي، الزعم بأن المراد بالتسبيح مجرد تسبيح الدلالة، وقد رددنا على ذلك من قبل، وقد أفاض العلماء والربانيون في الرد على ذلك، فهو يسلب الكون خاصية مهمة من خصائصه، ويرفع عنه جلبابا من جلابيب الجمال التي كساه الله به.

وحسبنا من الرد، ونفي الشبهة هنا أن الله أخبر عن التسبيح الخاص للأشياء بوقت دون وقت، كالعشى والاشراق، كما قال تعالى: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْأِشْرَاقِ (صّ:18)، فهل المراد بذلك أن دلالتها على خالقها تخص هذين الوقتين فقط؟

وقد قال ﷺ مشيرا إلى توقيت تسـبيح الكائنـات:(مـا تستقل الشمس فيبقي من خلق الله تعـالى إلا سـبح اللـه بحمده إلا ما كان من الشيطان وأغبياء بني آدم)(1)

ولعل في تحديد مواقيت العبادات ارتباطها بالعبـادات التي يمارسها الكون، حـتى يشـكل المؤمنـون مـع الكـون الواسع حلقة ذكر واحدة، فقد أمر المؤمنون مثلا بمراعـاة هذين الوقتين، قال تعـالى لزكريـا ﷺ: وَاذْكُـرْ رَبَّكَ كَثِـيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (آل عمـران: 41)، وقـال لعمـوم المؤمنين: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِـذَنْبِكَ وَسَـبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأِبْكَارِ (غافر:55)

وفي نفس الـوقت الـذي أخـبر القـرآن الكـريم عن عبودية الكون في الغدو والآصال أمر وأخبر عن المؤمـنين أنهم يراعون هذين الوقتين.

قـال تعـالى مخـبرا عن عبوديـة الكـون في هـذين الوقـتين: وَلِلَّهِ يَسْـجُدُ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعـاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (الرعد:15)

وقـال عن المؤمـنين مخـبرا: فِي بُيُـوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَـالِ رِجَـالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَـارَةٌ وَلا بَيْـعٌ عَنْ ذِكْـرِ اللَّهِ وَإِقَـامِ الصَّـلاةِ وَإِيتَـاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (النور:36 ـ 37)

وقـال عنهم آمـرا: وَاذْكُـرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِـكَ تَضَـرُّعاً

1) مسند الشاميين: 2/84، الفردوس بمأثور الخطاب: 4/76.

وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُـدُوِّ وَالْآصَـالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (لأعراف:205)

ولكن مـع ذلـك ــ ولزومـا للمنهج العلمي ــ سنسـوق بعض أدلة وردود عمدة من عمـد هـذا المنهج وهـو الفخـر الـرازي، فقـد نص على رأيـه هـذا بقولـه:(اعلم أن الحي المكلف يسبح لله بوجهين: الأول: بالقول كقولـه باللسـان سبحان الله، والثاني: بدلالة أحواله على توحيد الله تعـالى وتقديسه وعزته، فأما الذي لا يكـون مكلفـاً مثـل البهـائم، ومن لا يكون حياً مثل الجمادات فهي إنما تسبح لله تعالى بالطريق الثاني)(1)

وقد استدل لذلك باستدلال بعيـد منشـؤه مـا ذكرنـاه من توهم عدم حياة الكون أو تصور أن النطـق يحتـاج إلى آلة كآلة نطـق الإنسـان، وهـو تغليب للخيـال على العقـل، وانتصار للوهم على الحقائق، قـال الـرازي في بيـان وجـه هذا الاستدلال:(لأن التسـبيح بـالطريق الأول لا يحصـل إلا مع الفهم والعلم والإدراك والنطق وكـل ذلـك في الجمـاد محـال، فلم يبـق حصـول التسـبيح في حقـه إلا بـالطريق الثاني)

والعجب هو اعتباره ذلك محالا، فـأي اسـتحالة عقليـة في ذلك، وهل العقل من الإحاطة بحيث يدرك سر الحيـاة حتى يهيـه لمن يشـاء ويسـلبه عمن يشـاء؟ وأي اسـتحالة نقلية، والنصوص تعج بأدلة حياة الكائنات.

بل ذهب الرازي إلى أبعد من ذلك حين اسـتلزم ممـا

(1) تفسير الرازي: 20/218.

اعتــبره دليلا أن اعتبــار تســبيحها يقــوض الاســتدلال على اتصاف بالله بالحياة، قال:(واعلم أنا لو جوزنا في الجمــاد أن يكون عالماً متكلماً لعجزنا عن الاستدلال بكونــه تعــالى عالماً قادراً على كونه حياً وحينئـذ يفســد علينــا بــاب العلم بكونه حياً وذلك كفر، فإنه يقال: إذا جاز في الجمــادات أن تكون عالمة بذات اللــه تعــالى وصــفاته وتســبحه مــع أنهــا ليست بأحياء فحينئذ لا يلزم من كون الشيء عالمــاً قــادراً متكلماً كونه حيــاً فلم يلــزم من كونــه تعــالى عالمــاً قــادراً كونه حياً وذلك جهل وكفر، لأن من المعلوم بالضــرورة أن من ليس بحي لم يكن عالماً قادراً متكلماً)

وهــذا الاســتدلال يــبين الخطــأ الــذي وقــع فيــه المنهج الكلامي في استدلالاته على صفات اللــه تعــالى، فهــو هنــا يبني صفة الحياة التي تدل عليهــا ملايين الأدلــة على دليــل واحد، تنهد صفة حياة الله بانهداده.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الرازي يستعمل هنــا أســلوب الفقهاء في سد الذرائع، وهــو منهج لا يصــح اســتعماله في الاستدلالات العقليــة، فالعقــل لا ينبغي أن يســد في وجهــه أي باب، مهمــا كــانت الذريعــة المؤديــة إليــه، إلا إذا كــانت تؤديــه إلى معــارف لا يطيقهــا، أو ليســت لديــه أدوات تحصيلها.

وقــد أجــاب الــرازي على مــا أوردنــاه من أدلــة على تسبيح الكائنات بوجوه يقتضي المنهج العلمي إيرادها، وإن كنا نتجنب الجدل ما أمكن في هذه الرسائل:

أمــا الوجــه الأول، فقــد عــبر عنــه بقولــه:(إذا أخــذت

تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثر من الأجزاء التي لا تتجزأ، وكل واحد من تلك الأجزاء دليل تام مستقل على وجود الإله، ولكل واحد من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ حفـاة مخصوصـة من الطبـع والطعم واللـون والرائحـة والحيز والجهة، واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصـفة المعينـة من الجـائزات فلا يحصـل ذلـك الاختصـاص إلا بتخصيص مخصص قادر حكيم.

إذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من أجـزاء تلـك التفاحة دليل تام على وجود الإله وكل صـفة من الصـفات القائمة بذلك الجزء الواحد فهو أيضاً دليل تـام على وجـود الإله تعالى، ثم عدد تلك الأجزاء غير معلوم، وأحـوال تلـك الصفات غير معلومة) (1)

وكل هذا كلام صحيح لا حـرج فيـه، وهـو من العبوديـة التي يمارسها الكون، والتي سميناها عبودية الدلالة، ولكن الخطأ هو اعتبار ذلك هو التفسـير الوحيـد لتسـبيح الكـون ولقوله تعالى: وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الاسـراء: 44)

أمـا الوجـه الثـاني، فهـو قولـه بـأن الكفـار وإن كـانوا يقـرون بألسـنتهم بإثبـات إلـه العـالم إلا أنهم مـا كـانوا يتفكرون في أنـواع الـدلائل، ولهـذا المعـنى قـال تعـالى: وَكَـأَيِّنْ مِنْ آيَـةٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُـرُّونَ عَلَيْهَـا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (يوسف:105)

وهو وجـه صـحيح، ولكنـه ليس دليلا على نفي تسـبيح

(1) تفسير الرازي: 20/218.

المقال، فلا تناقض بين المقالة والدلالة.

أما الوجه الثالث، وهو وجه يعتمد على السياق الذي وردت فيه الآية، فهو قوله بأن القوم وإن كانوا مقرين بألسنتهم بإثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا عالمين بكمال قدرته، ولذلك استبعدوا كونه تعالى قادراً على الحشر والنشر فكان المراد ذلك، ثم إنه قال لرسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ (الاسراء: 42) فهم ما كانوا عالمين بهذا الدليل، فلما ذكر هذا الدليل قال: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنّ)(الاسراء: 44)

وكأن الآية تقول ــ كما يفهمها الرازي ــ:(فتسبيح السموات والأرض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وأنتم لا تفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه)

وهذا الوجه لا يتنافى أيضا مع التسبيح المقالي للكائنات، بل هو فهم من الفهوم الصحيحة للآية، والفهوم لا يلغي بعضها بعضا، فكلام الله يحتمل الجميع.

ولعل أقوى دليل ذكره هو ما عبر عنه بقوله:(مما يدل على أن الأمر كما ذكرناه قوله:﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (الاسراء: 44) فذكر الحليم والغفور ههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم، وهذا إنما يكون جرماً إذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ثم إنهم لغفلتهم وجهلهم ما عرفوا وجه دلالة تلك الدلائل.

أما لو حملنا هذا التسبيح على أن هذه الجمادات

تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرماً ولا ذنباً، وإذا لم يكن ذلك جرماً ولا ذنباً لم يكن قوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (الاسراء: 44) لائقاً بهذا الموضع)

وهذا الاستدلال الأخير مع قوته إلا أن الفاصلة القرآنية لا تشمل آخر الآية فقط، بحيث يكون الحلم والمغفرة مرتبطان بعدم فقه التسبيح، بل هي مرتبطة بموضوع الآية جميعا[1]، وهو الإخبار عن تسبيح كل شيء في الوقت الذي يغفل فيه الإنسان.

والعتاب على الغفلة يتناسب مع الحلم والمغفرة.

وهذا يتناسب مع ما روي في الآثار من العتاب على الغفلة في الوقت الذي تسبح فيه الموجودات، كما ورد في الأثر:(الدابة والثوب يسبح، وأنت غافل)

وفي أثر آخر:(أما يستحي أحدكم أن تكون دابته أو ثوبه أكثر تسبيحا منه)

وفي أثر آخر:(ما ارتفعت الشمس قيد رمح إلى السماء فبقي لله شيء من خلقه إلا سبح لله إلا الشيطان وأعتى بني آدم)

---

1) اعتبر السيوطي هذه الفاصلة من الفواصل التي لا يظهر فيها ارتباطها بموضوع الآية بادي الرأي، قال:(الختم بالحلم والمغفرة عقب تسابيح الأشياء غير ظاهر في بادى الرأي، وذكر في حكمته أنه لما كانت الأشياء كلها تسبح ولا عصيان في حقها وأنتم تعصون ختم به مراعاة للمقدر في الآية وهو العصيان، كما جاء في الحديث:(لولا بهائم رتع وشيوخ ركع وأطفال رضع لصب عليكم العذاب صبا ولرص رصا)، وقيل التقدير حليما عن تفريط المسبحين غفورا لذنوبهم، وقيل حليما عن المخاطبين الذين لا يفقهون التسبيح بأهمالهم النظر في الآيات والعبر ليعرفوا حقه بالتأمل فيما أودع في مخلوقاته مما يوجب تنزيهه) الإتقان: 2/276، وانظر: البرهان: 1/92.

ومن هـذا البـاب مـا روي في الآثـار عن داود ﵇ أنـه قال:(يا رب اغفر لي فمن أكثر لذكرك مـني) فقـام على صخرة إلى جنب نهر حتى أصبح، فنـاداه ضـفدع:(يـا داود تمن على الله تعالى، وأنا ضفدع أسبح الله الليل مع النهار من خشيته، فنظر فإذا هي قائمة على الماء، فقـال:(رب اغفر لي، فإن نعمك علي أفضل من ذكرك)

وذهب إلى نفس ما ذهب إليه الرازي المفسر الكبـير ناصر مكارم الشيرازي، ولا بأس من إيراد ما ذكر من أدلة هنا، كما ذكرنا أدلة الرازي رغبة في تجلية الحقيقة.

قـال الشـيرازي في الأمثـل:(هُنـاك كلام كثـير بين العلماء والمفسّرين والفلاسـفة حـول تفسـير حقيقـة هَـذا الحمد والتسبيح، فبعضـهم اعتـبر الحمـد والتسـبيح (حـالا) والبعض الآخر (قولا))

ثم انتصر للقـول الأول بقولـه:(الكثـير يعتقـد أنَّ هَـذا التسـبيح والحمـد هـو على شـاكلة مـا نسـميه بــ (لسـان الحال) وَهو حقيقي غير مجازي إِلاَّ أنّهُ بلسان الحال وَليس بالقول. (تأمّل ذلك).

ولتوضيح ذلك تقول: قد يحـدث أن نشـاهد آثـار عـدم الإرتياح والألم، وَعدم النوم في وَجـه أو عيـني شـخص مـا وَنقول له: بالرغم مِن أنّك لم تتحـدث عن شـيء مِن هَـذا القبيل، إِلاّ أن عينيك تقـولان بأنّـك لم تنم الليلـة الماضـية، وَوجهك يؤكّد بأنّك غير مرتـاح ومتـألم! وَقـد يكـون لسـان الحـال مِن الوضـوح بدرجـة بحيث أَنَّهُ يُغطي على لسـان القول لو حاول التستر عليها قولا، وهَذا هـو المعـنى الـذي

صرّح به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) بقوله: (ما أضمر أحد شيئاً إِلاَّ ظهر في فلتات لسانُه وصفحات وَجهه)(1)

مِن جانب آخر هل يمكن التصديق بأَنَّ لوحة فنية جميلة للغاية تدل على ذوق وَمهارة رسامها، لا تمدحُه أو تثني عليه؟ وهل يمكن انكار ثناء دواوين أشعار أساطين الشعر والادب وتمجيدها لقرائحهم واذواقهم الرفيعة؟.. أو يمكن انكار أن بناءً عظيماً أو مصنعاً كبيراً أو عقولا الكترونية معقدة أو أمثالها، أنّها تمدح صانعها وَمُبتكرها بلسان حالها غير الناطق؟

لذا يجب التصديق والتسليم بأنَّ عالم الوجود العجيب ذا الأسرار المتعدِّدة والعظمة الكبيرة، والجزئيات العديدة المُحيِّرة، يقوم بتسبيح وَحمد الخالق عزَّوجلّ، وإِلاَّ فهل (التسبيح) سوى التنزيه عن جميع العيوب؟ فنظام عالم الوجود ناطق بأنَّ خالقهُ ليسَ فيه أي نقص أو عيب:

ثمّ هل (الحمد) سوى بيان الصفات الكمالية؟ فنظام الخلق والوجود كلّه يتحدث عن الصفات الكمالية للخالق وعلمه وَقدرته اللامتناهية وَحكمته الوسيعة.

خاصّة وأنَّ تقدم العلوم البشرية وكشف بعض أسرار وَخفايا هَذا العالم الواسع، توضح هَذا الحمد والتسبيح العام بصورة أجلى. فاليوم مثلا ألّف علماء النبات المؤلفات العديدة عن أوراق الأشجار، وَخلايا هَذِهِ الأوراق، وَالطبقات السبع الداخلة في تكوينها، والجهاز التنفسي

(1) نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم 26.

لها، وَطريقة التغذية وَسائر الأُمور الأُخرى التي تتصل بَهـذا العالم.

لذلك، فإِنَّ كـل ورقـة توحـد اللـه ليلا وَنهـاراً، وَينتشـر صوت تسبيحها في البساتين والغابات، وَفوق الجبـال وَفي الوديان، إِلاَّ أنَّ الجهلاء لا يفقهون ذلك، وَيعتبرونها جامدة لا تنطق.

إِنَّ هَذا المعـنى للتسـبيح والحمـد السـاري في جميـع الكائنات يمكن دركه تماماً، وَليست هُناك حاجة لأن نعتقــد بوجود إِدراك وَشعور لكل ذرات الوجود، لأَنَّه لا يوجد دليــل قــاطع على ذلــك، والآيــات الســابقة يحتمــل أن يكــون مقصودها التسبيح والحمد بلسان الحال)

وقد رد على الاعتراض القائـل:(إِذا كـان الغـرض مِن الحمد والتسبيح هو تعبير نظام الكون عن نزاهـة وَعظمـة وَقدرة الخالق عزَّوجلّ، وتبيان الصفات السـلبية والثبوتيـة، فلماذا يقول القرآن: (لا تفقهـون تسـبيحهم) لأنّـه إِذا كـانَ البعض لا يفقه، فإِنَّ العلماء يفقهون ويعلمون؟)

وقد أجاب على ذلك بجوابين:

الأوّل: إِنَّ الآية توجَّه خطابها إِلى الأكثرية الجاهلــة مِن عموم الناس، خصوصـاً إِلى المشـركين، حيثُ أنَّ العلمـاء المؤمنين قِلَّة وَهم مستثنون مِن هَذا التعميم، وُفقاً لقاعدة ما مِن عام إِلاَّ وَفيه استثناء.

الثّاني: هو أنَّ ما نعلمهُ مِن أسـرار وَخفايـا العـالم في مقابل ما لا نعلمُه كالقطرة في قبال البحــر، وَكالــذرة في

قبال الجبل العظيم. وإِذا فكرنا بشكل صحيح فلا نسـتطيع أن نسـمّي الـذي نعرفـه بأنَّه (علم). إِنّنـا في الواقـع لا نستطيع أن نسمع تسبيح وَحمد هَـذِهِ الموجـودات الكونيـة مهما أوتينا مِن العلم، لأنَّ ما نسمعهُ هو كلمة واحدة فقط مِن هَذا الكتاب العظيم!!

وَعَلى هذا الأساس تستطيع الآيـة أن تخـاطب العـالم بأجمعـه وَتقـول لهم: إنّكم لا تفقهـون تسـبيح وَحَمـد الموجودات بلسان حالها، أمّا الشيء الذي تفقهـوه فهـو لا يساوي شيئاً بالنسبة إِلى ما تجهلون)(1)

وكل ما ذكره صحيح، ولكنه يدخل في نـوع من أنـواع التسبيح، أو يدخل بـالأحرى في صـفة من صـفات الكـون، سـميناها (المقروئيـة) أو الدلالـة.. وهـو تسـبيح سـلبي، لا إيجابي لأن الذي يقوم بـه من يشـاهد الموجـودات لا عين الموجودات، والله تعالى في القرآن أثبت التسـبيح لأعيـان الموجودات.

والعجب أن يقـول الشـيرازي هـذا مـع أن الروايـات الكثـيرة الـواردة عن أهـل الـبيت ـــ عليهم السـلام ـ وسـماعهم لتسـبيح الموجـودات تنفي هـذا النـوع من الفهم(2).

---

1) انظر: الأمثل، للشيرازي.

2) من ذلك ما روي عن بعض أصحاب الإمام الصادق قال: سألت الإمام عن تفسير قوله تعالى: وإن من شئ إلا يسبح بحمده فقال: (كل شئ يسبح بحمده وإنا لنرى أن ينقض الجدار وهو تسبيحها)

وعن الإمام محمد الباقر قال: نهى رسول الله ﷺ أن توسم البهائم في وجوههـا، وأن تضرب وجوهها لأنها تسبح بحمد ربها.

ومن التفسير الذي يتنافى مع عموم النصوص ما ذهب إليه بعضهم حين قصر التسبيح على أحوال معينة للكائنات.

ومن ذلك قصره على كل حي ونام، فنفوا التسبيح عن الجمادات، ومن هذا قول عكرمة: (الشجرة تسبح، والاسطوان لا يسبح)، وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام وقد قدم الخوان:(أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟) فقال:(قد كان يسبح مرة)، يريد أن الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبح، وأما الآن فقد صار خوانا مدهونا.

وقد ذكر النووي أن هذا مذهب الكثير من المفسرين، قال:(وهذا مذهب كثيرين أو الأكثرين من المفسرين في قوله تعالى:﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (الاسراء: 44) قالوا معناه وإن من شيء حي، ثم قالوا حياة كل شيء بحسبه، فحياة الخشب ما لم ييبس، والحجر ما لم يقطع)[1]

وعن الإمام الصادق: ما من طير يصاد في بر ولا بحر، ولا شئ يصاد من الوحش إلا بتضييعه التسبيح.

وروي أن الإمام الباقر ، فعندما سمع يوما صوت عصفور، فقال لأبي حمزة الثمالي - وكان من خاصة أصحابه -: (يسبحن ربهن عز وجل ويسألن قوت يومهن)

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق نقرأ قوله (عليه السلام): للدابة على صاحبها ستة حقوق: لا يحملها فوق طاقتها، ولا يتخذ ظهرها مجلسا يتحدث عليها، ويبدأ بعلفها إذا نزل، ولا يسمها في وجهها، ولا يضربها فإنها تسبح، ويعرض عليها الماء إذا مر بها) انظر: نور الثقلين: 3/168.

[1] مع كون هذا قول أكثر المفسرين إلا أن المحققين على خلافه، قال النووي: (وذهب المحققون من المفسرين وغيرهم إلى أنه على عمومه، ثم اختلف هؤلاء هل يسبح حقيقة أم فيه دلالة على الصانع فيكون مسبحاً منزهاً بصورة حاله، والمحققون على أنه يسبح حقيقة) النووي على مسلم:3/201.

واستدل القائلون لهذا من السنة بما ثبت عن ابن عباس أن النبي ﷺ مر على قبرين فقال:(إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول) قال: فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال: (لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)(1)

ففهم هؤلاء من قوله ﷺ:(ما لم ييبسا) أن ذلك إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان، فإذا يبسا صارا جمادا.

ولسنا نرى في هذا النص أي دلالة، فالحديث لم يربط تسبيح العسيب بتخفيف العذاب، بل ربطه برطوبته، فلعل لتلك الرطوبة تأثيرا خاصا أدركه رسول الله ﷺ بمشكاة النبوة، وليس لمن لم يطلع من تلك المشكاة أن يتطفل على مثل هذه الأسرار(2).

* * *

وقد ورد في النصوص ما يدل على أن تسبيح الخلائق

---

1) البخاري: 1/88، مسلم: 1/240.

2) ولذلك نرى أن يكتفى من فهم الحديث الذي استدلوا به بما ذكر منه من الناحية العملية، فلا جدوى من الناحية النظرية لارتباطها بأمر غيبي ليس لدينا وسائل التعرف على كنهه.

والناحية العملية في هذا الحديث هي ما ذكره العلماء من استحباب قراءة القرآن عند القبر لهذا الحديث، لأنه إذا كان يرجى التخفيف بتسبيح الجريد، فتلاوة القرآن أولى، وقد ذكر البخاري في صحيحه أن بريدة بن الحصيب الأسلمي الصحابي أوصى أن يجعل في قبره جريدتان، ففيه أنه تبرك بفعل مثل فعل النبي ﷺ.انظر: النووي على مسلم: 3/201.

مصدر من مصادر رزقها، قال ﷺ:(ألا أخبركم بشيء أمـر به نوح ابنه، إن نوحا قـال لابنـه يـا بـني. آمـرك أن تقـول: سبحان الله، فإنها صلاة الخلق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق)(1)

وورد ما يدل على أن ما يحصل لها من المصـائب هـو بسبب تضييعها التسبيح، وفي ذلك أكبر الدلالة على وعيهـا التام ـ مع كونها غير مكلفة ــ فقـد ورد في الحـديث قولـه ﷺ:(مـا صـيد من صـيد ولا وشـج من وشـج إلا بتضـييعه التسبيح)(2)، وقال ﷺ:(ما اصطيد طير في بر ولا بحــر إلا بتضييعه التسبيح)(3)

وفي حــديث آخــر قــال ﷺ:(مـا صـيد من طـير في السماء ولا سمك في الماء حتى يدع ما افترض الله عليـه من التسبيح)(4)، وهذا الحـديث إن صـح يـدل على الـوعي التام للكائنات، فالفرائض لا تتوجه لغير العاقل الواعي.

وقـد ورد في حـديث آخـر بعض التفاصـيل في ذلـك، قـال ﷺ:(آجـال البهـائم كلهـا وخشـاش الأرض والنمـل والبراغيث والجـراد والخيـل والبغـال والـدواب كلهـا وغـير ذلك آجالها في التسبيح، فإذا انقضـى تسـبيحها قبض اللـه

(1) رواه أحمد والنسائي۔

(2) رواه أبو نعيم في الحلية وابن مردويه.

(3) رواه أبو نعيم في الحلية وابن مردويه.

(4) رواه ابن عساكر.

أرواحها، وليس إلى ملك الموت منها شيء)(1)

* * *

واستشعار المؤمن لتسبيح الكائنات مع غفلته يشعره الحياء، ويدفعه إلى الأدب معها، ولذا أمرنا بالتأدب معها احتراما وتعظيما لتسبيحها، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(لا تضربوا وجوه الدواب، فإن كل شيء يسبح بحمده)(2)

ونهى عن اتخاذ البهائم كراسي، فقد مر ﷺ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم:(اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله منه)(3)

وقد قال بعضهم مصورا هذا:(ما أحد سب شيئا من الدنيا دابة ولا غيرها، ويقول: خزاك الله أو لعنك الله إلا قالت: بل أخزى الله تعالى أعصانا لله تعالى)

ولهذا نهي عن الذبح من غير ذكر لاسم الله، قال تعالى: وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (الأنعام:121)

---

1) رواه العقيلي في الضعفاء وأبو الشيخ والديلمي.

2) رواه أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه.

3) رواه أحمد.

وكأننا بذكر اسم الله عنـد ذبح الحيـوان نعتـذر لـه، أو نخبره بأننا إنما نفعل ذلك لإذن الله لنا، وإلا فهو أكــرم من أن نسلبه حياته للإبقاء على حياتنا.

ولعل الحيوان، وهو يسمع ذكر الله عنـد ذبحـه يشـعر بأنس عظيم، بل يشعر بما يشعر به الشـهيد، وهـو يقـرب روحه لله.

ومن هذا الباب أيضا ما ورد في السـنة من النهي عن قتل بعض الحيوانات، وتعليل ذلك بتسبيحها لله، فقــد نهى ﷺ عن قتل الضفدع، وعلل ذلك بقوله:(نعيقها تسبيح)(1)

ولعــل تخصـيص الضــفدع وبعض الحيوانــات بكونهــا مسبحة مع ورود النصوص الكثيرة الدالة على تسـبيح كـل شيء هو مبالغة الضفدع ونحوها وإكثارها من ذكر الله.

وقـد ورد في الدلالـة على ذلـك بعض الآثـار منهـا مـا روي عن أنس قــال: ظن داود عليــه السـلام أن أحــدا لم يمدح خالقه أفضل مما مدحه، وأن ملكـا نـزل وهـو قاعـد في المحراب والبركة إلى جانبـه فقـال: يـا داود افهم إلى ما تصـوت بـه الضـفدع، فأنصـت داود عليـه السـلام فـإذا الضفدع يمدحه بمدحـة لم يمدحـه بهـا داود عليـه السـلام فقال له الملك: كيف تراه يا داود؟ قال: أفهمت ما قالت؟ قال: نعم. قال: ماذا قالت؟ قال: قالت: سبحانك وبحمدك منهـتى علملـك يـا رب. قـال داود عليـه السـلام: والـذي

1) رواه النسائي وأبو الشيخ وابن مردويه.

جعلني نبيه، إني لم أمدحه بهذا(2).

ومثل هذا ما حدث به شهر قال: كان داود ﵇ يسمى النواح في كتاب الله عز وجل، وأنه انطلق حتى أتى البحر، فقال: أيها البحر، إني هارب. قال: من الطالب الذي لا ينأى طلبه، قال: فاجعلني قطرة من مائك، أو دابة مما فيك، أو تربة من تربتك، أو صخرة من صخرك. قال: أيها العبد الهارب الفار من الطالب الذي لا ينأى طلبه، ارجع من حيث جئت، فإنه ليس مني شيء إلا بارز، ينظر الله عز وجل إليه قد أحصاه وعده عدا فلست أستطيع ذلك.

ثم انطلق حتى أتى الجبل، فقال: أيها الجبل، اجعلني حجرا من حجارتك أو تربة من تربتك أو صخرة من صخرك أو شيئا مما في جوفك، فقال: أيها العبد الهارب الفار من الطالب الذي لا ينأى طلبه، إنه ليس مني شيء إلا يراه الله وينظر إليه وقد أحصاه وعده عدا، فلست أستطيع ذلك.

ثم انطلق حتى أتى على الأرض يعني الرمل فقال: أيها الرمل، اجعلني تربة من تربك أو صخرة من صخرك أو شيئا مما في جوفك. فأوحى الله إليه أجبه. فقال: أيها

2) رواه ابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان، وهذا النص ينبغي فهمه ـ كما يفهم عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ على معنى التربية والتأديب لا على أن الضفدع أو غيره أعرف بالله وأكثر ذكرا له من أنبيائه ، فرتبة النبوة لا تدانيها رتبة.

ومن هذا الباب أيضا ما روى البيهقي في شعب الإيمان، عن صدقة بن يسار قال: كان داود ﵇ في محرابه، فأبصر درة صغيرة ففكر في خلقها وقال: ما يعبأ الله بخلق هذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسك؟ لأنا على قدر ما آتاني الله، أذكر لله وأشكر له منك، على ما آتاك الله.

العبد الفار من الطالب الذي لا ينأى طلبه، ارجـع من حيث جئت فاجعل عملك لقسمين: لرغبة أو لرهبة، فعلى أيهمـا أخذك ربك لم تبال.

وخـرج فـأتى البحـر في سـاعة، فصـلى فيـه، فنادتـه ضفدعة فقالت: يا داود، إنك حدثت نفسك أنك قد سبحت في ساعة ليس يـذكر اللـه فيهـا غـيرك، وإني في سـبعين ألـف ضـفدعة كلهـا قائمـة على رجـل تسـبح اللـه تعـالى وتقدسه(1).

ومثل هذا ما روي عن ابن عباس قال: صلى داود ﵇ ليلة حتى أصبح، فلما أن أصبح نادته ضفدعة: يا داود، كنت أدأب منك قد أغفيت إغفاءة (2).

* * *

أما الكيفية التي تسبح بهـا الكائنـات، ومـا تقولـه في تسبيحها، فهي من علم اللـه الـذي قـد يطلـع بعض خلقـه على أسراره:

ومن ذلك ما ذكره ابن عباس من قوله:(الزرع يسبح بحمده، وأجره لصاحبه، والثوب يسبح. ويقول الوسـخ: إن كنت مؤمنا فاغسلني إذا)(3)

1) رواه أحمد في الزهد وأبو الشيخ.

2) رواه أحمد وأبو الشيخ.

3) رواه أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه.

وعن أبي صـالح قـال:(ذكـر لنـا أن صـرير البـاب تسبيحه)(1)

وعن أبي غـالب الشـيباني، قـال:(صـوت البحـر تسبيحه، وأمواجه صلاته)(2)

عن أبي جعفر قال:(تدرون ما تقـول العصـافير قبـل طلوع الفجر تسبح ربها وتسأل قوت يومها)

وعن عبد الحميد بن يوسف قـال:(تسـبيح الضـفادع: (سبحان المعبود بكل مكان، سبحان المحمود بكل مكان، سبحان المذكور بكل لسان)

***

وهذا التسبيح والعبودية التي تمارسها الكائنـات بحب وشغف يكشف الله بعض وجوههـا وأسـرارها لمن شـفت سرائرهم، وتطهرت قلوبهم، لتكون أنيسا لهم في ذكرهم.

ولا غرابة عقلية في هذا، فإن كل من توجه وجهة فتح له في تلك الوجهة، كالمرآة ينعكس فيها ما يقابلها.

فالموجـه للتجـارة يفتح لـه فيهـا بحسـب توجهـه، والمتوجـه للعلـوم الماديـة يفتح لـه فيهـا بحسـب جـده وانشـغاله بهـا، والمتوجـه لعـوالم الـروح بالمكابـدات والتـأملات ينفتح لـه من نوافـذ هـذا العـوالم مـا يـرى بـه العجائب.

1) ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والخطيب.

2) رواه ابن أبي حاتم.

ولا يحـق لمن لم يـرزق مثـل هـذا أن ينكـر على من رزقـه، وإلا كـان ظالمـا، ولهـذا يجيب الصـالحون على من ينكر عليهم قائلين:(سر سيرنا ترى ما رأينا)

وقد سئل الغزالي أسئلة أجـاب عن بعضـها، وسـكت عن أخـرى، قـائلا لسـائله:(اعلم أن بعض مسـائلك الـتي سألتني عنها لا يسـتقيم جوابهـا بالكتابـة والقـول، إن تبلـغ تلك الحالة تعـرف مـا هي! وإلا فعلمهـا من المسـتحيلات؛ لأنها ذوقية، وكل ما يكون ذوقيا، لا يستقيم وصفه بالقول، كحلاوة الحلو، ومرارة المر، لا تعرف إلا بالذوق)(1)

والسـر الـذي تنفتح بـه كـوة التعـرف على تسـبيح الكائنات وعبوديتها هـو الطهـارة، فـالعين المكتحلـة بإثمـد الخطيئة لا تستطيع رؤية أنوار الإيمـان السـاطعة، والقلب المغلف بأوزار المعاصي لا يبصر حقائق نفسه، ولا حقـائق الكون.

ولهذا يشترط الربانيون الطهارة ــ بمعناهـا الشـامل ـ للتحقـق بمثـل هـذه المنـازل، قـال المنـاوي:(وذلـك لأن الأرواح ذات طهـارة ونزاهـة ولهـا سـمع وبصـر وبصـرها متصل ببصر العين، ولها سطوع في الجـو تجـول وتحـول، ثم تصعد إلى مقامهـا الـذي منـه بـدأت فـإذا تخلصـت من شـغل النفس أدركت من أمـر اللـه مـا يعجـز عنـه البشـر فهماً، ولولا شغلها رأت العجائب. لكنها تدنست بما تلبست فتوسـخت بمـا تقمصـت من ثيـاب اللـذات وتكـدرت بمـا تشربت من كأس حب الخطيئات)

---

1) رسالة أيها الولد المحب، الغزالي.

وهذا التحقق يكون بالسير إلى الله، وقد قال الغزالي لتلميذه المحب:(بالله إن تسر تر العجائب في كل منزل)

انطلاقا من هذا اتفق الربانيون من هذه الأمة على أن في طاقــة الإنســان أن يســمع تســبيح الكائنــات، بــل في طاقتــه أن يــرى ســجودها وقنوتهــا إذا تــوفرت الشــروط وانتفت الموانع.

وأخطر الموانع هي الغفلة، فقد قال بعضهم:(لولا مــا غمي عليكم من تسبيح ما معكم في البيوت مــا تقــاررتم) (1)

يقول سيد قطب عن تأثير الشفافية الروحية في هـذا النــوع من الإدراك:(وإن الكــون ليبــدو في هــذا المشــهد الخاشع متجها كله إلى خالقه، مسبحا بحمده، قائما بصلاته ؛ وإنــه لكــذلك في فطرتــه، وفي طاعتــه لمشــيئة خالقــه الممثلة في نواميسه. وإن الإنسان ليــدرك - حين يشــف - هذا المشهد ممثلا في حسه كأنه يراه ؛ وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله. وإنــه ليشــارك كــل كــائن في هذا الوجود صلاته ونجواه.. كذلك كان محمــد بن عبــد الله - صلاة اللــه وســلامه عليــه - إذا مشــى ســمع تســبيح الحصى تحت قدميه. وكذلك كان داود ﷺ يرتــل مزامــيره فتؤوب الجبال معه والطير)(2)

وقد ورد في النصوص الكثــيرة مــا يؤيــد هــذا القــول،

1) رواه أبو الشيخ.

2) الظلال.

وهو من أكبر الأدلة والشواهد على أن الكائنات تسبح اللـه تسبيحا حقيقيا يليق بطبيعتها.

وأول من نستشهد به في هذا الباب ما حـدث بـه ابن مسعود من قوله:(كنا أصحاب محمد ﷺ نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفا، بينما نحن مـع رسـول اللـه ﷺ ليس معنا ماء فقال لنا: (اطلبوا من معه فضل ماء)، فأتي بمـاء فوضعه في إناء ثم وضع يده فيه، فجعل المـاء يخـرج من بين أصابعه. ثم قال:(حي على الطهـور المبـارك والبركـة من الله) فشربنا منـه، قـال عبـد اللـه: كنـا نسـمع صـوت الماء وتسبيحه وهو يشرب[1].

وكانوا يسمعون تسبيح الطعام، عن ابن مسعود قال: (كنا نأكل مع النبي ﷺ فنسمع تسبيح الطعام وهو يؤكـل) [2]

ويروي أنس قـال: أتى رسـول اللـه ﷺ بطعـام ثريـد، فقال:(إن هذا الطعام يسبح) قالوا:(يا رسول الله، وتفقه تسبيحه؟ قال: نعم، ثم قال لرجل:(ادن هذه القصـعة من هذا الرجل)، فأدناها منه فقـال: نعم يـا رسـول اللـه، هـذا الطعام يسبح! فقال:(ادنها من آخر)، وأدناها منـه، فقـال: هذا الطعام يسبح. ثم قال: ردهـا فقـال رجـل: يـا رسـول الله، لو أمرت على القوم جميعا، فقال:(لا إنها لو سـكتت

1) رواه النسائي وابن مردويه.

2) رواه أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه.

عند رجل لقالوا من ذنب.. ردها فردها)(1)

بل كانوا يسمعون تسبيح الحصى، قال أبو ذر:(تناول رسول الله ﷺ سبع حصيات فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينا)(2)

ومن هذا الباب ما روي عن سماع آل البيت المطهرين ـ عليهم السلام ـ فعن أبي حمزة الثمالي قال: قال محمد بن علي بن الحسين، وسمع عصافير يصحن قال: تدري ما يقلن؟ قلت: لا. قال: يسبحن ربهن تعالى ويسألن قوت يومهن(3).

ويروي عن علي بن الحسين قال:(كنا معه فمر بنا عصافير يصحن فقال: أتدرون ما تقول هذه العصافير؟ فقلنا: لا. قال: أما أني ما أقول إنا نعلم الغيب، ولكني سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب أمير المؤمنين يقول: إن الطير إذا أصبحت سبحت ربها، وسألته قوت يومها، وإن هذه تسبح ربها، وتسأله قوت يومها (4).

ومثل هؤلاء من سار سيرهم من الصالحين، ومما

---

1) رواه أبو الشيخ.

2) رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفي رواية الطبراني:(فسمع تسبيحهن من في الحلقة)، وفيه:(ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا)

3) رواه أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية.

4) رواه الخطيب.

يروى من ذلك أنه كان بيد بعضهم سبحة يسـبح بهـا، فنـام والسـبحة في يـده، فاسـتدارت السـبحة، فـالتفت على ذراعه، وجعلت تسبح فاسـتيقظ والسـبحة تـدور في يـده، وإذا هي تقول:(سبحانك يا منبت البنان ويا دائم الشأن)

ويروى عن آخر أنه كان إذا دخل بيتـه فسـبح سـبحت معه آنية بيته (1).

ويذكر النورسي أن أربع قطط كـانت تلازمـه، وكـانت تقول في هريرها:(يا رحيم يا رحيم يا رحيم..)(2)

ويحدث آخـر عن أبيـه قـال:(كـان أبي إذا جـاء الليـل دخل البحر يسبح، فتجتمع إليه حيتان البحر يسبحون معه)

وبمثل هذا روي عن يونس عليه السلام أنه لما التقمه الحوت، فتصـدى بـه إلى الأرض سـمعها تسـبح فقـال:(أرى ربي يسبح بكل مكان) فقال: ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُـبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)(الانبياء: 87)

***

وقد يكون سماع تسـبيح الكائنـات وعبوديتهـا طريقـا

---

1) رواه أبو الشيخ.

2) وقد ذكر النورسي بعض بركات هذه القطط، فقال:(كانت لي حصة من الغذاء كل يوم ـ كما يعلم أحبائي القريبون ـ قبل سنتين أو ثلاث وهي نصف رغيف، وكان رغيف تلك القرية صغيراً، وكثيراً ما كان لا يكفيني.. ثم جاءني أربـع قطـط ضـيوفاً، وقـد كفـاني ذلك الغذاء وكفاهم. بل غالباً كانت تبقى منه فضلة وزيادة.

هذه الحالة قد تكررت عندي بحيث أعطتني قناعة تامة من أنني أنا الذي كنت اسـتفيد من بركات تلك القطط! وأنا اعلن اعلانـاً قاطعـاً الان ان تلـك القطـط مـا كـانت حملاً ولا عبئـاً عليّ ولم تكن تبقى تحت منـتي، وانمـا انـا الـذي كنت ابقى تحت منّتهـا) انظـر: المكتوب الحادي والعشرون.

لجذبة ربانية، أو ليقظة روحية ترفع حجاب الغفلة كما يحدث هذا الصالح، فقد قال: بت ليلة في بعض أسواق القرى، فإذا فتى عليه سيما الصالحين، وكان كثيرا ما ينتبه من الليل، فيرفع صوته فيقول:(لا إله إلا الله) حتى أصبحنا، فلما أصبحنا أنست به وسألته عن فعله ذلك، فقال:(كنت أرعى غنما لأبوي فبت ذات ليلة في موضع، وهي معي، فانتبهت على أصواتها وهي رافعة رأسها إلى السماء وهي تقول:(لا إله إلا الله) فقلت معها:(لا إله إلا الله) فلما رجعت إلى القرية رددت الغنم على أصحابها، وأقبلت على الخير وحبب إلي)

ومثل ذلك، سئل بعضهم عن بدء زهده، فقال: كنت يوما مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعا بضرب العود والطنبور، فقمت في بعض الليل، فضربت بصوت يقال له راشين السحر، وأراد سنان يغني، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان - يعني العود الذي بيده – ويقول:﴿ أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَـزَلَ مِنَ الْحَـقِّ﴾(الحديد: 16) قلت: بلى والله! وكسرت العود، وصرفت من كان عندي، فكان هذا أول زهدي وتشميري.

ولهذا كانوا الصالحون يجمعون مع تسبيحهم لله تسبيح الكائنات ليتقربوا بالجميع إلى الله، قال أحدهم:(تباركت يا رب العالمين، يسبحك الليل والنهار، ويسبحك الثلج، ويسبحك الرعد، ويسبحك المطر، ويسبحك الندى،

وتسبح لك السماء، وتسبح لك الأرض، وتسـبحك النجـوم، وتسـبحك جنـودك كلهم، تبـاركت أسـماؤك المباركـة المقدسة الـتي لـك بهن نسـبح ونقـدس ونهلـل، لا إلـه إلا أنت)

* * *

أما عن لغة التسبيح ـ التي قد تسـتهوي المجـادلين ـ وقـد يسـتهزئون إن سـمعوا الصـالحين يـرددون أبياتـا عن تسـبيح الكائنـات، ويقولـون:(مـا علم هـؤلاء بـالعروض والقوافي)

فـالجواب عليـه بـأن لغـة الـروح المدركـة للتسـبيح واحـدة، لكن التعبـير عن هـذه اللغـة يختلـف بـاختلاف الألسن.

والله تعالى أخبر عن أقوال أنبيائه وغيرهم ـ مع عـدم عربيتهم ـ بتلك البلاغة المعجزة، بل عبر عن القول الواحد بصيغ مختلفة، وكان الكـل كلامهم من حيث الحقيقـة، وإن لم يكن عين كلامهم من حيث اللفظ، فاللفظ مجرد مطية للمعاني.

وهكذا تسبيح الكائنات، أو كلامها، فلا نتصور أن النملة أو الطير ينطق ما ننطق به من حروف، فجهـازه الصـوتي مختلف عن أجهزتنا، ولكن الجهاز الروحي واحـد، وهـو مـا يجعله يفهمنا، وما يجعلنا نفهمه.

أمـا تحقيـق هـذا الكلام، فلا يمكن إلا بمعرفـة سـر الروح، أو إدراك كنه جهاز الروح، والـروح لا يمكن إدراكهـا

بأجهزة الحس، وإلا كنا كبني إسرائيل الذين قالوا لموسى ﵇: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (البقرة: 55)

ومن هذا المنطلق تتجاوب روح المؤمن مع نغمات الكون وتسبيحاته، فيسمعها وتسمعه، وينتشر من سماعهما من الفرح والسرور ما يقصر عنه فرح المتنزهين في البساتين الناظرين للقشور الغافلين عن الأرواح.

وقد كان الإمام النورسي ـ بفعل ما مر به من عزلة إجبارية ـ فقيها بأسرار تسبيحات الكائنات، وهو يدعونا إلى التجاوب معه في ذلك، يقول مقارنا بين النظرة الإيمانية للكون، ونظرة الإلحاد والغفلة:(ارفع رأسك يا أخي، وألق نظرة في الكائنات، وحاورها، أما كانت موحشة في طريقنا الاولى والآن تبتسم وتنشر البشر والسرور؟ ألا ترى أن عيوننا قد أصبحت كالنحلة تطير الى كل جهة في بستان هذا الكون، وقد تفتحت فيه الازهار في كل مكان، وتمنح الرحيق الطهور. ففي كل ناحية انس وسلوان، وفي كل زاوية محبة ووئام.. فهي ترتشف تلك الهدايا الطيبة، وتقطّر شهد الشهادة، عسلاً على عسل)[1]

حتى ما نراه مما قد نتوهم قبحه، ونخاف من أذاه ليس إلا ترنيمة من ترانيم تسابيح الكون، يقول النورسي: (فلا تخيفنكم نعرات الزلازل وصيحات الحوادث، فهي ترنمات الاذكار ونغمات التسبيحات، وتهاليل التضرعات)

---

1) الكلمة الثالثة والثلاثون.

(1)

وفي تعبير آخر جميل يصف النورسي بعض الأصـوات التي تتلقفها أذن الإيمـان بقولـه:(لنـدع عيوننـا لتخلـد الى شئ من الراحة، ونسلّم آذاننا للايمان بدلاً منهـا، ولنسـتمع من الدنيا الى نغمات لذيذة.. فالاصوات التي كانت تتعـالى في طريقنـا السـابقة [طريـق الإلحـاد والغفلـة] وظنناهـا اصوات مآتم عامة ونعيات الموت.. هي أصوات أذكـار في هذه الطريق وتسابيح وحمد وشكر)(2)

فكل ما نراه من حركات، وكل ما نسمعه من أصوات صـدى من أصـداء تسـبيح الكـون للـه (فترنمـات الريـاح ورعدات الرعود ونغمات الامواج.. تسبيحات سامية جليلـة وهزجات الامطار وسجعات الاطيار.. تهاليل رحمة وعناية) (3)

والقلب الواعي المؤمن تكـون لـه الأذن الـتي تتلقـف مثل هذه المعاني الرقيقة، التي يعبر عنها اللسان بمختلف لهجاته ولغاته.

يقـول النورسـي:(وهكـذا تنطـق الكائنـات كلهـا معـاً وتقول: أيها الانسان الغافل لا تحسـبنا جامـدات! فـالطيور تنطق، في تذوق نعمةٍ، أو نزول رحمـةٍ فـتزقزق باصـوات

---

1) الكلمة الثالثة والثلاثون.

2) الكلمة الثالثة والثلاثون.

3) الكلمة الثالثة والثلاثون.

عذبة، بافواه دقيقة ترحاباً بـنزول الرحمـة المهـداة. حقـاً النعمة تنزل عليها، والشكر يديمها، وهي تقول رمزاً: ايتهـا الكائنات! يـا اخـوتي! مـا اطيب حالنـا! ألا نُـربّى بالشـفقة والرأفة.. نحن راضون عما نحن عليه من احـوال.. وهكـذا تبث اناشيدها بمناقيرها الدقيقة، حتى تحول الكائنات كلهـا الى موسيقى رفيعة)

قد يقال ـ بعد هذا ـ فالتسبيح إذن ليس تسبيح مقـال، وهو على ماذكر من تسبيح الدلالة.

وقائـل هـذا لا يعـرف الفـرق بين المقـال والدلالـة، فالدلالة لا تحتاج إلى الوعي، بينما المقال يحتاجه، بـل هـو ركنه الأساسي.

والمقال لا يستدعي نطقـا بحـروف وأصـوات معينـة، وقد أخبر تعالى عن علمه بمـا تقولـه الأفـواه، ومـا تقولـه الألسن، قال تعالى:﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِـرُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ﴾ (البقرة:284)

بل عبر عن ما يجول في الخواطر بأنه قول يمكن أن يؤاخذ عليه، قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِـيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَـاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَـا لَمْ يُحَيِّكَ بِـهِ اللَّهُ وَيَقُولُـونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْـلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (المجادلة:8)

وقد يقال هنا، فكيف نسمع الصـامت، وهـل يمكن أن

نستدل على معاني الخواطر من غير تعبيرات الألسن؟

والجــواب مــا ذكرنــاه من قــدرة آذان الــروح على استشفاف معاني الصمت الخاشـع، وقـد قـال النورسـي: (إن نور الايمـان هـو الـذي يسـمع أصـداء الاذكـار وانغـام التسابيح، حيث لا مصادفة ولا اتفاقية عشواء)[1]

4 ـ الدعاء:

من عبادات الكون التي ورد النص عليها في النصوص المقدسـة (الـدعاء).. والـدعاء هـو مخ العبـادة.. ولا يمكن صدوره إلا من ذات واعية تعي حاجتها، وتعرف من تتوجـه إليه بطلب هذه الحاجة.

وقد ورد في النصوص ما يشـير إلى أن الكائنـات قـد منحت من الوعي بالواقع وما يرتبـط بـه من مرضـاة اللـه وسخطه حـتى صـارت كالملائكـة تـدعو للصـالحين وتلعن غيره.

وممــا ورد من ذلــك مــا ورد في أحــاديث كثـيرة من استغفار الأشـياء لطـالب العلم، فعن قبيصـة بن المخـارق قال:(أتيت رسول الله ﷺ فقـال لي:(يـا قبيصـة مـا جـاء بك) قلت:(كبرت سني ورق عظمي، فأتيتك لتعلمـني مـا ينفعني الله تعالى به) قال:(يا قبيصة، ما مررت بحجـر ولا شجر ولا مدر إلا استغفر لك، يا قبيصـة إذا صـليت الفجـر، فقل ثلاثا: سبحان الله العظيم وبحمـده تعـافى من العمى والجـذام والفـالج، يـا قبيصـة قـل: اللهم إني أسـألك ممـا

---

1) الكلمة الثالثة والثلاثون.

عندك وأفض علي من فضلك وانشر علي رحمتك وأنزل علي من بركاتك)(1)

ومنها قوله ﷺ:(إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير)(2)

ومنها قوله ﷺ: (من قال إذا ركب دابة: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء، سبحانه ليس له سميّ، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعليه وسلم، قالت الدابة: بارك الله عليك من مؤمن خففتَ عن ظهري، وأطعتَ ربك، وأحسنتَ إلى نفسك، بارك الله في سفرك، وأنجح مقصدك (3).

ومن هذا الباب ما روي أن سليمان عليه السلام خرج يستسقي، فمر على نملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول:(اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإن لم تسقنا وترزقنا تهلكنا) فقال سليمان:(ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم)

ومنه ما روي أن بعضهم مر على أبي ذر وهو قائم

---

1) رواه أحمد.

2) رواه الترمذي.

3) رواه الطبراني.

عند فرس له، فسأله: ما تعـالج من فرسـك هـذا؟ فقـال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته، قال: ومـا دعاء البهيمة من البهائم قال: والـذي نفسـي بيـده مـا من فرس إلا وهـو يـدعو كـل سـحر فيقـو: اللهم أنت خولتـني عبـدا من عبـادك وجعلت رزقي بيـده فـاجعلني أحب إليـه من أهله وماله وولده.

ولهـذا كلـه ورد في الحـديث عن النـبي ﷺ أنـه قـال: (مهلًا عن اللـه مهلًا، فإنـه لـولا شـباب خُشَّـع، وبهـائم رُتَّع، وشيوخ رُكَّع، وأطفال رضَّع، لصب عليكم العذاب صبًّا)(1)

وعلى عكس هذا ما روي من دعاء هذه الكائنات على من أساء إليهـا، ومن هـذا البـاب مـا ورد في الحـديث من قوله ﷺ:(كان فيمن كان قبلكم رجل يـأتي وكْـرَ طـائر، إذا أفرخ يأخذ فرخيه، فشكا ذلك الطائر إلى الله عز وجل مـا يصنع ذلك الرجل به، فأوحى الله عز وجل إليه: إن هو عاد فسأهلكه، فلما أفرخ خرج ذلـك الرجـل كمـا كـان يخـرج، وأخـذ سُـلمًا، فلمـا كـان في طريـق القريـة لقيـه سـائل فأعطاه رغيفًا من زاده، ثم مضـى حـتى أتى ذلـك الـوكر، فوضع سلمه، ثم صعد فأخـذ الفـرخين وأبواهمـا ينظـران، فقالا: يا رب إنك وعدتنا أن تهلكه إن عاد، وقد عاد فأخذها فلم تهلكـه، قـال: فـأوحى اللـه إليهمـا، ولم تعلمـا أني لا أغلب أحـدًا تصـدَّق في يـوم –بصـدقة ذلـك اليـوم- بميتـة سوء)(2)

---

1) رواه البيهقي في سننه، وأبو يعلى في مسنده.

2) أخرجه ابن النجار في تاريخه.

ومن هذا الباب مـا روى من التـأثير الـدنيوي للإسـاءة الحيـوان، فقـد روي أن رجلا ذبح عجلا لـه بين يـدي أمـه، فخبل، فبينما هو تحت شـجرة فيهـا وكـر فيـه فـرخ فوقـع الفـرخ إلى الأرض فرحمـه، فأعـاده في مكانـه، فـرد اللـه عليه قوته.

وهذا يتفق مع ما ورد عن نهيه ﷺ أن تولـه والـدة عن ولدها وهو ـ كما ذكر العلماء ـ عام في بني آدم وغيرهم.

ومن هذا الباب ما رواه الدينوري في (المجالسة): أن قومًا كانوا في سفر، فكان فيهم رجل يمرُّ الطائرُ فيقـول: تدرون ما تقول هذه؟ فيقولون: لا، قـال: فأتينـا على قـوم فيهم ظعينة على جمل لها وهـو يرغـو ويحنـو عنقـه إليهـا، قال: أتدرون ما يقول هذا البعير؟ قلنا: لا. قال: فإنــه يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مِخْيَط فهو مؤثر في سنامه. قال: فانتهينا إليهم فقلنا: يا هؤلاء إن صاحبنا هذا يـزعم أن هذا البعير يلعن راكبته، ويزعم أنها رحلته على مخيط وأنه في سنامه، قال: فأناخوا البعير، فحطوا عنه، فإذا هو كمــا قال)

ولهـذا كـان الصـالحون يستشـعرون خطـر الإسـاءة للحيوان من هذا الجانب، وقـد روي عن بعضـهم أنـه قـال لبعير له عند الموت: (يا أيها البعير لا تخاصمني عنـد ربـك، فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك)

وعن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسـول اللـه ﷺ لى خلفه ذات يوم..فدخل حائطا لرجـل من الأنصـار فـإذا فيـه جمـل فلمـا رأى النـبي ﷺ حنّ وذرفت عينـاه، فأتـاه

رسول الله ﷺ فمسح ذفراه فسكت، فقال: (من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟) فجاء فـتى من الأنصـار فقـال: لي يا رسول الله، فقال: (أفلا تتقي الله في هـذه البهيمـة التي ملكك الله إياها، فإنه شكى إليّ أنك تجيعه وتدئبه)(1)

1) رواه أحمد وأبو داود.

ثالثا ـ الكون المسخر

الكون ـ في النصوص المقدسة، وكما يفهمه المـؤمن ـ كون مسخر في خدمة الإنسان، يستجيب لجميع مطالبه، ليحقق له الأمن بجميع أشكاله، ويـوفر لـه القـوت بجميـع أنواعه، بل يضم إلى ذلك رعاية جوانبـه النفسـية، فيملأهـا بالحيوية والجمال.

وهـذه الرؤيـة هي الرؤيـة الوحيـدة الـتي يتفـق فيهـا المؤمن مع غيره، وهي رؤيـة مشـتركة من حيث الظـاهر، فالكل يتمتع بخيرات الكـون، ويسـتغلها، ويستسـخرها في مصالحه، معتبرا مصالحه أعلى من مصالحها.

لكن النصـوص المقدسـة تمـيز نظـرة المـؤمن عن نظرات غيره تمييزا كليا، فتكسبها طابعا روحيا مؤدبـا غـير موغل في البهيمية(1) ولا مفرط في الأنانية.

وسـنذكر هنـا بعض خصـائص الكـون المسـخر، كمـا وردت في النصوص، وهي من السمو والرفعـة مـا تجعـل المـؤمن يتعامـل مـع الكـون بإحسـاس مرهـف، عميـق المشاعر.

وهذا الحس النبيل هو الوحيد الذي نعيش فيه السـلام مع الكون، ويعيش فيه الكون السلام معنا.

وسنكتفي بأربع خصائص كـبرى تكـاد كـل الخصـائص الأخرى تؤول إليها:

---

1) يحسب التعبير الغالب، لا بحسب الحقيقة كما قدمنا.

أما أولها، فالربانية، وهي خاصبة أساسية، فهذا الكون الذي سخر لنا لم يسخر لنا من ذاتـه، وإنمـا سـخر لنـا من الله، فلذلك هو ينتسب إلى الله قبـل أن ينتسـب إلينـا، أو هو يطيع الله في طاعته لنا.

وهـذه النظـرة ترفـع عنـا الكبريـاء الـتي تجعلنـا نهين الكون من حيث لا نشـعر، فنسـتكبر عليـه، أو نطالبـه بمـا نريد وكأننا أربابه.

وأما الثانية، فالسلام، فالكون خلقه الله مسالما لنا، لا مصـارعا لنـا، ومن الخطـأ الـذي يتسـرب من غيـاب هـذه النظـرة التعامـل مـع الكـون تعامـل المحـاربين لا تعامـل الأصدقاء.

وأما الثالثة، فالحكمـة، وهي أن هـذا الكـون بمـا فيـه خلق لحكم جليلة، ومن الأدب مع الله أن نراعي مـا خلـق له، فنستعمله فيما خلق له.

وأما الرابعة، فالطهارة، فهذا الكـون الـذي سـخر لنـا خلق على الفطرة الأصلية، وهي فطـرة طـاهرة سـليمة.. ومن العبث بخلـق اللـه والاسـتهانة بـه احتقـار فطرتـه، أو تحويلها.

1 ـ الربانية:

أول خاصية من خصائص الكون ربانيته، فالكون كــون الله ملكا، وكون الله تدبيرا.

وهذان الجانبان هما اللــذان وردت النصـوص الكثـيرة للدلالة عليهما، وملء القلوب والعقول بمعانيهما.

وهذان المعنيان هما اللذان ينشأ عنهمـا الأدب الرفيـع مع الكون، فالذي يشعر بأن ما يتصور أنه يملكه ملك للــه، وأنه مجرد عارية له، يستحيي من الله أن يسـيئ إليـه في ملكه.

والذي يرى أن ما يحدث في الكون من أحـوال تـدبير من تدبير الله يستحيي أن يعارض الله في تدبيره.

الملكية:

 لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (النساء: 170) هي اللازمة القرآنيـة الـتي تـتردد كـل حين، لتـبين ملكيـة اللـه المطلقة لكل ما نراه وما لا نراه من الأشياء.

وليس الغرض من هـذا التكريـر تقريـر هـذه الحقيقـة فقط، والتي تدل عليها كل الدلائل، بل الغرض منها التنبيه في كــل مناسـبة تـدب فيهـا الغفلـة إلى أن اللــه مالــك السـموات والأرض ومــا فيهن. قــال تعــالى: لِلَّهِ مُلْـكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا فِيهِنَّ وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (المائدة:120)

أو في كل مناسبة تستدعي التعرف على عظمة الله، أو التصديق بوعده ووعيده، كما قـال تعـالى: أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْــدَ اللَّهِ حَــقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَــرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (يونس:55)

أوفي كل مناسبة تسـتدعي التعـرف على مصـنوعات الله المستدرة للحمد، قال تعـالى: الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَـقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَـاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (الأنعام:1)

أو في كل مناسبة تستدعي تبيان قدرة الله المطلقة، قال تعالى: أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) (الدخان)

أو في كل مناسبة تستدعي تذكير النفس بالله وبأوصاف الله وبأفعال الله، قال تعالى: قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (الأنعام:12)

والقرآن الكريم يخبر في المناسبات المختلفة عن ملكية الله للأشياء، ويرتب عليها ما يقتضيه اعتقاد هذه الملكية:

فيرتب عليها تفرد الله تعالى بالولاية والنصرة، قال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (البقرة:107)، وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (التوبة:116)

ويرتب عليها تفرد الله بالثواب والعقاب، قال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (المائدة:40)

ويرتب عليها استحقاقه وحده للحمد، قال تعالى: وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي

الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (الاسراء: 111)

ويرتب عليها أنه وحده الذي يجير ولا يجار عليها، قال تعالى: قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (المؤمنون:88) لأن الإجارة لا تكون إلا لمالك قادر.

ولهذا كان من أسماء الله تعالى الملك والمالك، وهذا الاسم لا يعني بأي وجه من الوجوه ما نفهمه من الملكية التي ندعي حصولها لنا في بعض الأشياء، فهي ملكية مجازية اعتبارية يحيط بها القصور من كل النواحي بخلاف ملكية الله تعالى.

فالملك ـ كما يقول الغزالي ـ هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، ويحتاج إليه كل موجود، بل لا يستغني عنه شيء في شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في وجوده ولا في بقائه، بل كل شيء فوجوده منه أو مما هو منه، فكل شيء سواه هو له مملوك في ذاته وصفاته وهو مستغن عن كل شيء[1].

والملك بهذا الوصف لا يكون إلا لله، أما العبد فلا يتصور أن يكون ملكا مهما اتسعت أملاكه وقوي نفوذه.

فهو (لا يستغني عن كل شيء، فإنه أبدا فقير إلى الله تعالى، وإن استغنى عمن سواه، ولا يتصور أن يحتاج إليه كل شيء بل يستغني عنه أكثر الموجودات، ولكن لما

---

1) المقصد الأسنى: 67.

تصور أن يستغني عن بعض الأشياء ولا يستغني عنه بعض الأشياء كان له شوب من الملك)[1]

وقد أشار بعض العارفين لما قال له بعض الأمراء: (سلني حاجتك)، فأجابه العارف:(أوتقول لي هذا ولي عبدان هما سيداك) فقال:(ومن هما؟) قال:(الحرص والهوى، فقد غلبتهما وغلباك وملكتهما وملكاك) إلى أن الملك الذي يزعم لنفسه ملكية الخلق لا يملك حتى نفسه.

وبذلك يكون شعور المؤمن بملكية الله لكل الأشياء هو المنطلق للتعرف عليه من خلالها، ثم لتسخيرها وفق إرادة الله.

ولهذا يتفق الأنبياء على تذكير أقوامهم بهذه الحقيقية، وقد أخبر القرآن الكريم أن فرعون لما سأل موسى عن حقيقة الله طالبا التعرف على الماهية قائلا: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ أجابه موسى ﵇ ببيان ملكية الله لجميع الأشياء، فقال: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (الشعراء: 24)

وكأن موسى ﵇ يرد بهذه الإجابة على كل الأسس التي يقوم عليها تصور فرعون لألوهيته، وهو ما عبر عنه ذات يوم بقوله: يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (الزخرف: 51)

وبذلك يكون التعرف على ملكية الله للأشياء هو

---

1) المقصد الأسنى: 67.

أساس الشعور بالعبودية التي تقتضي تناول الأشياء من يد الله، وهو ما يرفـع الإنسـان إلى آفـاق عليـا من الأدب مـع الكون ومع الله.

* * *

وفي ذلك الحين يتحول الكون المسخر هـدايا ربانيـة مقدمة من الله للإنسان، ليفيض قلب الإنسـان ومشـاعره بجميع أنواع الحمد.

وبسر هـذا المعـنى يرتبـط حمـد اللـه ــ كمـا ورد في الآثار ـ بالأشياء، فرسول الله ﷺ مثلا يعلمنا عندما نريد أن نلبس ثوبا أن نقول كمـا ورد في الحـديث:(من لبس ثوبـا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غـير حول مني ولا قوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه)(1)

فقد جاء التعبير النبوي معبرا على أن الله هو الكاسي وهو الـرازق، وأنـه ليس للعبـد من حـول ولا قـوة ليحقـق لنفسه هذه المصلحة.

ولهذا ورد اللباس في القرآن الكريم بصيغة الإلبــاس، كما قال تعالى: يَا بَنِي آدَمَ قَـدْ أَنزَلْنَـا عَلَيْكُمْ لِبَاسـاً يُـوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّـهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (الأعراف: 26)

والقرآن الكريم يعبر عن النعم المفاضة على العبــادة مهما اختلف نوعها بصيغة الإنـزال، ليشـير إلى أن ملكيتهـا الحقيقية لله، وأنها وافدة على العباد لا ملكا مستقرا لهم.

1) رواه أبو داود والترمذي.

قال تعالى في بيان عمومية نزول كل ما يتصور العباد ملكيته من الكـون: وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا عِنْـدَنَا خَزَائِنُـهُ وَمَـا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر:21)

ويستوي في هذا الإنزال ما يكـون حسـا أو مـا يكـون معنى:

قال تعالى عن إنزال الكائنات الحسية: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْـزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْـهُ حَرَامـاً وَحَلالاً قُـلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (يونس:59)

وخص بعض الكائنات الحسـية بالـذكر بصـفة الإنـزال لأهميتهـا، ومنهـا الأنعـام، قـال تعـالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَـلَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَأَنْـزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَـامِ ثَمَانِيَـةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُـونِ أُمَّهَـاتِكُمْ خَلْقـاً مِنْ بَعْـدِ خَلْـقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَـهُ الْمُلْـكُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ فَـأَنَّى تُصْرَفُونَ (الزمر:6)

ومنهـا إنـزال المـاء، وهـو أكثرهـا ورودا في القـرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (النحل:10)

وليس المراد بالإنزال هنا ما يتوهم من كـون المطـر نازلا من السماء فقط، وإنمـا المـراد ربطـه بملكيـة اللـه، ولهذا سبق الإنزال ذكر الضمير المنفصل العائد على اللــه تعالى.

ومن النعم الحسية المنزلة الحديد، قال تعـالى: لَقَـدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِـيزَانَ لِيَقُـومَ

النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحديد:25)

وفي المزج بين إنزال الحديد، وإنزال الكتاب والميزان، وتقديم الكتاب والميزان على الحديد إشارة إلى أن تسيير منافع الحديد مقيد بالضوابط التي يفرضها الكتاب والميزان.

ومثل إنزال ملكية الله للكائنات الحسية إنزال الله للكائنات المعنوية، ومنها السكينة والجند الرباني، قال تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (التوبة:26)، وقال تعالى: إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة:40)، وقال تعالى: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (الفتح:26)

ومن هذا الباب إنزال الملائكة والروح، كما قال تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (النحل:2)

ومنه إنزال الشعور بالأمن الذي يملأ النفس بالراحة،

ويتيح لها النوم، قال تعالى: ثُمَّ أَنْـزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْـدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ (آل عمران:154)

وبهذا يعيش المؤمن، وهـو يـرى كـل شـيء من اللـه حتى الطعام الذي يأكله، واللباس الذي يكسوه، وقـد قـال تعالى في الحديث القدسي:(يا عبـادي كلكم جـائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يـا عبـادي كلكم عـار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم)(1)

وبهذا الشـعور المعطـر بـالاعتراف بالنعمـة لمسـديها يخف غرور الإنسان، بل يتلاشى، وهو ما يجعله يتعامل مع الأشياء تعامل العبودية التي تفيض باللطف والرحمة.

وقد علمنا رسول الله ﷺ من صـيغ الـذكر مـا يغـرس هذه المعاني في نفوسنا، أو ما يحوله إلى واقع حي يرفــع أرواحنا، ويهذب سلوكنا.

فقـد كـان رسـول اللّـه ﷺ إذا أصـبح قـال:(أصـبحنا وأصـبح الملـك للـه عــز وجــل، والحمــد للــه، والكبريــاء والعظمة للـه، والخلـق والأمـر والليـل والنهـار ومـا سـكن فيهمـا للـه تعـالى، اللهم اجعـل أول هـذا النهـار صـلاحا، وأوسطه نجاحا وآخره فلاحا، يا أرحم الراحمين)(2)

وفي كون هذا الذكر في الصباح ــ الـذي يعـني بدايـة عمر اليوم ــ وهـو الحين الـذي يكـون فيـه عقـل الإنسـان

1) رواه مسلم.

2) رواه الطبراني.

فارغا مهيئا لأي فكرة، وتكون جوارحـه نشـطة مهيئـة لأي عمل، إشارة إلى أن التعرف على ملكية الله للأشـياء هـو الأساس الذي يحفظ التعامل معها ويرقيه.

وفي المسـاء يعـود التـذكير بهـذه المعـاني متصـدرا أعمال الإنسان في الشطر الثاني من يومه، فقـد كـان ﷺ يقول إذا أمسى:(أمسينا وأمسى الملك لله لا إله إلا اللــه وحده لا شـريك لـه،لـه الملـك ولـه الحمـد وهـو على كـل شيء قدير، رب أسألك خير مـا في هـذه الليلـة وخـير مـا بعدها وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر مـا بعـدها رب أعوذ بك من الكسـل ومن سـوء الكـبر أو الكفـر رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر)(1)

بل علمنا رسـول اللـه ﷺ أن نطـرد الغفلـة عن هـذه المعاني حتى في اللحظات القصـيرة الـتي ننتبـه فيهـا من الليل، قال ﷺ:(من تعار من الليل فقـال حين يسـتيقظ لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه لـه الملـك ولـه الحمـد وهـو على كل شيء قدير سـبحان اللـه والحمـد للـه ولا إلـه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم دعـا رب اغفـر لي ـ قال الوليد أو قال دعا ـ استجيب له فإن قـام فتوضـأ ثم صلى قبلت صلاته)(2)

وكـان النـبي ﷺ إذا قـام من الليـل يتهجـد يبـدأ بهـذه المعـاني لتكـون أساسـا لهبـات اللـه النازلـة على الـروح:

---

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري وغيره.

(اللهم لك الحمـد أنت قيم السـموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد لـك ملـك السـموات والأرض ومن فيهن ولـك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولـك الحمـد أنت ملــك الســموات والأرض ولــك الحمــد أنت الحــق ووعدك الحق ولقاؤك حق وقولك حق والجنـة حـق والنـار حق والنـبيون حـق ومحمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم حـق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك تــوكلت وإليك أنبت وبـك خاصـمت وإليـك حـاكمت فـاغفر لي مـا قدمت وما أخـرت ومـا أسـررت ومـا أعلنت أنت المقـدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت أو لا إله غيرك)(1)

وقد أمرنا أن ننطق بهذه الحقيقة ونجعلها شـعارا في أكبر تجمـع للمسـلمين، وفي أكـبر تظـاهرة بشـرية، فقـد كانت تلبية رسول الله ﷺ:(لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك)

وفي تخصيص ذلك التجمـع بهـذا الـذكر الجليـل تعليم للأمة أن لا تقدم أي ملـك على ملـك اللـه، ولهـذا ورد في الحـديث قولـه ﷺ:(أغيـظ رجـل على اللـه يـوم القيامـة وأخبثه وأغيظـه عليـه رجـل كـان يسـمى ملـك الأملاك، لا ملك إلا الله تعالى)(2)

وقد علمنا رسول الله ﷺ ـ بالإضافة إلى هـذه الأذكـار الوقتية ـ أن ننبه أنفسنا دائما إلى ملكيـة اللـه للأشـياء في

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

كل حين، بل دعا إلى التنافس في ذلك، فقـال:(من قـال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك ولـه الحمـد وهـو على كل شيء قـدير في يـوم مائـة مـرة كـانت لـه عـدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سـيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حـتى يمسـي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك)(1)

* * *

هذا هو أساس تعامل المؤمن مع الأشياء، أما الجاحـد فهو في تخرصـاته وكبريائـه وتيهـه عن الحـق لا يستشـعر شـيئا من اللـذة الـتي يستشـعرها المـؤمن وهـو يتنـاول الأشـياء من يـد اللـه، قـال تعـالى: أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُـرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُـونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُـونَ (يونس:66)

وقال عن الذين اتخذوا من دونه أولياء: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيَـاءَ لا يَمْلِكُـونَ لِأَنْفُسِـهِمْ نَفْعـاً وَلا ضَـرّاً قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَـيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (الرعد:16)

وهؤلاء خبطـوا وخلطـوا، فـ جَعَلُـوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُـرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ

1) رواه البخاري ومسلم.

إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (الأنعام:136)

ونتيجـــة خلطهم وخبطهم أنهم يعبـــدون الســـراب، ويدعون من لا يملك شيئا، قـال تعـالى: قُـلِ ادْعُـوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُـونَ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَـا مِنْ شِـرْكٍ وَمَـا لَـهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (سـبأ:22)

بل لو كـان بيـد هـؤلاء أي ملـك، فـإن ملكهم سـيبقى قاصرا عليهم، قال تعالى: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (النساء: 53)، وقـال تعـالى: قُـلْ لَـوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَـكْتُمْ خَشْـيَةَ الْأِنْفَـاقِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ قَتُوراً (الاسراء: 100)

وهـؤلاء الجاحـدون ــ الـذين غفلـوا عن ملكيـة اللـه للأشياء في الدنيا ـ سيدركونها يوم القيامـة، ولـذلك يجـيئ التعبير القرآني مخبرا عن ملكية الله للأشـياء في الآخـرة، وهو لا يعني عدم ملكيته لها في الدنيا، وإنما هو إخبـار عن تعرف الجاحدين والغافلين حينهـا على هـذه الملكيـة، كمـا قال تعالى: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (الفاتحة:4)

وهؤلاء الجاحدون ـ كما يخبر القرآن الكريم ــ يقـرون بهـذه الملكيـة: يَـوْمَ هُمْ بَـارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (غافر:16)

وقد صور ابن مسـعود ذلـك المشـهد بقولـه:(يحشـر النـاس على أرض بيضـاء مثـل الفضـة لم يعص اللـه جـل وعز عليها، فيؤمر مناد ينادي:(لمن الملك اليـوم)، فيقـول العبـاد مـؤمنهم وكـافرهم: (للـه الواحـد القهـار)، فيقـول

المؤمنون هذا الجـواب سـرورا وتلـذذا، ويقولـه الكـافرون غما وانقيادا وخضوعا.

ويصور سـيد قطب هـذا المشـهد الـذي تنكشـف بهـا الحقيقـة بقولـه:(ويومئـذ يتضـاءل المتكـبرون، ويـنزوي المتجبرون، ويقف الوجود كله خاشعاً، والعباد كلهم خضعاً. ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسطان. وهـو سـبحانه متفرد به في كل آن. فأمـا في هـذا اليـوم فينكشـف هـذا للعيــان، بعــد انكشــافه للجنــان. ويعلم هــذا كــل منكــر ويستشعره كـل متكـبر. وتصـمت كـل نأمـة وتسـكن كـل حركة. وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب ؛ فما في الوجود كله يومئذ من سائل غـيره ولا مجيب: لمن الملـك اليوم؟ .. لله الواحد القهار)(1)

وينفي الغزالي ما قـد يتوهمـه الغـافلون من انحصـار الملك لله في الآخـرة بقولـه:(ولا قـادر الا الملـك الجبـار، واذا انكشفت الغطـاء عن أعين الغـافلين فشـاهدوا الامـر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي لمن الملك اليـوم للـه الواحد القهار ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك على الخصوص، ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء الا ذلـك اليـوم فهـو نبـأ عمـا يتجـدد للغـافلين من كشـف الاحوال حيث لا ينفعهم الكشف)(2)

ومثل الكلام في تينك الآيتين الكلام في قوله تعـالى:

---

1) في ظلال القرآن: 5/3073.

2) الإحياء:1/324.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (الأنعام:73)، وقوله تعالى: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (الفرقان: 26)

فالملكية المخصوصة باليوم الآخر، لا تنفي ملكية الدنيا، بل هي استمرار لها، والمراد بتخصيصها هو الإخبار عن اكتشاف الجاحدين والغافلين لها، وهو اكتشاف بعد فوات الأوان، ولات ساعة مندم.

ولهذا لا يصح ما يردده المسيحيون، وينسبونه للمسيح ﷺ:(دعوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، بل الصحيح أن قيصر وما لقيصر لله ملكا وتدبيرا، وحكما وتقديرا.

التدبير:

كما أن كل شيء من الكائنات ملك لله، لا يحق التصرف فيه إلا باسم الله، فإن كل شيء مما نراه من أنواع التدبير ملك لله كذلك، فالله تعالى هو المتصرف في كل شيء المحرك لكل شيء الفاعل لكل شيء(1)، قال تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (يونس: 3)

والقرآن الكريم مليء بذكر أنواع التدبير الإلهي

---

1) انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الأقدار) من هذه السلسلة.

للأشـياء، وهـو يعرضـها بصـيغ مختلفـة ليقـرأ المـؤمن من خلال تدبير الله للأشياء صفات الكمال للـه، قـال تعـالى: قُـلْ مَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِـكُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَمَنْ يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُـدَبِّرُ الْأَمْـرَ فَسَـيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُـلْ أَفَلا تَتَّقُـونَ (يونس:31)

وهذا التدبير يشمل جميـع الأشـياء، حـتى مـا نتوهمـه مظاهر طبيعية، ناتجة عن أسـبابها الفلكيـة الحسـية، قـال تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَـخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَـهُ الْمُلْـكُ وَالَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ مَـا يَمْلِكُـونَ مِنْ قِطْمِـيرٍ (فاطر:13)

فالله تعالى هو الذي يمدنا بضوء النهار وسكينة الليل، لا حركـات الأرض، قـال تعـالى: وَجَعَلْنَـا اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَـارِ مُبْصِـرَةً لِتَبْتَغُـوا فَضْـلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَـدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَـابَ وَكُـلَّ شَـيْءٍ فَصَّـلْنَاهُ تَفْصِـيلاً (الاسراء:12)

والله هو الذي يقلب الليل والنهـار، لا مـا نتوهمـه من أسباب، قال تعالى: يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (النور:44)، وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسـاً وَالنَّوْمَ سُـبَاتاً وَجَعَـلَ النَّهَـارَ نُشُـوراً (الفرقان:47)، وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَـارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (الفرقان:62)

وليس هناك من تناقض بين الأمرين، فلا علمنا بتـدبير

الله ينفي الأسباب التي وضعها الله، ولا الأسباب تنفي تدبير الله، فالأشياء وأسبابها جميعا خلق من خلق الله.

ولهذا ورد التعبير القرآني عن تعاقب الليل والنهار بصيغة التقليب، قال تعالى:﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (النور:44) وهذا التقليب لا يبصره إلا من رفع الغشاوة التي تقصر بصره على ما يتوهمه.

وبمثل ذلك يتحدث القرآن الكريم عن جميع المظاهر التي ينسبها الجاحدون والغافلون للطبيعة، فالرياح لا تهب، وإنما ترسل.

وقد كرر تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة، قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (لأعراف:57)

فالآية ترجع الأمر لله في كل شيء، فنلاحظ هذه التعابير التي يتيه عنها الماديون: (يُرْسِلُ، سُقْنَاهُ، فَأَنْزَلْنَا، فَأَخْرَجْنَا..) وكلها تشير إلى تدبير الله للكليات والجزئيات.

وبمثل ذلك جاء تعبير (فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) بدل تعبير (فشربتم) في قوله تعالى:﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر: 22)

وبمثل ذلك جاء تعبير (فَأَحْيَيْنَا) بدل (حيت) في قوله

تعالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (فاطر: 9)

وفي مراعاة التعبير عند الحديث عما يسمى بمظاهر الطبيعة جاء قوله ﷺ حاكيا عن ربه تعالى:(قال الله تعالى ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين يقولون الكوكب وبالكوكب)(1)

والكوكب المراد هنا هو ما كان أهل الجاهلية ينسبون به الحوادث، إما باعتباره مؤثرا أو باعتباره علامة، وهو نفس ما تذهب إليه الجاهلية الحديثة حين تفسر الأشياء بعللها التي تتوهمها نافية تصريف الله تعالى وتدبيره.

ولذلك اعتبر ﷺ هذه النسب الوهمية من الجاهلية، فقال ﷺ:(أربع من أمر الجاهلية لن يدعهن الناس التعيير في الأحساب والنياحة على الميت والأنواء وأجرب بعير فأجرب مائة من أجرب البعير الأول)(2)

وأخبر ﷺ عن عدم تماسك التفسير الطبيعي المتناسي لتصريف الله بقوله ﷺ:(لو أمسك الله عز وجل المطر عن عباده خمس سنين ثم أرسله لأصبحت طائفة من الناس كافرين يقولون سقينا بنوء المجدح)(3)

---

1) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

2) رواه أحمد.

3) رواه أحمد والنسائي وابن حبان.

وقـد بين لنـا ﷺ الطريقـة الصـحيحة في التعبـير عن الحوادث الكونية بحادثة وقعت، فقد صلى ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سـماء كـانت من الليلـة، فلمـا انصـرف أقبل على الناس، فقال:(هـل تـدرون مـاذا قـال ربكم؟)، قالوا:(الله ورسوله أعلم) قال:(أصبح من عبـادي مـؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فــذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأمـا من قـال بنـوء كـذا وكـذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب)(4)

بل إن القرآن الكـريم يرشـدنا إلى نسـبة مـا نتوهمـه من أفعالنا إلى اللـه، فاللـه تعـالى ينسـب إليـه مـا يتصـور الإنسان تفرده بتصـريفه، قـال تعـالى عن عمليـة الحـرث والزرع الـتي ينسـبها كـل إنسـان إلى نفسـه: أَفَـرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُـونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَـهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُـونَ ، ومثلـه قولـه تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُـوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَـا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى (لأنفـال: 17)، فاللـه تعـالى هـو المتفـرد بالتدبير والتصريف.

وهكذا مما لا يمكن حصره في القرآن الكريم.

فالقرآن الكـريم ينبهنـا إلى الفاعـل الحقيقي حـتى لا ننحجب بعالم الحكمة عن قدرة الله، فعالم الحكمـة يرينـا الأسباب، وعالم القدرة يرينا رب الأسـباب، وكلاهمـا يـدل عليه العقل والذوق.

ولهذا كان أكبر القـوادح في التوحيـد نسـبة أحـداث الكون للكون، بل نص القرآن الكريم على كونـه شـركا،

4) رواه البخاري ومسلم.

قال تعالى:﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت:65)

قال الغزالي يبين حقيقة العلم الذي يضع الأشياء موضعها:(ومن انكشف له أمر العلم كما هو عليه علم أنّ الريح هو الهواء، والهواء لا يتحرّك بنفسه ما لم يحرّكه محرّك، وكذلك محرّكه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأوّل الذي لا محرّك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل)[1]

ولهذا بين لنا الله تعالى ما ينبغي أقواله عند ركوب الفلك:﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (هود:41) فمجرى السفينة ومرساها من الله تعالى .

وعلمنا أن نقول:﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف:13)

فالأنعام مسخرة ـ كما تنص الآية ــ وهي لذلك تسير بأمر الله، وتتحرك بتصريف الله، والعاقل هو الذي يلجأ إلى الآمر لا إلى المأمور.

***

وهذا الإدراك ليس سلبيا كما يتصور المجادلون في الله بغير علم، فيقولون، أو يقول الشيطان على ألسنتهم: (أنتم تهربون من الواقع بنسبة التدبير إلى الله)، بل

---

1) الإحياء.

يضحكون بسخرية واستهزاء إن نسب ما يتوهمونه مظاهر طبيعية للتصريف الإلهي.

ولا يمكن الحديث مـع هـؤلاء أو تبـادل الجـدال معهم، ولكنا نقول ــ بأسـلوبهم ــ إن النتـائج العمليـة النافعـة من التحقق بهذا الإدراك والشعور به لا تكاد تحصى:

ومن هـذه النتـائج السـامية: احـترام تصـريف اللـه، والشعور بالأنس حين يمتلئ القلب بنشوة النظر إلى اللـه وهو يجيب الحاجات المختلفة للكائنات، كما قـال تعـالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُـلَّ يَـوْمٍ هُـوَ فِي شَـأْنٍ﴾ (الرحمن:29)، ثم بعد هذا التطلع لما في يد الله والتضرع إليه في تحقيقه.

ومنهـا التـأدب مـع الكـون، واحترامـه فقـد وردت بهـا النصوص الكثيرة تنهى عن سب الـريح أو الناقـة أو الـدهر لأن كل ذلك من الله.

أما سب الزمان والدهر، الذي يعني تقلبات الحوادث، فقد ورد النهي عنه في أحاديث كثيرة قال ﷺ:(قـال اللـه عز وجـل يؤذيـني ابن آدم يسـب الـدهر وأنـا الـدهر بيـدي الأمر أقلب الليل والنهـار)[1]، وقـال ﷺ:(لا تسـموا العنب الكرم ولا تقولوا خيبة الدهر فإن الله هو الـدهر)[2]، وقـال ﷺ:(إن الله عز وجل قال استقرضت عبدي فلم يقرضني

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه مسلم.

وسبني عبدي ولا يدري يقول وادهراه وادهراه وأنا الـدهر) (1)

ونهى ﷺ عن سب الريح، وأخبر بأنها لا تتحرك حسب رغبتها، وإنما تتحرك بهدي الوحي الإلهي الـذي يسـير كـل شيء، فقد روي أن رجلا لعن الريح عنـد النـبي ﷺ فقـال: (لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شـيئا ليس لـه بأهل رجعت اللعنة عليه)(2)

وعلمنا ﷺ الطريقة الصحيحة في التعامل معها، فقال ﷺ:(الريح من روح الله، فروح الله تـأتي بالرحمـة وتـأتي بالعـذاب فـإذا رأيتموهـا فلا تسـبوها وسـلوا اللـه خيرهـا واستعيذوا بالله من شرها)(3)

وقد ذكر ﷺ عقوبـة من يسـب بعض هـذه الكائنـات الـتي لا تملـك من أمـر نفسـها شـيئا، وهي عـدم جـواز الانتفاع بها، فعن عائشة أنهـا ركبت جملا فلعنتـه، فقـال لها النبي ﷺ:(لا تركبيه)(4)

وفي ذلك أبلغ التحذير من التطاول على خلق الله.

بل إنه لا ينبغي احتقار حتى البعـوض الـذي قـد يؤذينـا بلسعه، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْـرِبَ مَثَلاً مَـا

---

1) رواه ابن جرير والحاكم.

2) رواه أبو داود والترمذي.

3) رواه البخاري في الأدب، وأبو داود والحاكم.

4) رواه أحمد وأبو يعلى.

بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (البقرة: 26)

بـل إن القـرآن الكـريم ينبـه الـذين يحتقـرون بيت العنكبوت أن بيوتهم أوهن، قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَـلِ الْعَنْكَبُـوتِ اتَّخَـذَتْ بَيْتـاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (العنكبوت:41)

وينبه الذين يحتقـرون الـذباب إلى مـا يشـير إليـه من نواحي ضعفهم، قـال تعـالى: يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ ضُـرِبَ مَثَـلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابـاً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الـذُّبَابُ شَـيْئاً لا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (الحج:73)

ومن نتائج هذه النظرة السـامية: الراحـة من منازعـة الأقدار اكتفاء بتقدير الله:

وهي نتيجة مهمة، فإن العالم بتصريف اللـه للكائنـات لا يحزن ما يحصل له منهـا، أو مـا يفوتـه من منافعهـا، لأن سـبب الحـزن هـو فـوات المقـدور عليـه، أمـا مـا يعتقـد اسـتحالته فـإن نفس اسـتحالته تعزيـه عن عـدم حصـوله عليه.

فلـذلك لا يخـاف مالـك على ملكـه، مـا دام اللـه هـو مـؤتي الملـك ونازعـه، فـإن أتى فبفضـل اللـه، وإن ذهب فبقدرة الله، ولن تستطيع قوة في العالم نزعـه أو تثبيتـه، قال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُـؤْتِي الْمُلْـكَ مَنْ تَشَـاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (آل عمران:26)

ولا يخـاف على رزقـه مـا دام اللـه هـو الـرازق قـال تعـالى: ﴿ قُـلْ مَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِـكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُــونَ﴾ (يونس:31)

ولا يخاف الضر، ولا يرجو النفع من غيره، قال تعـالى: ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْـتَأْخِرُونَ سَـاعَةً وَلا يَسْـتَقْدِمُونَ﴾ (يونس:49)

وهكذا في جميع شـؤون حياتـه.. قـال الغـزالي مبينـا التأثير النفسـي لهـذه المعـارف:(.. أن ينكشـف لـك أن لا فاعـل إلا اللــه تعـالى، وأن كــل موجـود من خلــق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غـير ذلـك ممـا ينطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هـو اللـه عـز وجل لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هـذا لم تنظـر إلى غيره، بل كان منه خوفك وإليـه رجـاؤك وبـه ثقتـك وعليـه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفـراد دون غـيره، ومـا سـواه مســخرون لا اســتقلال لهم بتحريــك ذرّة من ملكــوت الســموات والأرض، وإذا انفتحت لــك أبــواب المكاشــفة اتضح لك هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر)[1]

وهذه المعـارف إذا انصـبغ بهـا كيـان الإنسـان وتوحـد قلبه عند النظر للكون أو التعامل معه هـو الكفيـل الوحيـد بتحقيق الراحة والسعادة والطمأنينة.

---

1) الإحياء.

لأن مصـدر القلـق والاضـطراب هـو الشـتات الـذي يحصـل في الإنسـان نتيجـة رؤيـة الأشـياء قائمـة بـذاتها، فتتوزع في نفسـه الرغبـة منهـا أو الرهبـة، وهي متناقضـة مختلفة، فيحصل فيه من التناقض بحسبما في الأشياء من تناقض.

أما إذا رآها جميعا بيد الله، فإن قلبه يتوحد مع الله.

ومن نتائج هذه النظـرة السـامية: اللجـوء إلى اللـه لا إلى الكون، وطلب الأشياء من اللـه لا من الأشـياء، فاللـه هو المتصرف لا الأشياء.

ومن الحماقـة أن نـترك الآمـر ونتوجـه إلى المـأمور، وقد ذكر الغزالي مثالا يبين تهافت الذين ينسـبون الأشـياء إلى ما يتوهمونه، ثم يلجؤون إليه بضراعة والرجاء بقوله:(فالتفات العبـد في النجـاة إلى الـريح يضـاهي التفـات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعـاً بـالعفو عنـه وتخليتـه، فأخذ يشـتغل بـذكر الحـبر والكاغـد والقلم الـذي بـه كتب التوقيع يقـول: لـولا القلم لمـا تخلصـت، فـيرى نجاتـه من القلم لا من محرّك القلم وهو غاية الجهل)[1]

ولهذا وردت النصوص الكثيرة تدعونا إلى طلب منافع الكون من الله، ولـو كـانت هـذه المنـافع ممـا ننسـبه إلى أنفسنا أو ننسبه إلى الطبيعة.

ففي الوقت الذي يستسقي فيها الجاهلون بالأنواء، أو يقولون ما يقول قوم هود حين رأوا سـحاب العـذاب، ممـا

1) الإحياء.

قصـه علينـا اللـه تعـالى، قـال تعـالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (الاحقاف:24)

في ذلك الوقت يتوجه المؤمنون إلى الله رب المطـر ومنزله بالدعاء والعبودية، وقد وردت صـيغ رقيقـة عميقـة في الاستسقاء تبين الروح الـتي يتعامـل بهـا المـؤمن مـع الأشياء والحوادث.

منهـا مـا روي أن النـاس شـكوا إلى رسـول اللّـه ﷺ قحوطَ المطر، فأمر بمنبر فوضع لـه في المصـلى، ووعـد الناسَ يوماً يخرجون فيه، فخرج رسـول اللـه ﷺ حين بـدا حـاجب الشـمس، فقعـد على المنـبر فكـبر وحمـد اللـه عزوجل، ثم قال: (إنكم شكوتم جـدب ديـاركم، واسـتئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم اللـه سـبحانه أن تدعوه، ووعدكم أن يسـتجيب لكم)، ثم قـال: (الحمـد للـه رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الـدين، لا إلـه إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إلـه أنت الغـني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغـا إلى حين)

ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره وقلب، أو حول رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين.

وكانت نتيجة هذا الدعاء، وما اشتمل عليه من مظاهر الذلة لله تعالى ما نصت عليه الرواية:(فأنشـأ اللـه تعـالى سحابة، فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله تعـالى، فلم

يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ضحك ﷺ حتى بدت نواجذه، فقال:(أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله)(1)

ومثلما طلب ﷺ السقيا من الله طلب الصحو من الله، فقد روي أنه لما كثر المطر سألوه الإستصحاء فاستصحى لهم وقال:(اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والجبال والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر) (2)

وكان ﷺ إذا رأى مطرا قال:(اللهم صيبا نافعا)(3)، وكان يحسر ثوبه حتى يصيبه من المطر، فسئل عن ذلك، فقال:(لأنه حديث عهد بربه) (4)

ويروى أنه كان إذا سال السيل قال:(اخرجوا بنا إلى هذا الذي جعله الله طهورا فنتطهر منه، ونحمد الله عليه) (5)

ومثل اللجوء إلى الله في الاستسقاء وطلب المنافع التي أودعها الله المطر، اللجوء إلى الله في جميع

---

1) رواه أبو داود، وقال: حديث غريب، وإسناده جيد.

2) رواه ابن ماجة.

3) رواه البخاري.

4) رواه مسلم وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد.

5) رواه الشافعي والبيهقي مرسلا.

المنافع، وحمد الله عند حصول كل خير.

فقد كان رسول الله ﷺ إذا طلعت الشمس قال: (الحمد لله الذي جللنا اليوم عافيته، وجاء بالشمس، من مطلعها، اللهم أصبحت أشهد لك بما شهدت به لنفسك، وشهدت به ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك إنك أنت الله لا إله إلا أنت القائم بالقسط، لا إله إلا أنت العزيز الحكيم، اكتب شهادتي بعد شهادة ملائكتك وأولي العلم، اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك السلام، أسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تستجيب لنا دعوتنا، وأن تعطينا رغبتنا، وأن تغنينا عمن أغنيته عنا من خلقك، اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معيشتي، وأصلح لي آخرتي التي إليها منقلبي)[1]

2 ـ السلام:

تكاد كل النعم المسخرة في الكون تقول للإنسان: (أنا بين يديك.. أنا رهن إشارتك.. أنا مخلوق لخدمتك)

أو تقول ما قاله بديع الزمان، وهو يعبر عن خطاب الشمس لنا، وترحيبها بنا:(يا إخوتي لا تستوحشوا مني ولا تضجروا! فأهلاً وسهلاً بكم. فقد حللتم أهلاً ونزلتم سهلاً. أنتم أصحاب المنزل، وأنا المأمور المكلف بالإضاءة لكم، أنا مثلكم خادم مطيع سخرّني الأحد الصمد للاضاءة لكم، بمحض رحمته وفضله. فعليّ الاضاءة والحرارة وعليكم

---

1) رواه أحمد ورجاله ثقات.

الدعاء والصلاة)[2]

وهكذا يخاطبنا كل شيء بلسان حالـه، (فيـا هـذا هلاّ نظرت إلى القمر.. إلى النجوم.. إلى البحـار.. كـل يـرحب بلسانه الخاص ويقول: حياكم وبياكم. فأهلاً وسهلاً بكم)

وهكـذا تخاطبنـا كـل الأشـياء رافعـة ألويـة السـلام، فتسخير الله للكون تسخير مصحوب بالسلام.

ولا ينبغي أن يحجبنـا مـا قـد يمـر بنـا من المتـاعب والمشاق عن رؤيـة سـلام الكـون، فهي متـاعب يقتضـيها البلاء، وهي متــاعب بســيطة بجنب الثمــرات والمصــالح المتحققة.

والمؤمن ينظر إلى الكـون، ومـا سـخر لـه فيـه بهـذه النظرة، فهو يتعامل مع كون سخر له، لا كون معاند يحتاج فيه إلى الصراع معه من أجل تحقيق مصالحه.

وهـذه النظـرة تخـالف نظـرة الكـافر الجاحـد، الـذي يمتلئ كبرا وغـرورا، فيتصـور أنـه مصـارع عـنيف، فلـذلك يفـرض وجـوده على هـذه الأرض بجهـده وحيلتـه وقوتـه، ويقول ــ كمـا عـبر القـرآن الكـريم على لسـان قـارون ـ: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (القصـص: 78) فلـذلك رد عليه تعـالى مكملا:﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَـدْ أَهْلَـكَ مِنْ قَبْلِـهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْــأَلُ عَنْ ذُنُــوبِهِمُ الْمُجْرِمُــونَ ﴾ (القصــص: 78) فهــل علمــه من القصور ما جعله لا يمتد إلى معرفة مصاير القرى الهالكة،

2) الكلمة الثالثة والثلاثون.

ليرى أسباب هلاكها؟

ومثل قارون من أنعم الله عليه بنعمة العافية بعد البلاء، فينسى المبتلي والمعافي، لا يذكر إلا نفسه، قال تعالى: فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (الزمر:49)

وهكذا الإنسان الثامل بخمرة العلم الحديث، والساجد أمام وثن العقل يتصور أنه يصارع الطبيعة، ويغلبها غلبة الأبطال.

وفي مقابل ذلك نجد القرآن الكريم يصور النعم المستسخرة بصورة الهدايا المقدمة على أطباق، ومعها ختم المهدي، فالله تعالى صور ـ مثلا ـ الأرض بصورة المركب الذلول، المحتوية على كل المنافع، فقال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (الملك:15)

فالآية تصف الأرض بكونها ذلولا، وهذا الوصف يطلق عادة على الدابة، ليصور في الأذهان ويغرس في العقول والقلوب (أن هذه الأرض التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة، هي دابة متحركة.. بل رامحة راكضة مهطعة[1]،

1) فالأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة، ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالي خمسة وستين ألف ميل في الساعة. ثم تركض هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة، مبتعدة نحو برج الجبار في السماء.. ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمنا مستريحا مطمئنا معافى لا تتمزق أوصاله، ولا تتناثر أشلاؤه، بل لا يرتج مخه ولا يدوخ، ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول.. انظر ما يشير إلى هذه الحركات من القرآن الكريم في رسالة (معجزات علمية)

وهي في الوقت ذاته ذلـول لا تلقي براكبهـا على ظهرهـا، ولا تتعـثر خطاهـا، ولا تخضـه وتهـزه وترهقـه كالدابـة غـير الذلول، ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول!)(1)

بينما يصـورها الجاحـدون في صـورة الدابـة الرامحـة الراكضة التي تحتاج فارسا قويا مثل فرسـان رعـاة البقـر ليقوم بترويض جماحها على نغمات تصفيق المعجبين.

ولهذا نجد في القرآن الكريم روعة التعبير عن الكون المسخر، بخلاف تعبير العلوم الحديثة، والتي كان تقهقرها في فلسفة ما اكتشفته من معـارف مسـاويا لتقـدمها في اكتشافاتها واختراعاتها.

وقد عقد النورسي هذه المقارنة بين التعبـير القـرآني في وصـف الشـمس في قولـه تعـالى: ﴿ وَجَعَـلَ الشـمسَ سراجاً ﴾ (نوح:16)، وبين التعبير العلمي الحديث الجـاف، فقـال عن التعبـير القـرآني:(في تعبـير السـراج تصـوير العالم بصورة قصر، وتصـوير الأشـياء الموجـودة فيـه في صورة لوازم ذلك القصـر، ومزيّناتـه، ومطعوماتـه لسـكان القصر ومسـافريه، واحسـاسٌ أنـه قـد أحضَـرتها لضـيوفه وخدّامه يـدُ كـريمٍ رحيم، ومـا الشـمسُ إلاّ مـأمور مسـخَّر وسراج منوَّر. ففي تعبير السراج تنبيـه الى رحمـة الخـالق في عظمـة ربوبيتـه، وافهـامُ إحسـانه في سـعة رحمتـه، واحساسُ كرمه في عظمة سلطنته)(2)

---

1) في ظلال القرآن.

2) انظر: المكتوب التاسع عشر، النورسي.

أمــا العلم الحــديث فيعــرف الشــمس بأنهــا (كتلــة عظيمة من المائع الناري تدور حول نفسها في مسـتقرها، تطايرت منها شرارات وهي أرضنا وسيارات أخرى فتــدور هذه الاجرام العظيمة المختلفـة في الجسـامة.. ضـخامتها كذا.. ماهيتها كذا..)

وعقب على هذه المقارنة بقوله:(فانظر ماذا أفادتـك هذه المسألة غيرَ الحيرة المدهشــة والدهشــة الموحشــة، فلم تُفِدْك كمالاً علمياً ولا ذوقاً روحيـاً ولا غايـة إنسـانية ولا فائدة دينية)

وعلى هذا تقاس جميـع التعبـيرات القرآنيـة المتعلقـة بـالكون المسـخر، ولـذلك من الجهـل العظيم مـا أنكـره بعضـهم من أن القـرآن الكـريم لا يتكلم عن الكائنـات من الزاوية التي يسمونها علمـا، ويقصـرون العلم عليهـا، قـال النورسي:(فقس على هذا لتقدّر قيمة المسائل الفلسفية التي ظاهرُها مزخرفـة وباطنُهـا جهالـة فارغـة، فلا يغرّنـك تشعشع ظاهرها وتُعرِض عن بيان القرآن المعجز)

* * *

والنظـرة المسـالمة للكـون، أو شـعورنا بـأن الكـون مسـالم لنـا يـدعونا إلى احـترام هـذا السـلام، فلا نبادلـه بالحرب، ولا نتعامل معه وفق ما يمليه الصراع.

ولهذا ورد في النصـوص الحث على رحمـة الكائنـات، ومحبتها في الله، وأخذ ما نأخذ منها باسم الله.

وقد ورد فيها ما يرغب في الجزاء الذي أعـد للتعامـل

المسالم مـع الكائنـات، ومـا يـرهب في نفس الـوقت من التعامل معها كما يتعامل معها المصارعون:

فقد جاء رجل إلى رسـول اللـه ﷺ فقـال:(إني أنـزع في حـوضي حـتى إذا ملأتـه لأهلي ورد علي البعـير لغـيري فسقيته، فهل لي في ذلك من أجر، فقال رسول اللـه ﷺ: (في كل ذات كبد حرى أجر) (1)

وجاء رجل آخر، فقال: يا رسول إن الضـالة تـرد على حوضي فهل لي فيها من أجر إن سـقيتها؟ قـال:(أسـقها، فإن في كل ذات كبد حراء أجراً)(2)

وفي حـديث آخـر قـال رسـول اللـه ﷺ:(بينمـا رجـل يمشي بطريق اشـتد عليـه الحـر، فوجـد بـئراً فـنزل فيهـا فشـــرب، ثم خـــرج، فـــإذا كلب يلهث يأكـــل الـــثرى من العطش، فقال الرجـل: لقـد بلـغ هـذا الكلب من العطش مثل الذي كـان بلـغ مـني، فـنزل البـئر فملأ خفـه مـاء، ثم أمسكه بفيه حـتى رقي، فسـقى الكلب، فشـكر اللـه لـه، فغفرله، قـالوا:يـا رسـول اللـه إن لنـا في البهـائم أجـراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر)(3)

وأخـبر ﷺ أن اللـه تعـالى غفـر لمـومس مـرت بكلب يلهث كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقتـه بخمارهـا،

---

1) رواه أحمد.

2) رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه ابن ماجة والبيهقي.

3) رواه لبخاري، ومسلم.

فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك(1).

وفي حـديث آخـر، أن رسـول اللـه ﷺ قـال:(الخيـل لثلاثة: لرجـل أجـر، ولرجـل سـتر، وعلى رجـل وزر. فأمـا الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال في مـرج أو روضة فما أصابت في طلبها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت أرواؤها وأثارها حسنات لـه، ولـو أنهـا مـرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسـقيها كـان ذلـك حسـنات لـه..)(2)

والجزاء على الإحسان للكائنات لا يقتصر على الجزاء الأخروي، بل هو جزاء يشمل الدنيا والآخرة، قـال مطـرف بن عبدالله:(إن الله ليرحم برحمة العصفور)

وقد ذكر الشعراني واقعة حـدثت لـه تشـير إلى هـذا، قال:(مما وقع لي أن زوجـتي فاطمـة القصـبية أم ولـدي عبدالرحمن نزل عليها حادر وأشرفت على الموت وغـابت عن إحساسها وصـاحت أمهـا وأهـل الـدار عليهـا حين رأوا أمارات الموت فحصل عندي كرب شديد لأجلهـا من جهـة موافقتهـا للمـزاج ودينهـا وخيرهـا فـإذا بقائـل يقـول لي: (ادخل مجاز الخلاء تجد ذبابة في شق سحبها ضبع الذباب وهي صائحة يريد أكلها فخلصها ونحن نخلص لك زوجتك)، فـدخلت ونظـرت إلى الشـق، فسـمعت صـياح الذبابـة

(1) رواه مسلم.

(2) رواه البخاري ومسلم.

فوجدت الشق ضيقا لا يسع الأصبع فـأدخلت عـودا برفـق واســتخرجتها وخلصــتها من ضــبع الــذباب، فأفــاقت أم عبدالرحمن في الحال، وزغردت أمها، هـذا أمـر وقـع لي) (1)

وما ذكـره الشـعراني ليس مسـتغربا، وقـد قـال ﷺ: (من لا يرحم من في الأرض لا يرحمـه من في السـماء)، وهو يشير إلى أن الرحمة بـالخلق هي العين الـتي تتـدفق منه رحمة الله بالعبد، وقد روي من ذلك أيضا عن بعضـهم أنه رؤي في المنام فقيل له: ما فعل اللّـه بـك قـال: غفـر لي ورحمني، وسـببه أني مـررت بشـارع بغـداد في مطـر شديد فرأيت هرة ترعـد من الـبرد فرحمتهـا وجعلتهـا بين أثوابي)

***

وبمثل ما رغبت النصوص في هـذه الخـدمات ذاكـرة أنــواع الجــزاء المرتبطــة بهــا، رهبت من عكســها ترهيبــا شــديدا يــبين خطــورة تعامــل المصــارعين مــع هــذه المخلوقات.

ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ:(عذبت امـرأة في هرة لم تطعمها ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من خشــاش الأرض)(2)

---

1) العهود المحمدية.

2) رواه البخاري ومسلم.

وصور ﷺ ذلك تصويرا مخيفا، فقال:(دنت مني النــار حتى قلت: أي رب وأنا معهم، فإذا امرأة حسبت أنه قـال: تخدشها هرة _: قال ما شـأن هـذه؟ قـالوا: حبسـتها حـتى ماتت جوعا)(1)

وربـط رسـول اللـه ﷺ لعـذاب هـذه المـرأة بتعـذيب الهرة يدل على أنه سبب تعذيبها، لا كونها كافرة، وهذا مــا حمل النووي على قوله في شرح هذا الحديث:(إن المرأة كانت مسـلمة وإنهـا دخلت النـار بسـببها، وهـذه المعصـية ليست صغيرة بل صارت بإصرارها كبيرة)(2)

ونحن لا نرى في الحديث ما يدل على كونهـا مسـلمة أو غير مسلمة، ولكن الحديث يشير إلى ما هو أعمــق من ذلك.. وهو أن هذا السلوك يستوجب العقوبة بغض النظــر عن كون من سلك هذا السلوك مسلما أو غـير مسـلم(3)، بلغتــه الرسـالة أو لم تبلغـه، لأن الرحمــة المرتبطـة بهـذا مندرجـة في البرمجـة الإلهيـة للفطـرة الإنسـانية، ولـذلك

1) رواه البخاري.

2) شرح النووي على مسلم:9/89.

3) مع صراحة الحديث في كون العذاب بسبب الهرة، إلا أن البعض حاول تأويلـه، قال القاضي:(في هذا الحديث المؤاخـذة بالصـغائر، قـال: وليس فيـه أنهـا عـذبت عليهـا بالنار)، ثم برر ما صرح به الحديث من كونها في النار بقوله:(ويحتمل أنهـا كـانت كـافرة فزيد في عذابها بذلك)(النووي على مسلم: 6/207.)

وهذا مخالف لما ورد في الحديث، قال النـووي بعـد حكايـة كلامـه:(هـذا كلامـه وليس بصواب، بل الصواب المصرح به في الحديث أنها عذبت بسـبب الهـرة، وهـو كبـيرة لأنهـا ربطتها وأصرت على ذلك حتى ماتت، والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة كما هو مقـرر في كتب الفقه وغيرهـا، وليس في الحـديث مـا يقتضـي كفـر هـذه المـرأة (النـووي على مسلم: 6/207)

يؤاخذ مخالفها سواء بلغته الرسالة أو لم تبلغه[1].

بالإضافة إلى ما أخبر بـه ﷺ من اقتصـاص الحيوانـات من بعضـها بعضـا يـوم القيامـة.. فـإن كـان ذلـك كـذلك، فالبشر ـ بما أعطوا من طاقات ـ أولى بأن يحاسبوا.

***

والنصوص المقدسة لم تكتف بهذه التوجيهات الـتي قــد لا تجــد من غلاظ القلــوب من لا يهتم لهــا، ولــذلك شـرعت التشـريعات المختلفـة الـتي تحفـظ حرمـة هـذه الكائنات، والتي تخول لولي الأمر من خلالها أن يمارس ما يراه من عقوبات زاجرة.

وهذه ميزة هامة في الإسلام، من حيث عـدم اكتفائـه بالتوجيهات دون التشريعات.. وللأسف لا زال يتولى مهمة الرفق بالحيوان في عصرنا هذا جمعيـات خيريـة ليس لهـا أي سلطة ردعية.

ومن التشـريعات الـتي شـرعها الإسـلام، والمرتبطـة بعالم الحيوان تحريم تصبير البهائم، وهو أن تحبس لترمى حـتى تمـوت، ففي الحـديث: نهى النـبي ﷺ عن أن تصـبر بهيمة أو غيرها للقتل[2].

ومثل ذلك تحريم المثلة، وهي قطع أطراف الحيوان،

---

1) انظر في تفاصيل أدلة هذا في رسالة (أسرار الأقدار)

2) رواه البخاري، وقال العقيلي: (جاء في النهي عن صبر البهيمة أحاديث جياد)

ففي الحديث: (لعن النبي ﷺ من مثّل بالحيوان)(1)

واللعن من أخطـر صـيغ التحـريم، والتحـريم يقتضـي العقاب، والعقـاب أثـر من آثـار الجريمـة، وهـذا يعـني: أن الإساءة إلى الحيوان وتعذيبه وعدم الرفق به يعتبر جريمة في نظر الشريعة الإسلامية.

ومثـل ذلـك ورد النهي عن كي الحيـوان لغـير غـرض صحي، والأحاديث في النهي عن الكي في الوجه كثيرة.

فقد روي أن النـبي ﷺ مـرّ على حمـار قـد وسـم في وجهه فقال:(لعن اللـه الـذي وسـمه)(2)، وفي روايـة لـه: (نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوســم في الوجه)

وفي حديث آخرً عن جنادة بن جراد قال: أتيت النــبي ﷺ بإبل قد وسمتها في أنفهـا، فقـال رسـول اللـه ﷺ:(يـا جنادة فما وجدت عضوا تسمه إلا في الوجه أما إن أمامك القصاص) فقال: أمرك إليها يا رسول الله(3).

وفي حديث آخر عن جابر بن عبد الله قال: مرّ حمــار برسول الله ﷺ قد كوي وجهه يفور منخراه من دم، فقال رسـول اللــه ﷺ:(لعن اللــه من فعـل هـذا)، ثم نهى عن

---

1) رواه البخاري.

2) رواه مسلم.

3) رواه الطبراني.

الكي في الوجه والضرب في الوجه(1).

ومثل ذلك ورد النهي عن خصاء البهائم، ففي الحديث أن رسـول اللـه ﷺ نهى أن يخصـى الإبـل والبقـر والغنم والخيل..

ومما يلحق بهذا الباب تحريم كل لهـو لا هـدف لـه إلا العبث بهذه العوالم الـتي أمرنـا برحمتهـا واحترامهـا، وقـد روي في الحديث:(نهى رسول الله ﷺ عن التحـريش بين البهائم)(2)

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(من قتل عصفورا عبثـاً عجّ إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلانا قتلني عبثـاً ولم يقتلني منفعة)(3)

ويحكي في ذلك بعض الصحابة قال: كنا مع النـبي ﷺ في سفر، فـانطلق لحاجتـه، فرأينـا حمّـرة معهـا فرخـان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش، فلمـا جـاء رسول الله قال:(من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولـدها إليهـا) (4)

ويدخل في هذا الباب تحريم جميع الممارسـات الـتي

---

1) رواه الترمذي ًوصححه.

2) رواه أبو داود والترمذي.

3) رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

4) رواه أبو داود.

تنظر لها الحضارة الحديثـة على أنهـا تقاليـد، وتحسـب أن ذلك كاف لإعطاء بعد شرعي لها، ومنها تعذيب الحيوانـات بـإغراء بعضـها على بعض وتهييجهـا، كمصـارعة الثـيران، ومصارعة الديكة، والكبـاش ونحـو ذلـك، أو نصـبها غرضـا ًللرماية والصيد، أو قتلها بدون فائدة ولا منفعة.

***

ومما ورد النهي عنه إرهاق الحيوانات بالعمل الشاق، أو التعامـل القاسـي معهـا، مـا ذكـره رسـول اللـه ﷺ من كيفية وضع الحمل عليها، مما يكون عونًا لهـا على السـير، وتخصيص كل دابة بما تطيقه، والمبادرة لحلِّ الرِّحــال عن الـنزول عنهـا، وتقـديم علفهـا على أكـل صـاحبها، وكـذا المباردة إلى سقيها، كل ذلك شفقة عليها وإبقاء لها(1).

ففي الحديث قال رسـول اللـه ﷺ:(أخـروا الأحمـال، فإن اليد مغلقة، والرجل موثقة)(2)

وفي حـديث آخـر عن عائشـة قـالت:(خـرجت مـع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وخرج معه نسـاؤه، وكـان متاعي فيه خف، وهو على جمـل نـاج، وكـان متـاع صـفية في ثِقل، وهو على جمل ثِفال بَطيء، يَتبطأ بالركب، فقال رسول اللـه ﷺ:(حوِّلـوا متـاع عائشـة على جمـل صـفية، وحولـوا متـاع صـفية على جمـل عائشـة، حـتى يمضـي

______

1) انظر في هذا: تحرير الجواب عن ضرب الدَّواب، للشيخ العلامة محمد بن عبـد الرحمن بن محمد السخاوي (831-902)

2) رواه الطبراني والبزار وغيرهما.

الركب)(1)

وقد بنى الفقهاء على هذا وغيره حرمة الجمع بين الركوب وحمل المتاع إلا إن كانت الدابة المركوبة محتملة للحمل عليها (2)

وفي حديث آخر عن أنس قال: كنا إذا نزلنا منزلًا لا نسبّح حتى نحُل الرِّحال(3).. يريد بذلك: لا نصلي سُبحة حتى نحط الرحال، ونُجمَّ المطي.

وقد استنبط الفقهاء من هذا أنه يستحب لمن نزل منزلًا أن لا يَطعَم حتى يعلف الدابة، ولا يقصِّر في سقيها.

ومما يدخل في هذا الباب ما ورد من النهي عن وقوف الدابة وراكبها جالس على ظهرها؛ ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ:(إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله عز وجل إنما سخَّرها لكم لتُبْلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجتكم)(4)، وفي رواية قال رسو ل الله ﷺ:

---

1) رواه أبو يعلى.

2) قال ابن خزيمة قال: إذا كان الأغلب من الدواب المركوبة أنها إذا حُمل عليها في السير عطبت، لم يكن لراكبها الحمل عليها، إذ النبي ﷺ قد اشترط أن تُركب سالمة، ويُشبه أن يكون معنى قوله: (اركبوها سالمة) أي: ركوبًا تسلم منه ولا تعطب. انظر: تحرير الجواب عن ضرب الدَّواب.

3) رواه أبو داود.

4) رواه أبو داود.

(اركبـوا هـذه الـدواب سـالمة، وابتـدعوها(1) سـالمة، ولا تتخذوها كراسي)(2)

وفي رواية أنـه ﷺ مـرَّ على دوابٍّ لهم ورواحـل، وهم وقـوف، فقـال النـبي ﷺ:(اركبوهـا سـالمة، وانزلـوا عنهـا سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم ومجالسـكم، فـرُب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرًا لله عز وجل)(3)

وممـا يـدخل في هـذا البـاب مـا ورد من النهي عن ركوب ثلاثـة في آن واحـد، ففي الحـديث عن جـابر قـال: (نهى رسول الله ﷺ أن يركب ثلاثة على دابة)(4)

وفي حـديث آخـر: أنـه رأى ثلاثـة على بغـل، فقـال: لينزل أحدكم فإن رسول الله ﷺ لعن الثالث(5).

بل ورد ما هو أخطر من ذلك، ففي الحديث عن علي قـال: إذا رأيتم ثلاثـة على دابـة فـارجموهم حـتى يـنزل أحدهم)(6)

---

1) أي: اتركوها ورفهوا عنها إذا لم تحتـاجوا إلى ركوبهـا. وهـو (افتعـل) من وَدُع – بالضم- وَدَاعة وَدَعة؛ أي: سكن وترفه، النهاية: 5/166.

2) رواه ابن خزيمة، والحاكم، وابن حبان، في «صحاحهم» وغيرهم.

3) رواه ابن خزيمة، وابن حبان وغيرهما.

4) رواه الطبراني في الأوسط.

5) رواه ابن أبي شيبة.

6) رواه الطبراني.

ومما يدخل في هذا الباب ما ورد من الأمر بالنزول عنها عند المرور بالأرض المخصبة بالكلأ المباح لتَرعى فيها، وعد كفِّها عن المكان السهل، ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ:(إذا أخصبت الأرض فانزلوا عن ظهركم فأعطوه حقه من الكلأ، وإذا أجدبت الأرض فامضوا عليها بنقيها)(1)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل)(2)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: (إذا سافرتم في الخصب لأمكنوا الركاب من أسنانها، ولا تجاوزوا المنازل) الحديث(3)، وفي لفظ: (إذا كانت الأرض مخصبة فأمكنوا الركاب وعليكم بالمنازل)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(إذا ركبتم هذه البهائم العُجم، فإذا كانت سَنة فانجوا عليها)(4)

وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(إذا كانت أرض مخصبة فتقصَّوا في السير واعطوا الركاب حقها، فإن الله

(1) رواه البزار.

(2) رواه الدارقطني في أفراده.

(3) رواه ابن خزيمة، وأبو داود.

(4) رواه الطبراني.

رفيق يحب الرفق، وإذا كانت أرض مجدبة فـانجوا عليهـا) (1)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(إن اللـه رفيـق يحب الرفق ويرضاه ويعين عليـه مـا لا يعين على العُنـف، فـإذا ركبتم الـدواب العجم فنزلوهـا منازلهـا، فـإن أجـدبت الأرض فانجوا عليها)(2)

وفي حــديث آخــر قــال رســول اللــه ﷺ:(إذا ركب أحدكم الدابة فليحملها على ملاذها(3) ـ أو قال: على ملاذة ـ فإن الله تعالى يحمل على القوي والضعيف)(4)

ومما يدخل في هـذا البـاب مـا ورد من النصـوص دالا على إراحتهــا من الركــوب لتســتريح(5)، وقــد ورد في الحديث أنه ﷺ (كان إذا صلى الفجر في السفر مشى)(6)

---

1) رواه البزار في مسنده، ورواه الطبراني بسند فيه من لم يسم، لكن موقوفًا.

2) رواه ابن قانع والطبراني في معجمي الصحابة.

3) جمع ملذ، وهـو موضـع اللـذة؛ أي: ليُجْرهـا في السـهولة لا في الحزونـة؛ وهي المكان الغليظ الخشن.

4) رواه الدارقطني في أفراده.

5) وهذا من الهدي الصحي الـذي أرشـدنا لـه رسـول اللـه ﷺ، فالمشـي رياضـة صحية يحتاج إليها الإنسان كل حين.

6) رواه الطبراني في الأوسط.

وقـد روي عن بعض الصـالحين(7) أنـه كـان في بعض أسفاره راكبًـا ناقـة، فسـمعها وهي تقـول لـه: أتعبتـني يـا صـالح، فـنزل عنهـا فمشـى إلى أن سـمعها وهي تقـول: اركب فقد استرحت.

ولا استبعاد في هـذا، وقـد مـر معنـا قولـه ﷺ:(بينمـا رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت: لم أخلـق لهـذا، خُلقْتُ للحراثة)(2)

ومما يدخل في هـذا البـاب مـا ورد من النصـوص دالا على استحباب تنشـيطها بالحُـداء(3) وإراحتهـا بـذلك، وقـد جرت عادة الإبل أنها تسرع السير إذا حدي بها، منها قولـه ﷺ في مسير له لعبد الله بن رواحـة (يـابن رواحـة، انـزل فحرك الركاب)، فقال:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزل السكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا (4)

ومما يدخل في هذا البـاب مـا ورد من الأمـر بـالرفق في السير بها إبقاء عليها وعلى نفسه؛ لقولـه ﷺ: (المنبَتّ

---

7) هو الشيخ صالح الزواوي المغربي.

2) رواه البخاري.

3) الحدْو: هو سوق الإبل والغناء لها.

4) رواه البخاري ومسلم.

لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى[1]) [2]

***

وعلى هـذا الهـدى المضـمخ بعطـر السـلام، سـار الصـالحون متـأدبين مـع الكـون مسـالمين لـه، وقـد عـبر الشعراني عن الأساس الذي نبعت منه رحمـة الصـالحين على الكائنات بهـذا التعبـير الرمـزي الجميـل:(أخـذ علينـا العهد العام من رسول الله ﷺ أن نشفق على جميع خلـق الله تعالى من مؤمن وكـافر بطريقـه الشـرعي، كـل بمـا يناسبه من الرحمة، لكن لا نبالغ في الرحمة كـل المبالغـة بحيث نـرحم الشـاة فلا نـذبحها مثلا، لأن للرحمـة حـدا لا تتعـداه، وقـد سـمى الحـق تعـالى نفسـه أرحم الـراحمين وأمرنا بذبح الحيوانات فنـذبحها مـع رقـة القلب، ونضـرب من شـرد عن طريـق الاسـتقامة من رعيـة وعبـد وولـد وبهيمـة رحمـة بـه على وجـه التـأديب لا التشـفي للنفس، ونكون أرحم به من نفسه)[3]

وقد ذكر الشعراني التزام الربانيين بهـذا العهـد الـذي أخذه رسول الله ﷺ على أمتـه، فـذكر عن علي الخـواص قولـه:(من شـروط من تخلـق بالرحمـة على العـالم أن يعامـل الجمـاد معاملـة الحي، فيمسـك كـوز المـاء مثلا

---

1) أي أن من يعسف الركاب ويحملها من السير على ما لا تطيق رجـاء الإسـراع، ينقطع ظهره، فلا هو قطع الأرض التي أراد، ولا هو أبقى ظهره سالمًا ينتفع به بعد ذلك.

2) رواه البزار.

3) العهود المحمدية، الشعراني.

ويضعه برفق وشفقة، خوفا أن يتألم من الوضع)

وقد بلغت به شـفافية الـروح المسـالمة أن قـال عن نفسه:(وقد وضعت الكوز مرة بعنف فقال: أه، فمن ذلك اليوم وأنا أضعه برفق)

ويتحـدث عنـه الشـعراني أنـه كـان يملأ أواني الكلاب ويقول:(إنهم مساكين لا يقـدرون أن يملـؤوا من البـئر إذا عطشوا ويمنعهم الناس من دخـول دورهم، ومن الشـرب من حيضان دوابهم خوف التنجيس)

ويروي عنه أنه كان يرسل بعض تلامذتـه إلى المـذبح فيأتي بشعث اللحم وبالطحال ونحوهما للقطـط كـل يـوم ويقول:(إن غالب الناس اليوم لا يطعم قطة الـدار شـيئا، وإنما تخطف كلما قدرت عليه إذا جاعت على رغم أنفه)

ويروي عنه أنـه كـان يتفقـد النمـل الـذي في شـقوق الـدار ويضـع لـه الـدقيق ولبـاب الخـبز على بـاب جحـره ويقول:(يمنعهم من الانتشار لأجل القوت، فإن النملـة إذا جـاعت خـرجت تطلب رزقهـا ضـرورة، وعرضـت نفسـها لوقوع حافر أو قدم عليها فتمـوت أو تنكسـر رجلهـا، فـإذا وجدت ما تأكل على باب جحرها استغنت عن الخروج)

ويروي عن صالح آخر، قال:سمعت أخي أفضل الدين مـرة يقـول:(من الأدب إذا ركب العبـد دابـة أن يرحمهـا بالنزول عنها ولا يركب إلا عند الضرورة)

ويروي عنه أنه رآه مرة قلب حافر الحمارة لمـا نـزل من عليها وقبله، فأخذ يخاطبها قـائلا:(اجعليـني في حـل)،

وصار يعتذر إليها كما يعتذر لمن اعتدى عليه من الناس.

ويروي عن الإمام الجليل السيد أحمد بن الرفاعي أنه وجد بـأم عبيـدة كلبـا أجـرب أبـرص أجـذم عافتـه نفـوس النـاس وأخرجـوه من البلـد، فمكث الشـيخ يخدمـه في صحراء أم عبيدة نحو أربعين يوما، وعمل عليه مظلـة من الحر وصار يدهنه حتى برئ وغسـله بالمـاء الحـار، وقـال: خفت أن يقول الله لي يوم القيامة:(أما كانت فيك رحمة تشمل كلبا من خلقي)

ويروي عنه أنه كان يقـول:(لا ينبغي لفقـير أن يجعـل للنمـل الطـائف على رزقـه مانعـا يحـول بينـه وبينـه من قطران ونحوه إلا بعد أن يخرج له نصيبا معلومـا من ذلـك ويضعه له على باب جحره)

ومما يروى في هذا أن عدي بن حاتم كان يفت الخبز للنمل ويقول: إنهن جارات ولهن حق.

وكان أبو إسحاق الشيرازي يمشي في طريق يرافقه فيه بعض أصحابه، فعرض لهما كلب فزجره رفيـق الإمـام أبي إسحاق، فنهاه الإمـام، وقـال: أمـا علمت أن الطريـق بيني وبينه مشترك.

ولا زال الربانيون ـ في كل العهود ـ مسالمين للكون، وقد كان النورسي مثالا للشفقة على الكائنات قل نظيره، يقـول المصـاحبون له[1]:(كـان للاسـتاذ علاقـة متينـة مـع

---

1) انظر هذه النصوص في: السيرة ذاتية: 535.

المخلوقات ويشفق كثـيراً جـداً على الأشـجار والحيوانـات بل حتى على الأحجار ايضاً، فعنـدما يـرى كلبـاً - مثلاً - في الطريق يشفق عليه ويبادرنا بـالقول:(هـل لـديكم كسـرة خبز؟ فيأخذها ويعطيها للكلب)

ويعتـذر عن سـباع الحيوانـات بقولـه:(هـذه حيوانـات وفية، وإن عدوها وعواءها ناشئان عن صدقها ووفائها)

وكان عندما يرى في السهول السـلحفاة - مثلاً - على حـوافي السـواقي يقـول:(مـا شـاء اللـه، بـارك اللـه، مـا أجملهـا من مخلـوق، فالصـنعة والإتقـان في خلقهـا ليس بأقل منكم)

أما النمل، فله معـه قصـص كثـيرة ــ ذكرنـا بعضـها ـ ومنها ما عبر عنه هذا الصاحب بقوله:(أحيانـاً عنـدما كـان الأسـتاذ يـرى مملكـة النمـل او يرانـا نحـرك حجـراً وتحتـه مملكة النمل كان يعيد الحجر إلى مكانه ويقول:(لا تقلقوا راحة هذه الحيوانات)

وهذه قصة يذكرها بعض تلاميذه كمظهـر من مظـاهر احترامه لهذا العالم، والتي يتجلى من خلالها سمو السلوك الإسلامي مع الكون، يقول هذا التلميذ:(بدأ الجو يبرد شيئاً فشيئاً حيث الشتاء مقبل ونحن لازلنا على جبـل أرك، كنـا نتوقع هطول أمطار غزيرة وتسـاقط الثلـوج بكـثرة وكـان المكـان الـذي نبقى فيـه هـو على شـكل ربـوة او مرتفـع صغير، فأراد الأسـتاذ ان نبـني غرفـة. فبـدأنا ببنـاء الغرفـة على هذا المرتفع، وعندما حفرنـا الأسـاس وجـدنا مملكـة للنمل، ولما رأى الأسـتاذ النمـل أمرنـا بـالتوقف. فسـألناه

عن السبب. قال:(هل يجوز بنـاء بيت بهـدم بيت آخـر؟ لا تخربوا بيوت هذه الحيوانات. احفروا في مكان آخر غيره)

قال: فبدأنا نحفر في مكان آخر فوجدنا مملكة أخـرى ايضـاً للنمـل. وحفرنـا ثالثـة فوجـدنا نفس الشـئ. وهكـذا تكررت العملية ثلاث مـرات. فسـألني أحـد الطلاب الـذي كان يساعدني في هذا العمل: هل سيستمر الأمـر هكـذا؟ علينا ان نحفر في مكان ما فإذا ظهر النمل واريناه التراب لئلا يراه الأستاذ ومن بعد ذلك نستمر بالحفر، وإلا فسوف نظل إلى العشاء ولما نقم بشئ، فليس في هذه المنطقة شبر الا وفيها مملكة للنمل.

قال: وعلى كل حال بنينا غرفة صغيرة للاستاذ هنـاك، فكان الأستاذ كلما يرى النمل ويشاهد مملكته في الغرفـة يقدم له البرغل والسكر وفتات الخبز، فسألناه عن سـبب تقديمه السكر للنمل فأجابنا ضاحكاً:(فليكن السكر شـاياً لهم)(1)

وكان عندما يلتقي في تجوله صيادي الأرانب والطيور يقول لهم:(لا تروعوا هـذه الحيوانـات ببنـادقكم ولا تـؤذوا غيرها)

وبهذا الأسلوب كان ينصح الصيادين الهواة حتى جعـل الكثيرين منهم يتخلون عن الصيد.

وكان عندما يلتقي الرعاة في السهول الخضـراء وهم

---

1) السيرة الذاتية: 523.

يرعـــون حيوانـــاتهم في مـــروج بين الجبـــال والوديـــان والسهول، يلاطفهم ويقول لهم:(إنكم إذا ما أديتم الصــلاة في أوقاتها الخمسة خلال اليوم يصير اليوم بكاملـه بمثابـة عبــادة لكم، لأنكم بــرعيكم هــذا تقــدمون خدمــة كبــيرة للبشـرية فـان انتفـاع بـني البشـر من أصـوافها ولحومهـا وألبانهـــا هـــو بحكم الصـــدقة لكم، فلا تـــؤذوا إذن هـــذه الحيوانات البريئة النافعة)

3 ـ الحكمة:

ينظر المؤمن إلى الخدمات الجليلة التي تفـاض عليـه من الكـون المسـخر، فيراهـا هـدايا ربانيـة، فيتمتـع بهـا، ويتعرف على مهديها، بينما يراها الغافل فرصة لاســتغلالها أو الصراع معها والتغلب عليها.

والقــرآن الكــريم يلفتنــا إلى وجــوه الحكم في هــذا الكون المسخر، لنرعاها، ونتعامل معه وفق مقتضــاها، فلا نحيد بها عن مراد الله، بينما يتصوره الغـافلون الجاحــدون كونا مستباحا، لا قوانين تحكمه، ولا ضـوابط أخلاقيـه تقيـد التعامل معه.

وأساس النظرة الإيمانية ـ كما سبق بيانه ـ هو اعتقـاد المؤمن ملكية الله تعالى لهذا الكـون، وهـذه الملكيـة هي التي تجعل له وحده حق إباحة منافعه أو حظرهـا، وكيفيـة الانتفاع به، بخلاف النظرة المادية الجاحـدة الـتي تتصـوره مشاعا لا مالك له، فلا يخشون حسابا ولا عقابا.

وأساسها ـ أيضا ـ هو اعتقاده أن هذا الكون بـني على أحسن نظام وأدقه، وأن أي تغيـير فيـه على مـا هـو عليـه

انحــراف كبــير وفســاد عظيم، ويشــير إلى هــذا القاعــدة المعروفة:(ليس في الإمكان أبدع مما كان)

قال الغزالي شارحا لها:(لا ريب أن الله عز وجـل لـو خلق الخلق كلهم على عقـل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلـق لهم من العلم مــا تحتملــه نفوســهم وأفــاض عليهم من الحكمـة مـا لا منتهى لوصـفها، ثم زاد مثـل عـدد جميعهم علمـاً وحكمـة وعقلاً، ثم كشـف لهم عن عـواقب الأمـور وأطلعهم على أسـرار الملكـوت وعـرّفهم دقـائق اللطـف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفـع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بمـا أعطـوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبـير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الــدنيا والآخــرة جنــاح بعوضــة، ولا أن ينقص منهــا جنــاح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرّة ولا أن يخفض منهــا ذرّة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقــر أو ضــر عمن بلي به، ولا أن يزال صـحة أو كمـال أو غـنى أو نفـع عمن أنعم الله به عليه، بل كل مـا خلقـه اللـه تعـالى من السـموات والأرض ـ إن رجعوا فيها البصر وطولـوا فيهـا النظـر ــ مـا رأوا فيها من تفاوت ولا فطور وكل مـا قسـم اللـه تعـالى بين عباده من رزق وأجـل وسـرور وحـزن وعجـز وقـدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصـية، فكلـه عـدل محض لا جـور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الـواجب الحــق على مــا ينبغي وكمــا ينبغي وبالقــدر الــذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل)(1)

1) الإحياء.

ثم علل ذلك بقوله:(ولو كان وادخره مع القــدرة ولم يتفضــل بفعلــه لكــان بخلاً ينــاقض الجــود وظلمــاً ينــاقض العدل)(1)

ومن هــذا المنطلــق وردت الآيــات القرآنيــة الكثــيرة تتحدث عن منافع هذا الكون المسخر، وهي منافع تســتدر حمد العبد من جهــة، كــواجب أخلاقي يقتضــيه استشــعاره للنعمة، وهي في نفس الوقت ضوابط تحــد من التصــرف العشوائي العبثي للكون بعيدا عن مراعاة الحكمة.

وإلى هــذا المعــنى الثــاني الإشــارة بقولــه ﷺ:(بينمــا رجل يسوق بقرة له قــد حمــل عليهــا التفتت إليــه البقــرة فقالت إني لم أخلق لهذا ولكــني إنمــا خلقت للحــرث)(2)، وهذا الحديث إنكار شديد على الجاحدين العابثين بــالثيران في الساحات بوحشية وقسوة.

وإليه الإشارة كذلك بقوله ﷺ:(إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيــه إلا بشــق الأنفس وجعــل لكم الأرض فعليهــا فاقضوا حاجتكم)(3)

وبما أن لكل شيء في خلق الله حكم كثــيرة لا يمكن إحصاؤها، أو أن إحصاءها يســتدعي علومــا كثــيرة، فلــذلك

---

1) وقد نوقش الغزالي في هـذا، وقـد ذكرنـا أدلـة قولـه هـذا في رسـالة (أسـرار الأقدار)

2) رواه مسلم.

3) رواه أبو داود.

سنكتفي بأربعة مظاهر لحكم اللـه، هي مجـامع لكثـير من الحكم، ومن خلالها نرى ما يتطلبه التعامل مع حكمـة اللـه في أكوانه، كما رأينا ما يتطلبه السلام معها.

الجمال:

لا يلفتنا القرآن الكريم إلى المنافع المادية الموجــودة في الكون فقط، بل يـدلنا على مظـاهر الجمـال المبثوثـة فيـه، وكأنـه يأمرنـا بـالتطلع فيهـا والحفـاظ على رونقهـا وبهائها.

فـالقرآن الكــريم يحــدثنا ــ مثلا ــ عن البحــر بهــذا الأسلوب، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْـرَ لِتَـأْكُلُوا مِنْـهُ لَحْماً طَرِيّـاً وَتَسْـتَخْرِجُوا مِنْـهُ حِلْيَـةً تَلْبَسُـونَهَا وَتَـرَى الْفُلْـكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُـوا مِنْ فَضْـلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ (النحـل: 14)

فـالبحر في التصــوير القــرآني ليس ذلــك الطوفــان الهائج الذي ينقض على السفن فيغرقهـا، وإنمـا هـو نعمـة من نعم الله التي جمعت بين الفضل والمنفعة والجمال.

والقـرآن الكـريم يلفتنـا إلى هـذه المعـاني جميعـا، فـ (نعمــة البحــر وأحيائــه تلــبي كــذلك ضــرورات الإنســان وأشواقه. فمنه اللحم الطري من السمك وغيره للطعـام. وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان، وغيرهما من الأصداف والقواقع التي يتحلى بها أقوام مـا يزالـون حـتى الآن. والتعبـير عن الفلـك يشـي بتلبيـة حاسـة الجمـال لا بمجرد الركوب والانتقال: وتـرى الفلـك مـواخر فيـه، فهي لفتة إلى متاع الرؤية وروعتهـا:رؤيـة الفلـك مـواخر تشـق

الماء وتفرق العباب)[1]

وهذه الآية وغيرها تنطـوي على حكم تشـريعي خفي، وهـو وجـوب المحافظـة على هـذه النعم الموجـودة في البحر، وهـو مـا لم تأخـذه المدنيـة الحديثـة في الحسـبان، فلوثت البحر، كما لوثت الجو، وأغرقت الأرض في طوفان من التلوث.

وقـد أشـار القـرآن الكـريم إلى تـأثير الانحـراف في فساد الأرض والبحر بقوله تعالى: ﴿ ظَهَـرَ الْفَسَـادُ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَـبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ لِيُـذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُـوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم:41)

وهكذا تقترن في القرآن الكريم مظـاهر الجمـال في المكونـات بالضـرورة والحاجـة، لنتملى هـذا الجمـال ونسـتمتع بـه، ولا نحبس أنفسـنا داخـل حـدود الضـرورات والحاجات.

ومثل ذلك ما ورد عند التعبير عن منافع الأنعـام، فمن منافعها، كما قـال تعـالى: ﴿ وَالْأَنْعَـامَ خَلَقَهَـا لَكُمْ فِيهَـا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَـا جَمَـالٌ حِينَ تُرِيحُـونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل:5 ـ 6)

ففي هـذه الآيـات إحصـاء دقيـق لمنـافع الحيوانـات لتشمل المطعم والملبس والمسكن،وتضيف إليها الناحيـة الجماليـة (ففي الأنعـام دفء من الجلـود والأصـواف والأوبار والأشعار، ومنافع في هـذه وفي اللبن واللحم ومـا

1) الظلال.

إليها. ومنها تأكلون لحما ولبنا وسمنا، وفي حمل الأثقال إلى البلد البعيد لا يبلغونه إلا بشق الأنفس. وفيها كذلك جمال عند الإراحة في المساء وعند السرح في الصباح. جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة)

ولهذه اللفتة قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة، فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات.

ولهذا ينبهنا الله تعالى إلى النظر إلى مخلوقاته، وإلى ما أودع فيها من الحكمة والجمال، فيدعو إلى النظر إلى ما أودع في جسم الإبل من مظاهر الجمال والحكمة، قال تعالى:﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية:17)

وينبهنا إلى النظر إلى السماء وكيفية رفعها قال تعالى:﴿ وإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (الغاشية:18)

ويدعونا إلى النظر إلى الجبال وكيفية تثبيتها قال تعالى:﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (الغاشية:19)

ويدعونا إلى النظر إلى الأرض وكيفية تسطيحها قال تعالى:﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية:20)

وكما يشير القرآن الكريم إلى الجمال المودع في الكون يشير إلى الجمال الذي يساهم الإنسان في تكوينه، وكأنه يدعونا من خلال وصفه إلى مراعاته عند القيام بأي مشروع مرتبط بالكون:

فـالقرآن الكـريم يبـدع في وصـف مظـاهر الجمـال والتناسق التي قام بها السبأيون في مزارعهم، قال تعالى: لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَـةٌ جَنَّتَـانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِـمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْـكُرُوا لَـهُ بَلْـدَةٌ طَيِّبَـةٌ وَرَبٌّ غَفُـورٌ (سبأ:15)

ويبدع في وصف جنتي الرجـل الكـافر، قـال تعـالى: وَاضْـرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَـا لِأَحَـدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَـا زَرْعـاً (32)كِلْتَـا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَـا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْـهُ شَـيْئاً وَفَجَّرْنَـا خِلَالَهُمَـا نَهَـراً (33) (الكهف)

والقرآن الكريم لا يذم ذلك الترتيب الذي رتب الله به جنته، وإنما ينكر عليه غروره وكفره وجحوده لفضل الله.

ولهذا يمن الله على عبـاده بمـا أنبت لهم من حـدائق ذات بهجـة، قـال تعـالى: أَمَّنْ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِـهِ حَـدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَـةٍ مَـا كَـانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُـوا شَـجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ يَعْدِلُونَ (النمل:60)

التنوع:

وهو مظهر من مظاهر حكمة الله في الكـون، ودليـل من أدلة الوحدانيـة، لأن الربـط بين المختلفـات وتوجيهها وجهة واحد لا يكون إلا من إله واحد.

وهذا التنوع شامل لجميع الأشياء، فالأشياء تتنـوع في المهام والوظائف والتراكيب الداخلية والأشكال الخارجية.

وعلى هذا التنوع جـاءت النصـوص لتـدل أولا على أن عظمـة اللـه تعـالى لا تبـدو في مجـرد إيجـاد الأشـياء من العدم، بل بإبداعها بهذه الصور المختلفة، ليكون ذلـك دليلا على توحيـد اللـه وإبداعـه، وهـذه هي الفائـدة المعرفيـة الكبرى في هذا التنوع، وهي التي سنتحدث عنها في كـون العارفين.

أما الفائدة العملية الثانية المرتبطة بالكون المســخر، فهي الدعوة إلى المحافظـة على هـذا التنـوع المحسـوب بحساب دقيق.

ولذلك يدعونا القرآن الكـريم إلى النظـر إلى أصـناف النباتات ما تشابه منها وما لم يتشـابه، قـال تعـالى: وَهُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ نَبَـاتَ كُـلِّ شَـيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْـهُ حَبّـاً مُتَرَاكِبـاً وَمِنَ النَّخْـلِ مِنْ طَلْعِهَـا قِنْـوَانٌ دَانِيَـةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَـابٍ وَالزَّيْتُـونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأنعام:99)، وكـأن هـذه الآيـة تدعو إلى التصنيف العلمي لأجناس الكائنات، والذي يكون أساسا للمحافظة عليها.

بـل هي تـدعونا إلى تأمـل الأطـوار الـتي تمـر بهـا الكائنات، وهي تسير في طريقهـا إلى اسـتكمال وجودهـا، قال تعالى: انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ لتكون هـذه الدراسة سـبيلا للتعـرف على حاجتهـا، ثم رعايتهـا انطلاقـا من ذلك.

وهذه الآية تجمع مع قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَـأَ جَنَّاتٍ

مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُـهُ وَالزَّيْتُـونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُـوا مِنْ ثَمَـرِهِ إِذَا أَثْمَـرَ وَآتُـوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ (الأنعـام: 141) الحكم المرادة من أصناف الكائنات، فهي في الآيـة الأولى نظـر واسـتمتاع وعبـور منهـا إلى المبـدع، وهي في الآيـة الأخيرة استهلاك واستثمار وانتفاع.

فالآية الأولى تغذي الروح وجمال الروح، والآية الثانيـة تغذي الجسد وحاجات الجسد.

وكما نبه القرآن الكريم إلى النظـر إلى تنـوع أصـناف النباتات نبه إلى تنوع التضاريس والمناخ الذي يسـاهم في ذلـك التنـوع النبـاتي، قـال تعـالى: وَفِي الْأَرْضِ قِطَـعٌ مُتَجَـاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَـابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيـلٌ صِـنْوَانٌ وَغَيْـرُ صِـنْوَانٍ يُسْـقَى بِمَـاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (الرعد:4)

وسـنتحدث هنـا عن نـاحيتين وردت النصـوص بتنـوع المكونات فيهما، وهو ما يفيد وجوب المحافظـة على هـذا التنوع:

تنوع الأحياء:

من مظاهر حكمـة اللـه تعـالى في الأرض أن عمرهـا بأنواع الأحياء من النبات والحيوان، وذلك لإعالة الحياة من ناحية، وتحقيق التوازن البيئي من ناحية أخـرى، فقـد أودع الله تعالى فى مكونات البيئـة الحيويـة الكثـير من المنـافع الـتى سـخرها بقدرتـه وحكمتـه لخدمـة الإنسـان وتوفـير الحاجات المختلفة لحياته.

والباحثون يؤكدون(1) ـ اليوم ـ أن عالم الحيوان أشبه بالمـدن الهائلـة والشـعوب المتعـددة الأعـراف والأعـراق واللغات والعادات والأجناس التي لا حصر لها ويعجز العقل عن تصور أعدادها الهائلة والضخمة وأنسـب وصـف لهـذه الكائنـات ذوات الأعـداد الهائلـة هـو مصـطلح (الأمم) كمـا وصفها القرآن الكريم.

فعدد الطيـور الجاثمـة وحـدها أكـثر من 5000 نـوع، وكل نوع من هذه الطيور هو أيضا أنواع عدة، فمثلا طيــور الفـران الأمريكيـة الإسـتوائية حـوالي 221 نوعـا صـغيرة الحجم نوعا ما، وذوات عادات متنوعة جدا.

وهناك 223 نوعـا من الطيـور النمليـة والـدج النملي والبيتــا النمليــة مرتبطــة ارتبــاط وثيقــا بطيــور الفــران الأمريكية الجنوبية والوسطى.

وأما طيور كوتنجا المزركشة فتضـم تقريبـا 90 نوعـا تقريبا من الطيور المزركشة والمبهرجة جدا.

كما تعد طيور الجنة ـ وسميت بـذلك لأن لـديها ريشـا فاتنا جدا حتى اعتقدوا أنه آت من الجنة ـ فتبلغ أنواعه 42 تقريبا.

وأما طيور النمانم ـ وهي طيور صغيرة عاملة ـ فتضم أكثر من 60 نوعا، وهي طيور مدهشة جدا لما تصدره من أصوات البقبقة المرتفعة إلى درجة لاتصدق وتنتشر بكثرة في أمريكا.

---

1) انظر: من آيات الله في الحيوانات، الأسـتاذ محمـد محمـد معـافى علي، موقـع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

كما تبلغ أنواع صياد الذباب أكثر من 1200 نوع.

وتضم آكلات الحشرات أكثر من 370 نوعا.

وهنــاك أكــثر من 300 نــوع من الطيــور المخوضــة والنوارس وطيور الأوك.

وتضم طيور زمّار الرمل أكثر من 60 نوعا.

وتبلغ أنواع طيور النورس أكثر من 90 نوعا.

أما أنواع الحمام واليمـام فهنالـك حـوالي 290 نوعـا منها موزعة في أرجاء العالم، ويبلغ أنـواع الببغـاوات أكـثر من 500 نوعا.

وتبلغ أنواع البوم أكثر من 123 نوعا.

وتبلغ أنواع طيور الضوع والسبد نحو 90 نوعا.

وتبلـغ طيـور الرفـراف حـوالي 87 نوعـا تتواجـد في أنحاء العالم.

كما يبلغ طير نقّـار الخشـب أكـثر من 200 نوعـا في جميع أنحاء العالم.

وفي عالم القرود تبلغ قـرود العـالم القـديم أكـثر من 60 نوعا.

وبالنظر إلى الزواحف نجدها أعدادا هائلة جدا وأنواعا لا حصر لها، فالحيات العمياء تبلغ أنواعها 150 نوعـا، وهي تعيش وتحيا تحت الأرض.

كمـا تشـتمل مجموعـة السـلحفيات على السـلاحف والحمسات ـ وهي سلحفة المياه العذبـة ـ وتضـم حـوالي 100نوع، وتبلـغ أنـواع السـحالي العملاقـة أكـثر من 700 نوع في مناطق العالم الجديد.

وتبلغ أنواع الحرباء حوالي 85 نوعا كما تبلغ السحالي السامة حوالي 3000 نوعـا من السـحالي ونوعـان فقـط منها يفرزان السم وهي السحالي المخرزة والهيلية.

والأفاعي أيضا أنواع شـتى، منهـا السـام، ومنهـا غـير السام، وهي متعددة الأشكال والألوان، فنـوع منهـا فقـط، وهي أفاعي الكوبرا والممبا تبلغ أكثر من 200 نوع تقريبا.

كما تشتمل الحيـات الخبيثـة على حـوالي 100 نـوع، وتقـول بعض المصـادر العلميـة أن عـدد أنـواع الثعـابين الحالية أكثر من 2700 نوع ثلثها فقط سام.

أما الخنافس فتضم أكثر من 300 ألف نوع.

وأما الثدييات عموما فتضم أكثر من 4200 نوع.

وتبلغ الخفافيش حوالي 900 نوع أو أكثر.

وتضم فصيلة الكنغر والولبات حوالي 55 نوعا متفاوتا في الحجم.

كما تضم مجموعة السنوريات حوالي 36 نوعا تعيش تقريبـا في كافـة أنحـاء العـالم عـدا أسـتراليا والقطب الجنوبي، ويبلغ نوع سـنور الزبـاد والرّبـاح والنمس حـوالي 80 نوعا.

وهكذا يعتقد العلماء بإمكانيـة وجـود أكـثر من عشـرة ملايين نوع أو جنس من الحيوانات في العالم، ومـع ذلـك، فقد تكون هناك أنواع أخرى أكثر بكثير بانتظار اكتشافها.

والقرآن الكريم يذكر تسخير البيئة الحيويـة للإنسـان، ويبين الوجوه الشرعية للانتفاع بهـا، وهـو في ضـمن ذلـك يحث على وجوب المحافظة عليها.

قـال تعـالى عن عـالم البحـر ومـا يحتويـه من أحيـاء: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْـتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَـةً تَلْبَسُـونَهَا وَتَـرَى الْفُلْـكَ مَـوَاخِرَ فِيـهِ وَلِتَبْتَغُـوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:14)

والشكر في هذه الآية لا يعني فقط أن نقـول: الحمـد لله، بل رأس الشكر أن يتعامل مع النعمة وفق حكمة الله ومراده.

وقـال تعـالى عن عـالم النبـات:﴿ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يّـس:80)

وقـال عن عـالم الحيـوان:﴿ وَالْأَنْعَـامَ خَلَقَهَـا لَكُمْ فِيهَـا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل:5)

وقـــد وردت الأحـــاديث الكثـــيرة تحث على وجـــوب المحافظة على البيئة الحيوية:

فذكر ﷺ الأجر العظيم المعد لمن يساهم في زراعـــة الأرض، وهو أجر لا يقل عن أجور الصـلاة والزكـاة والحج، قال ﷺ:(ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكـل

منه طيرا أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)(1)

وفي حـديث آخـر يشـير ﷺ إلى منـافع إحيـاء الأرض زيادة على الأجر المعد للمحيي بقولـه ﷺ:(مـا من امـرئ يحيى أرضا فتشرب منها كبد حرى أو تصيب منها عافية إلا كتب الله تعالى له به أجرا)(2)

بل إنـه ﷺ يحث على هـذه العبوديـة بغض النظـر عن المنافع المرجوة منها، قال ﷺ:(إذا قامت الساعة وفى يد أحـدكم فسـيلة فليغرسـها)(3)، وفي ذلـك إشـارة إلى أن منافع النبات لا تقتصر على الثمر.

وقد جاءت الأوامر التشريعية ترغب في إحياء الأرض، وتجـازي من يسـاهم في الإحيـاء، قـال ﷺ:(الأرض أرض الله، والعباد عباد الله، من أحيا مواتاً فهو له)(4)

بـل إن الأوامـر التشـريعية ــ للمحافظـة على البيئـة الحيوية ـ تمتد حتى في حال الحرب ــ الـتي تتناسـى فيهـا البشرية اليوم كل المقومات الأخلاقية ـ فقد كانت الأوامـر تصـدر صـريحة إلى قــواد المسـلمين تنهـاهم عن قطـع الأشجار أو تدميرها وضرورة المحافظة عليها.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه الطبراني في الأوسط.

3) رواه أحمد والبخاري في الأدب وعبد بن حميد.

4) رواه الطبراني في الكبير.

والســر في هــذه الــدعوة الحثيثــة على الاســتزراع وحماية البيئة الحيوية ــ زيـادة على مـا سـبق بيانـه ــ هـو المنافع العظيمة الـتى تقـدمها البيئـة الحيويـة للإنسـان، إذ تلعب النباتات دوراً مهمـاً فى إحـداث التـوازن فى تركيبـة الهـواء خاصـة غـازي الأكسـجين وثـاني أكسـيد الكربـون والتوازن فى الدورة المائية من خلال عملية النتح، وحماية التربة من الجرف لما للغطاء النباتي من قدرة كبيرة على مقاومة عوامل الجرف المائي والهوائي.

كما أن للبيئة الحيوية أهمية طبيـة حيث تضـم نباتاتهـا وحيواناتها الكثير من المواد أو العناصر الفعالة فى صـناعة الدواء.

ولكن الفكر المنحرف لا يبالي ـ لا بالتوجيهات الربانية التي وردت في النصـوص، ولا بالمنـافع الـتي أثبتهـا العلم، ولا بالمخاطر التي حذر منها الحكماء ـ ولـذلك فـإن البيئـة الحيويـة ــ اليـوم ــ فى تـدهور مطـرد نتيجـة الاسـتغلال المفرط والجائر.

وتشير ورقة عمل أعدها برنامج الأمم المتحدة للبيئــة (اليونب) ومنظمـة الفـاو والبنـك الـدولي سـنة 1988 أن الغابات المدارية تختفي بمعدل 11 مليـون هكتـار سـنويا، وأن نصـف الغابـات المداريـة فى العـالم قـد اختفى منـذ بداية القرن الحالي، وأن هناك حاجة لاستثمار نحو 8 مليار دولار على مدى السنوات الخمس القادمة لتنمية الغابــات واحتواء الأثر الضار لإزالة الغابات.

ومثل الضرر الذي حصـل بعـالم النبـات حصـل بعـالم

الحيوان، فانقرضت كثير من الحيوانات، وحيوانـات أخـرى تسير نحو الانقراض.

وهذا كله بسبب جشع الإنسان وحرصه.

وفي مقابـــل ذلـــك جـــاءت الشـــريعة الإســـلامية بالتشريعات التي تحافظ على هذا العالم، وقد ذكر العلماء الكثير من الأسرار والحكم المرتبطة بمـا أبيح أو حـرم من أنواع الحيوان، وأكثرها مما يرتبط بمصلحة الإنسان.

ونرى أن من الحكم الشـرعية ــ كـذلك ــ هـو حمايـة عالم الحيوان:

فلذلك وردت النصوص بإباحـة الحيوانـات الـتي يكـثر وجودهـا أو يسـهل تنميتهـا، بخلاف الحيوانـات الـتي ينـدر وجودها.

فنهى رسـول اللـه ﷺ عن كـل ذي نـاب من السـباع وكـل ذي مخلب من الطـير(1)، والسـر في ذلـك أن هـذه الأنواع من الحيوانات هي التي تحقـق التـوازن البيـئي من ناحية، وهي نادرة من ناحية ثانية بحيث يـؤدي صـيدها إلى انقراضها.. هذا بالإضافة إلى مـا ذكـره العلمـاء من الحكم المرتبطة بالصحة.

وورد النهي عن أكل لحم القـرد، قـال ابن عبـد الـبر: (أجمـع المسـلمون على انـه لا يجـوز أكـل القـرد لنهى رسول الله ﷺ عن أكل القرد)

---

1) رواه أحمد والترمذي.

وبخلاف هـــذا نـــرى الإباحـــة المطلقـــة لكثـــير من الحيوانــات البحريــة نظــرا لكثرتهــا وعــدم الخشــية من انقراضها، بل يسرت الشريعة الأحكام المرتبطة بها.

وكأنها ـ من خلال هذا التسيير ـ تدعو إلى الاستعاضــة بهــا عن الحيوانـات المحرمـة حفاظـا على البيئـة، بـل إن القرآن الكريم يصف من محاسـن الحيوانـات البحريـة مـا يرغب في أكلها، قال تعالى ممتنا على عباده: وَهُــوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْـهُ لَحْمـاً طَرِيّاً وَتَسْـتَخْرِجُوا مِنْـهُ حِلْيَـةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْــلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل:14)

فالآيـة الكـريم تصـف لحم الحيوانـات البحريـة بكونـه طريا، وكأنها بذلك تثير الشهية إلى طلبه والرغبة فيه.

وفي آية أخرى تخص صيد البحـر بالإباحـة، وفي ذلـك إشارة أيضا إلى الترغيب في التمتـع بنعم اللـه في البحـر، ليحصــل التــوازن بين الــبر والبحــر، ويحفــظ التنــوع في كليهما، قال تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَـيْدُ الْبَحْـرِ وَطَعَامُـهُ مَتَاعـاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَـا دُمْتُمْ حُرُمـاً وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (المائدة:96)

والقرآن الكـريم ينبهنـا إلى أن الحيـاة بالصـورة الـتي نتصورها لا تقتصر على هذه الأرض، فالكون مملوء بأحيـاء كثيرة لا يستطيع خيالنا المحدود أن يرسم لهـا أي صـورة، قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَــا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَـةُ وَهُمْ لا يَسْـتَكْبِرُونَ (النحــل:49)، بــل اعتبرهــا من آياتــه الدالــة على عظمتــه وقدرتــه ولطفــه،

فقال: وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (الشورى:29)

وبذلك تكون الأرض مجرد نموذج للأحياء.. وأنواع الأحياء.. وفي ذلك إشارة بديعة إلى أن هذا الكون العريض الذي لا نعرف له حدودا مملوء هو الآخر بأصناف الحياة والأحياء، قال النورسي:(إن الكرة الارضية وهي واحدة من الأجرام السماوية، على كثافتها وضآلة حجمها، قد أصبحت موطناً لما لا يحد من الأحياء وذوي المشاعر، حتى لقد أصبحت أقذر وأخسّ الأماكن فيها منابع ومواطن لكثير من الأحياء، ومحشراً ومعرضاً للكائنات الدقيقة. فالضرورة والبداهة والحدس الصادق واليقين القاطع جميعاً تدل وتشهد بل تعلن أنّ: هذا الفضاء الواسع والسموات ذات البروج والأنجم والكواكب كلها مليئة بالأحياء وبذوي الادراك والشعور. ويطلق القرآن الكريم والشريعة الغرّاء على اولئك الأحياء الشاعرين والذين خُلقوا من النور والنار ومن الضوء والظلام والهواء ومن الصوت والرائحة ومن الكلمات والأثير وحتى من الكهرباء وسائر السيالات اللطيفة الاخرى بأنهم: ملائكة.. وجان.. وروحانيات.. ولكن كما أن الاجسام أجناس مختلفة كذلك الملائكة؛ اذ ليس المَلَك الموكّل على قطرة المطر من جنس المَلَك الموكّل على الشمس. وكذلك الجن والروحانيات مختلف الأجناس الكثيرة)[1]

تنوع الألوان:

---

1) انظر: الكلمة التاسعة والعشرون، وهي تخص بقاء الروح والملائكة والحشر.

كما نبه القرآن الكريم إلى تنوع أجناس الكائنات الحية تحدث عن اختلاف ألوانها، فقال تعالى عن الجبال: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (فاطر:27)

وقال عن اختلاف ألوان الأنعام: وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (فاطر:28)

وفي القرآن الكريم نجد لونا خاصا لقي عناية خاصة، هو اللون الأخضر، فالله تعالى يصف أهل الجنة وهم على فرشهم في جو رفيع من البهجة والمتعة بقوله تعالى: مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (الرحمن:76)، ويصف ألوان ثيابهم بقوله تعالى: عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (الانسان:21)

وفي كل ذلك إشارة إلى وجوب المحافظة على ألوان الأشياء وعدم إفسادها بما يفسدونها به الآن من التدخل في هندستها الوراثية.

وقد أثبت العلم الحديث[1] أهمية اللون في التدخل في صحة الإنسان، يقول أحد علماء النفس وهو أردتشام: (إن تأثير اللون في الإنسان بعيد الغور وقد أجريت تجارب متعددة بينت أن اللون يؤثر في إقدامنا وإحجامنا

1) انظر: مع الطب في القرآن الكريم، للدكتور عبد الحميد دياب، والدكتور أحمد قرقوز، مؤسسة علوم القرآن دمشق.

ويشعر بالحرارة أو البرودة،و بالسرور أو الكآبة، بـل يـؤثر في شخصية الرجل وفي نظرته إلى الحياة.

و يسبب تأثير اللون في أعماق النفس الإنسانية فقـد أصبحت المستشفيات تستدعي الاخصاصيين لاقتراح لـون الجدران الـذي يسـاعد أكـثر في شـفاء المرضـى وكـذلك الملابس ذات الألوان المناسبة.

وقد بينت التجـارب أن اللـون الأصـفر يبعث النشـاط في الجهـاز العصـبي، أمـا اللـون الأرجـواني فيـدعو إلى الاستقرار واللـون الأزرق يشـعر الإنسـان بـالبرودة عكس الحمر الذي يشعره بالدفء ووصل العلمـاء إلى أن اللـون الــذي يبعث الســرور والبهجــة وحب الحيــاة هــو اللــون الأخضر، لذلك أصبح اللون المفضـل في غـرف العمليـات الجراحية لثياب الجراحين والممرضات.

ومما يمكن ذكره هنا تلك التجربة التي تمت في لندن على جسر (بلاك فرايار) الذي يعرف بجسـر الانتحـار لأن اغلب حـوادث الانتحـار تتم من فوقـه حيث تم تغيـير لونـه الأغــبر القــاتم إلى اللــون الأخضــر الجميــل ممــا ســبب انخفاض حوادث الانتحار بشكل ملحوظ.

والتفسير العلمي لذلك أن اللون الأخضر يريح البصر، وذلك لأن الساحة البصرية له أصغر من الساحات البصرية لبـاقي الألـوان كمـا أن طـول موجتـه وسـطي فليسـت بالطويلة كاللون الأحمر وليست بالقصيرة كالأزرق.

بل إن ما يسمى الآن بالطب البديل يتفق تماما مع ما ورد في القـرآن الكـريم من اسـتعمال الألـوان في خدمـة

الصحة، وسنذكر هنا من مشكاة قوله تعالى: إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)(البقرة: 69) بعض ما اكتشفه هذا النوع من الطب[1] للإشارة إلى وجوب المحافظة على جمال الكون وألوانه كما خلقها الله تعالى.

ينطلق أصحاب هذا العلم من أن الله تعالى مزج بنية الانسان بعناصر وتموجات كهربائية وإشعاعات ذاتية، بحيت تتجانس كلية مع العناصر الموجودة في الكون المحيط به من موجات كهرومغناطيسية وإشعاعات كونية وذبذبات لونية، وكلاهما مكون من درجات مختلفة من الذبذبات الموجية، مما يؤهل الإنسان الى الحياة بواسطة هذه الطاقات الكهربائية والإشعاعية.

ويذكرون أن لكل شخص إشعاعات تختلف في طول موجتها وعدد ذبذبتها وتردداتها عن غيره، وبذلك يكون كل شخصا مستقل عن غيره في الصفات والطبائع، وبذلك يكون لكل شخص لون خاص يتميز به، أو طول موجة وذبذبة ترددية خاصة به مثلما هو الأمر بالنسبة لبصمات الإصابع.

فكل إنسان تنبعث منه إشعاعات خاصة به، ويستقبل إشعاعات من الكون من الإشعاعات والذبذبات اللونية التى تحيط به في البيئة التي يعيشها، وكذلك تسبب الإشعاعات الموجية والذبذبات الصحة والمرض -بإذن الله- والحب والكراهية وذلك لو كانت الموجات المرسلة والمستقبلة بين شخص وآخر متقاربة نتج عن ذلك تفاهم

1) انظر:: كتاب الوصفة الطبية للعلاج بالتغذية، ود.م / يحيى حمزة كوشك.

ومحبة قوية، وكلما تنافرت كلما نتج عنها خلاف وكراهية.

انطلاقا من هـذه الافتراضـية الـتي تـدل عليهـا الأدلـة الكثيرة أخذ ما يمكن تسـميتهم بعلمـاء الألـوان في إجـراء الدراسات على تأثير الألوان على حالتنا النفسية والصحية، وطريقة تفكيرنا، فالشخص الذي يفضل لونا معينا ــ مثلا ـ على لـون آخـر يكـون لـه علاقـة بتـأثير ذلـك اللـون على إحساس ذلك الشخص.

فعندما يدخل اللـون ـ الـذي هـو عبـارة عن ضـوء أو طاقــة مشــعة مرئيــة ذات طــول مــوجي معين ــ إلى المســتقبلات الضــوئية في العين تنبــه الغــدة النخاميــة والصنوبرية، وهذا يؤدي الى إفراز هرمونات معينـة، تقـوم بإحــداث مجموعــة من العمليــات الفيســولوجية، وهــذا التفســير يشــرح ســبب ســيطرة الألــوان على أفكارنــا ومزاجنا وسلوكياتنا.

ومن أمثلة ذلك أنهم ذكروا أن اللـون البرتقـالي مقـو للقلب ومنشط عام ومضـاد للإحسـاس بـالهبوط والفتـور والاكتئاب والنعـاس والإضـطهاد واليـأس وكافـة المشـاعر الســيئة، ويســاعد على الشــفاء من أمــراض القلب والإضطرابات العصبية وإلتهابات العينين..

واللـون البنفسـجي مهـدئ بوجـه عـام وخاصـة في الأمراض العصبية والنفسية.

واللون الـوردي لـه تـأثير ملطـف على الجسـم حيث يقوم بإرخاء العضلات.

واللـون فـوق البنفسـجي مضـر في حالـة الإصـابة بـأمراض القلب والرئـتين ويسـبب الإنفصـال الشـبكي بالعين، ولكنه مطهر وقاتل لبعض الجراثيم.

وهكذا سائر الألوان، وقـد لا يكـون بعض مـا اكتشـفه هؤلاء صحيحا، فهذا علم مع قدمه لا يزال من ناحية الجزم واليقين في بداياتـه، ولكنـا نعتقـد أن العلم ـ مسـتقبلا ـ سيكتشـف الكثـير من الحقـائق القطعيـة حـول الألـوان، وورودها في القرآن الكـريم بـذلك التفصـيل كـاف واحـده لقناعتنا بهذا الاستشراف المستقبلي.

ولكن قبل ذلك.. نحافـظ على ألـوان الكـون قبـل أن يدمرها جشع الإنسان وحرص الإنسان وصراع الإنسان.

التوازن:

خلق الله تعالى كل ما نـراه أو مـا لا نـراه من الكـون في توازن تام لا يتخلـف، وبمقـادير محـددة مضـبوطة في منتهى الدقـة والإحكـام، قـال تعـالى مبينـا قـانون ذلـك: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)(الفرقان: 2)

وذكر بعض تفاصيل ذلك:

فكل ما في الأرض وما عليها مقدر ومـوزون بمـيزان اللـه الـدقيق، قـال تعـالى:﴿ وَالْأَرْضَ مَـدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَـا فِيهَـا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر:19)

وحركات الأفلاك في مساراتها مقدرة تقديرا دقيقـا لا تحيد عنه، قال تعالى:﴿ فَـالِقُ الْإِصْـبَاحِ وَجَعَـلَ اللَّيْـلَ سَـكَناً وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ حُسْـبَاناً ذَلِـكَ تَقْـدِيرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ﴾

(الأنعام:96)

وحركات الشمس وسيرها مقدر بحساب دقيق، قـال تعالى: وَالشَّمْسُ تَجْـرِي لِمُسْـتَقَرٍّ لَهَـا ذَلِـكَ تَقْـدِيرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ (يّـس: 38)

وبهذا النظام الدقيق والموازين المضـبوطة قـدر اللـه السموات جميعا، قال تعالى: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَـمَاوَاتٍ فِي يَـوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُـلِّ سَـمَاءٍ أَمْرَهَـا وَزَيَّنَّا السَّـمَاءَ الـدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (فصلت: 12)

وقد شرح العلم الحديث بعض مـا أشـار إليـه القـرآن الكريم من الموازين الضابطة للكون، وسنقتبس هنا بعض مـا ذكـره كنمـاذج للتـوازن الـدقيق للكـون وفـق الحكمـة الإلهية(1).

فالعلم ينص على أنه لو كـانت قشـرة الأرض أسـمك مما هي بمقدار بضعة أقدام، لامتص ثاني أكسيد الكربـون الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات.

ولو كان الهواء أرفع كثـيرا ممـا هـو عليـه، فـإن بعض الشهب الـتي تحـترق الآن بـالملايين في الهـواء الخـارجي كـانت تضـرب جميـع أجـزاء الكـرة الأرضـية، وهي تسـير بسـرعة تـترواح بين سـتة أميـال وأربعين ميلا في الثانيـة. وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق. ولــو

---

1) انظر: كتاب العلم يدعو إلى الإيمان، أ. كريسي مورسون رئيس أكاديمية العلوم في واشنطن.

كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكـانت العاقبـة مروعـة. أمـا الإنسـان فـإن اصـطدامه بشـهاب ضـئيل يسـير بسـرعة تفـوق سـرعة الرصاصـة تسعين مرة كان يمزقه إربا من مجرد حرارة مروره.

وينص على أن الهـواء سـميك بالقـدر اللازم بالضـبط لمـرور الأشـعة ذات التـأثير الكيميـائي الـتي يحتـاج إليهـا الـزرع، والـتي تقتـل الجـراثيم وتنتج الفيتامينـات، دون أن تضـر بالإنسـان، إلا إذا عـرض نفسـه لهـا مـدة أطـول من اللازم.

وينص على أن الأوكسـجين لـو كـان بنسـبة 50 في المائة مثلا أو أكثر في الهواء بدلا من 21 في المائـة فـإن جميـع المـواد القابلـة للاحـتراق في العـالم تصـبح عرضـة للاشتعال، لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شـجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر.

ولو أن نسـبة الأوكسـجين في الهـواء قـد هبطت إلى 10 في المائة أو أقـل، فـإن الحيـاة ربمـا طـابقت نفسـها عليها في خلال الدهور. ولكن في هذه الحالة كـان القليـل من عناصـر المدنيـة الـتي ألفهـا الإنسـان - كالنـار مثلا - تتوافر له.

ولا بأس أن نذكر هنـا ــ من بـاب وجـوه الحكمـة في الكون ـ واقعة فيها مثل بارز على أهمية كل كائن حتى لـو كان حشرة بسيطة قد لا يعيرها الإنسان أي اهتمام.

وهذه الواقعة حدثت منذ سنوات عديدة في اسـتراليا حيث زرع نوع من الصبار. كسياج وقائي. ولكن هذا الزرع

مضى في سبيله حـتى غطى مسـاحة تقـرب من مسـاحة انجلـترا، وزاحم أهـل المـدن والقـرى، وأتلـف مـزارعهم، وحال دون الزراعـة. ولم يجـد الأهـالي وسـيلة تصـده عن الانتشار ؛ وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت، يتقدم في سبيله دون عائق.

وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حـتى وجـدوا أخـيرا حشـرة لا تعيش إلا على ذلـك الصـبار، ولا تتغـذى بغيره، وهي سريعة الانتشـار، وليس لهـا عـدو يعوقهـا في استراليا. وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصـبار. ثم تراجعت، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقايـة، تكفي لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد.

والقرآن الكريم من خلال عرضه لبعض نماذج تـوازن الكون يدعونا إلى تسخير العلم لخدمة هذا التوازن حفاظا على وجودنا ووجود غيرنا على هذه الأرض.

ولكن العلم الحديث وقع في بعض الأيدي الآثمة الـتي استسخرته في مصالحها، فاختـل تـوازن الكـون في كثـير من النواحي.

ومن الأمثلـة الـتي يصـح ضـربها هنـا وصـف القـرآن الكريم السماء بكونهـا سـقفا محفوظـا، كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الانبياء:32)

فإن في ذلك إشـارة صـريحة إلى وجـوب المحافظـة على هـذا السـقف المحفـوظ، وهـذا الوجـوب يسـتدعي التعرف على كل ما يؤذيه لتجنبه.

والعلم الحديث يخدم هذا الجانب، ويؤكده، ويخــبر أن هذه البيئة التى جهزهـا اللـه تعـالى بكـل مقومـات الحيـاة لتصبح بيتاً آمناً للإنسان وتفي بكل متطلباته المعيشـية قـد حفظها الله تعالى وحماها من مخاطر الإشعاعات الكونيــة الفضــائية والشــهب والنيــازك الــتى تنــدفع من القضــاء الخارجي نحو الأرض.

لكن الفكر الجاحد الذي يتصور أنــه يســتمد من العلم الحديث يلغي كل هذه الاعتبارات، فلا يخضـع إلا لسـلطان الهـوى، فيغلب المصـالح الوقتيـة البسـيطة على مصـلحة الأرض جميعا.

وهذا الفكر هو الذي استسخر التكنولوجيا لتدمير هــذا السقف المحفوظ، وسنشرح باختصار ماذا فعل هذا الفكر المصـارع لتـوازن الكـون، ومـا سـيمكن أن يصـنعه إن لم يرعوي عن هذا السلوك.

فنسـبة ثـاني أكسـيد الكربـون نسـبة مقـدرة تقـديراً دقيقـاً، وهي تلعب دوراً مهمـاً جـداً فى إعالـة الحيـاة على سطح الأرض.

فالبيئـة بهـذه النسـبة الضـئيلة جـداً من ثـاني أكسـيد الكربون المقدرة تقديراً هادفاً اسـتطاعت أن تحتفـظ فى غلافهــا الجــوي القــريب من ســطح الأرض حيث يــتركز معظم ثاني أكسيد الكربـون (80 بالمائـة) بدرجـة حـرارة مناسبة تسمح بوجود الحياة على سطحها.

فالله تعالى قد أودع في هـذا الغـاز خاصـية امتصـاص الموجــات الحراريــة الأرضــية (الأشــعة تحت الحمــراء)

والاحتفاظ بها فى الغلاف الجـوي بمـا يعطي لهـذا الغلاف هـذه الدرجـة المناسـبة من الحـرارة الـتى تسـمح بوجـود الحياة.

ومعـني هـذا أن الاخلال بنسـبة هـذا الغـاز زيـادة أو نقصـاناً تعـني زيـادة أو نقصـاناً فى درجـة حـرارة الغلاف الجوي وما يحمل هذا الأمر من مخاطر كثيرة.

وقد حصل هذا الأمر، فنسبة ثاني أكسيد الكربون في زيادة مطردة فى الغلاف الجوي منذ الخمسينات من هــذا القرن.

ومن مخاطر هـذه الزيـادة ازديـاد حـرارة الأرض ممـا يسـبب انصـهار كميـات كبـيرة من الثلـوج فى منـاطق القطبين والجبـال، وهـذه الميـاه تتحـرك لتسـهم فى رفـع منسوب مياه البحار والمحيطات.

وهذه الزيـادة قـد تتسـبب في تعـرض مـدن سـاحلية كثيرة للغـرق، وتشـير سـجلات المـد والجـزر فى منـاطق كثيرة من العالم أن منسوب مياه البحار قد ارتفع بمقــدار 45 ملليمــتراً فى الفــترة من 1890 -ــ 1940، وأخــذ المنسوب في الارتفاع بمعـدل 3 ملليمـترات سـنوياً حـتي عام 1970، ثم ازداد المعدل ليصل إلى 14 ملليمـتراً فى الوقت الحاضر.

وقد تبين للعلماء أن تزايد نسبة ثاني أكسيد الكربــون لاترجع فقط إلى تزايد استهلاك مصادر الوقــود الأحفــوري (الفحم ـ النفط ـ الغاز الطبيعي)، وإنما جاءت أيضـاً نتيجـة التدهور الذى أصاب الغطاء النبـاتي الـذي يعـد المسـتهلك

الرئيسي لثاني أكسيد الكربون.

وخطورة هذا الوضع هي التي دعت إلى عقـد مـؤتمر دولي فى لنـدن فى فـبراير 1989 لمناقشـة الإجـراءات والوسائل الكفيلة بضبط إطلاق ثاني أكسـيد الكربـون فى الغلاف الجوي وتنمية مصادر استهلاكه لوقف هذه الزيـادة المطردة ومحاولة العودة بنسبته كما قدرها الله تعالى.

ومن الأمثلة التي يصح ضـربها هنـا ــ أيضـا ــ مـا نص عليه قوله تعـالى: وَالْأَرْضَ مَـدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَـا فِيهَـا رَوَاسِـيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (الحجر:19)

فالآية الكريمة تشير إلى أن عناصر البيئة - الحية منها وغير الحية - تتفاعـل وترتبـط ببعضـها في تناسـق دقيـق، يتيح لها أداء دورها بشكل متوازن ومتكامل، بحيث تحافظ على وجودها دون أن تتسبَّب في خلخلة منظومـة الحيـاة، وتهدِّد سائر الأحياء.

وهي تـدل على أن أيَّ خلـل في هـذا النظـام، يعـني الخطر العام على الأحياء جميعا، وللتدليل على ذلـك نـورد مثالا يتعلَّق بالنسيج الغابي، الـذي عملت فيـه يـد الإنسـان قطعـا واقتلاعـا، لتلبيـة حاجاتـه ونهمـه إلى الخشـب في مساكنه وقصوره.

فإنَّ تعرية البيئـة الغابيـة، سـيؤدي إلى اختفـاء معظم الأشـجار الـتي تعتمـد عليهـا كثـير من الحيوانـات، ملجـأ وأوكـارا، ومصـدرا للغـذاء.. وسـيؤدي بالتـالي إلى تعـرِّي التربة وتعرُّضها للانجراف، وما يعقب ذلك من عجز الأرض عن امتصاص الماء، وازدياد خطر التصحُّر.. وسيؤدي ذلـك

إلى خلخلـة دورة الأوكسـيجين وثـاني أوكسـيد الكربـون، باعتبار الأشجار مصـدرا بـل مصـنعا متجـدِّدا للأوكسـيجين، ومستهلكا لأوكسيد الكربـون، ونقصـان الأشـجار يزيـد في درجة التلـوُّث الهـوائي.. وسـيؤدي ذلـك أخـيرا إلى تقليـل تبخُّر المـاء النـاتج عن الأشـجار، بسـبب قطعهـا، فتصـاب المنطقة بالجفاف وتقل الأمطار.

هذا نموذج بسيط، وهيِّن من تصدُّع المنظومـة البيئيـة بسبب الإنسان.

ولو تعرَّضـنا للآثـار الخطـيرة الناجمـة عن الصـناعات الكيماوية ومركَّباتها العملاقـة، وآثـار نفاياتهـا السـامَّة على الأنهـار والبحـار، والحيـاة المائيـة، وعلى الغلاف الجـويِّ، وتسـمُّم الهـواء، لأفضـى بنـا الحـديث إلى مجلـدَّات من الحقـائق المـرَّة، والمخـاطِر الحقيقيـة الـتي تعـاني منهـا الحياة، ويدفع ثمنها الباهظ الإنسان نفسُـه، بمـا نجم عنهـا من أمراض مزمنة وتشوُّهات خِلقية.

الانتفاع:

لقـد اقتضـت حكمـة اللـه تعـالى أن يـتيح لهـذه المخلوقات التي تعمر الكون انتفاع بعضـها ببعض بحسـب درجاتها المختلفة.

وكـان من رحمـة اللـه المقترنـة بحكمتـه أن أتـاح للإنسان الانتفاع بكل مـا في الأرض من منـافع، كمـا قـال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة:29)

وفي عالم الأنعام أخبر تعالى أنه خلـق الأنعـام لينتفـع بها في الوجوه المشروعة، فقال تعـالى: وَالْأَنْعَـامَ خَلَقَهَـا لَكُمْ فِيهَـا دِفْءٌ وَمَنَـافِعُ وَمِنْهَـا تَـأْكُلُونَ (النحـل:5)، وقـال تعالى: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ (النحـل:66)، وقال تعالى: وَاللَّهُ جَعَـلَ لَكُمْ مِنْ بُيُـوتِكُمْ سَـكَناً وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنْ جُلُـودِ الْأَنْعَـامِ بُيُوتـاً تَسْـتَخِفُّونَهَا يَـوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَـوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَـا وَأَشْـعَارِهَا أَثَاثـاً وَمَتَاعـاً إِلَى حِينٍ (النحـل:80)، وقـال تعـالى: وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَـامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (المؤمنـون:21)، وقـال تعـالى: اللَّهُ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (غافر:79)

ومن هذا الباب الوحيد أتيح للإنسـان أن يتصـرف بمـا قد يبدو ضارا بهذه الأحياء.. ومع ذلك، فـإن المـؤمن ينتفـع بهذا النوع من الانتفاع، وهو ممتلئ بالرحمة، يستشعر منة الله الذي أتاح له أن يتنعم بهذا الضرر الذي يصـيب غـيره، وقد روي أن رجلا قال:(يا رسـول اللـه إني لأرحم الشـاة أن أذبحها)، فقال:(إن رحمتها رحمك الله)(1)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(من رحم ذبيحة رحمه الله يوم القيامة)،وفي رواية:(من رحم ولـو ذبيحـة عصفور رحمه الله يوم القيامة)(2)

1) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

2) رواه الطبراني في الكبير.

وقال بعضهم لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إني لأجد العنز لأذبحها فأرحمها قال: (وإن رحمتها رحمك الله)(1)

ومع ذلك، فإن النصوص المقدسة فرضت من الآداب ما يخفف من شدة الضرر الذي يصيب الكائنات عند انتفاعنا بها:

فقد أرشدنا ﷺ إلى الكيفية المثلى للاستفادة من الحيوان مع عدم إيذائه ما أمكن، فقد رأى رسول الله ﷺ رجلا أضجع شاة وهو يحد شفرته، فقال النبي ﷺ:(أتريد أن تميتها موتات، هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها)(2)

ومر رسول الله ﷺ برجل وهو يجر شاة بأذنها، فقال رسول الله ﷺ:(دع أذنها وخذ بسالفتها (3)) (4)

وذكر ﷺ بعض وجوه الإحسان في الذبح، فقال: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)(5)

---

1) رواه الطبراني في الكبير وفيه عثمان بن عبد الرحمن الجمحي قال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به.

2) رواه الطبراني والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

3) السالفة مقدم العنق.

4) رواه ابن ماجة.

5) رواه مسلم.

ومن هذا الباب ما سنه الشارع من الـذبح بـدل غـيره مما تمارسه الجاهليات المختلفة، وقد تفطن القــدماء إلى دور الذبح في إزالة الألم، فهذا ابن الجـوزي يقـول:(وأمـا ألم الـذبح فانـه يسـتر، وقـد قيـل أنـه لا يوجـد أصـلا لأن الحساس للألم أغشية الدماغ، لأن فيه الأعضاء الحساسة، ولذلك إذا أصابها آفة من صرع أو سكتة لم يحس الإنسان بألم فإذا قطعت الأوداج سـريعا لم يصـل ألم الجسـم إلى محـل الحس ولهـذا قـال عليـه الصـلاة والسـلام إذا ذبح أحدكم فليحد شفرته وليرح ذبيحته)(1)

ومثــل ذلــك نص العلم الحــديث على أن الــذبح من العنق هو أنجح وسيلة للإجهاز السـريع على الحيـوان بغـير تعذيب ولا تمثيل إذ أنه من الثابت علميـا أن الرقبـة حلقـة الوصـل بين الـرأس وسـائر الجسـد فـإذا قطـع الجهـاز العصـبي شـلت جميـع وظـائف الجسـم الرئيسـية، وإذا قطعت الشـرايين والأوردة توقـف الـدم عن تغذيـة المخ، وإذا قطعت الممـرات الهوائيـة وقـف التنفس وفي جميـع هذه الحالات تنتهي الحياه سريعا.

بالإضافة إلى هذا، فإن الذبح يرتبط بمصلحة الإنسـان نفسه.. فالدم هو المجرى الـذي تلقى فيـه مـواد الايض أو التمثيل الغذائي كلها ففي ما هو مفيد وما هو ضار مـؤذى، والكائنات المتطفلة في الجسـم تفـرز سـمومها في الـدم ناهيك عن وجودها في الـدورة الدمويـة في بعض مراحـل تطورها، ولهذا فالدم غذاء محرم في الإسلام.

---

1) تلبيس إبليس.

وقد كان أهل الجاهلية يجبون أسنمة الإبل ـ وهي حية ــ ويقطعـون أليـات الغنم وكـان في ذلـك تعـذيب لهـذه الحيوانات، فلهذا حرم الرسول ﷺ الانتفـاع بهـذه الأجـزاء، فقال: (ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة)(2)

ومن هـذا البـاب نهيـه ﷺ عن التمثيـل بالبهـائم، فقـد (نهى رسول الله ﷺ أن يمثل بالبهائم)

ومنه نهيه عن صبر البهائم، ونهيه عن صيد الحيوان أو قتلـه لغـير غـرض، قـال ﷺ:(لا تتخـذوا شـيئا فيـه الـروح غرضا)

ومنه نهيه ﷺ عن الرمية، فقد روي أن النــبي ﷺ نهى عن الرمية أن ترمي الدابة، ثم تؤكل ولكن تذبح ثم يرمــوا إن شـاءوا، وقـد مـر ابن عبـاس على أنـاس قـد وضـعوا حمامة يرمونها فقال موجها:(نهى رسول الله ﷺ أن يتخذ الروح غرضا)

4 ـ الطهارة :

كل ما نراه في الكون ـ في أصل خلقتـه ــ طـاهر لم يتدنس بأي أذى يجعل من منفعتـه مضـرة، ومن مصـلحته مفسدة.

ولهــذا الأصــل ينص الفقهــاء على أن (الأصــل في الأشياء الطهـارة)، وهي قاعـدة لا تعـني المعـنى التعبـدي

---

(2) رواه البزار.

فقط، بل تعني كذلك الحفاظ على الكون المسخر بالهيئة التي خلق عليها، لأن أي تغيير قد تنقلب عواقبه على عكس المراد.

ولعل أخطر ما يصيبه التلوث، وأسهل ما قد يتعرض للتلوث هو الماء باعتبار سيولته المستعدة لتحلل أي شيء فيه.

ولهذا أولى القرآن الكريم أهمية كبيرة للماء، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم 49 مرة، وامتن الله به على عباده ذاكرا وجوه الحكم في خلقه، قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنـزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْه شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُل الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) (النحل)

ولكل هذه الخيرات النابعة من نعمة الماء يصفه القرآن الكريم بأنه مبارك أي كثير العطاء، قال تعالى: وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (قّ:9)

ولكن كل هذه المنافع مقيدة بوصف الطهر، قال تعالى: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً (الفرقان: 48، 49)

وفي ذلك إشارة إلى أن منافعه تقتضي وجود طهوريته، فإن سلبها تحول من دور الإحياء الذي نص عليه قوله تعالى: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ)

(الانبياء: 30) إلى دور الإماتة.

والعلم الحديث أيد هذه النظرة القرآنيـة، ففصـل في المنافع الجمة التي ورد القرآن الكـريم ببيانهـا، فنص على أن الماء يشـكل 70% من مسـاحة اليابسـة ويشـكل في المتوسط 65% من وزن الإنسان والكائنات الحية.

وحكمة هذه النسبة المرتفعـة للمـاء هـو دوره الكبـير في سـير التفـاعلات الكيميائيـة داخـل أجسـام النباتـات والحيوانات.

وسر ذلك مـا يملكـه من خـواص كيميائيـة وفيزيائيـة، منها بناؤه الفريد الذي يجعل جزيئاته متماسـكة ومرتبطـة بروابـط هيدروجينيـة، ويصـبح كـل جـزيء مرتبطـاً بأربعـة جزيئات مجـاورة، وكـل منهـا بأربعـة، وهكـذا تبـدوا جميـع الجزيئـات مرتبطـة ببعض في شـبكة فراغيـة متماسـكة، ولولا هذا لكانت درجة غليان الماء (-80م) ودرجة تجمـده (-100 م) ولاستحال جود الماء على شكل سائل وصـلب على سطح الأرض ولاستحالت الحياة.

وهو لهذا يمتص قدرة حرارية كبـيرة لكي يتبخـر حيث كـل غـران من المـاء السـائل يحتـاج إلى 540 حريـرة ليتحول إلى بخار، وهذه الخاصية تعطي المـاء دوراً فريـداً في نقل القدرة من مكـان لآخـر، فالمـاء الـذي يتبخـر من المحيطات تسوقه الريـاح مئـات وآلاف الكيلومـترات إلى أماكن باردة فعند تبرد البخار وتحببه وتساقطه على شكل قطرات مطر ينشر معه الطاقة التي أمتصها أثناء تبخــر ه فيسـاهم في رفـع درجـة الحـرارة في تلـك المنـاطق

وتلطيف حرارة الجو وكذلك في أثناء تساقط الثلــوج فكم هذه الحرارة المنتشرة كبيرة إذا علمنا أنه يتبخر كـل عـام 520 ألف كيلوا متر مكعب من الماء.

إلى غـير ذلـك من الخـواص، الـتي تنتج عنهـا المنـافع الكثيرة.

والعلم الحـديث بين كـذلك ضـوابط اسـتعمال المـاء والمخاطر التي تنجر عن سوء التعامل معه، ومن أخطرها ما يسمى بالمطر الحامضـي، الـذي يشـير وصـف القـرآن الكريم للماء بالطهر على وجوب الحذر منه.

لكن المدنيــة الحــديث لا تبــالي بهــذا النهي الربــاني المؤيد بالعلم حتى أصبح المطر يسقط في مناطق كثـيرة ـ خاصة فى البيئات الصناعية ـ مطراً حمضياً يهلك الحـرث والنسـل، فقـد بلـغ الأس الهيـدروجيني للمطـر فى بعض المناطق الصناعية درجة عالية تجعل ميـاه الأمطـار عاليـة الحموضـة محدثـه أضـرار كثـيرة، فقـد فقـدت مئـات من البحيرات فى أمريكا الشمالية وشمال غرب أوربا ـ نتيجــة ارتفاع درجـة حموضـة مياههـا بسـبب المطـر الحمضـي ـ معظم ما بها من ثروات سمكية وأصـبحت 90 بحـيرة فى منطقة جبال أدروونداك فى ولايـة نيويـورك ــ مثلا ــ خاليـة تماماً من الأسماك تحت تـأثير الحموضـة المتزايـدة لميـاه البحيرات وهي حموضة قاتلة للأحياء.

ولا يقتصر تأثير المطر الحمضـي على الأضـرار بميـاه الأنهار والبحيرات وإنما يمتد تأثيره إلي مخاطر كثيرة فقــد أعلن فريق من الباحثين فى جامعة نيوها مبشير بالولايات

المتحــدة الامريكيــة (1985) أن المطــر الحمضــي يمنــع حاسة الشم عند سمك السالمون، ولهذا يفقد قدرته على إيجاد طريقة نحو مجاري الأنهار العليا من أجل وضع بيضة وإتمام عملية الفقس، كما بـدأت تضـر الأمطـار الحمضـية بالمحاصيل الزراعية تحت تأثير ترسب كميـات كبـيرة من المواد الحمضية فى التربة مما يغير من تركيبها الكيمــاوي فى اتجاه الحموضية المتزايدة التى تضر بل تقتل النباتـات إذ تعمل الحموضـة الزائـدة فى التربـة على إفقـار التربـة نتيجـة إزالـة الكاثيونـات " الأيونـات الموجبـة " منهـا الـتى تعتبر القاعدة الأساسـية لتغذيـة النباتـات مثـل الكالسـيوم والمغنيسيوم والبوتاسيوم.

كمـا يـؤدي المطـر الحمضـي إلى تـدمير الكثـير من الأشجار والنباتات حيث تصاب بظاهرة المـوت الـتراجعي، حيث تموت الأشجار واقفه كمـا يقولـون إذ تتلـف الأوراق العلوية المعرضـة مباشـرة للمطـر الحمضـي الـذى يقتـل المادة الخضراء فيها ثم ينتقل التأثير بعد ذلـك الى الأوراق التحتية فقد أوضح تقرير من ألمانيـا الاتحاديـة (1980) أن مساحة من الغابات تقدر بنحو 560 ألف هكتار أي حوالي 7ر7% من مجمــوع مســاحات الغابــات في ألمانيــا قــد دمرت أو أتلفت بدرجات متفاوته نتيجـة المطـر الحمضـي والضباب الحمضي.

وعندما نتساءل عن سبب هذا الانحراف عن الحكمــة الإلهيــة في الحفــاظ على طهــارة الميــاه، نجــده الجشــع والحرص على الكسب بغض النظر عن المفاسد الحاصلة، فعندما نستخدم الأسـمدة الكيماويـة والمبيـدات الحشـرية

مثلاً بدرجة كثافة عاليـة، خوفـا من الجـوائح، وحرصـا على الكسـب، وسـعيا إلى زيـادة إنتاجيـة المحاصـيل الزراعيـة نصــل إلى إفســاد البيئــة والإنتــاج معــاً، لأن الاســتخدام المكثف لهذه الكيماويات تسـرب كميـات كبـيرة منهـا إلى الهواء ومصادر المياه وإفسادهما، فضلاً عن إنتاج محاصيل ملوثة كيمائيا.

وفي تقريــــر صــــادر عن دول مجموعــــة التعــــاون الاقتصادي الأوربي (1988) حذر من تفاقم التلوث المائي النـاجم عن تكـثيف اسـتخدام الأسـمدة الكيماويـة، ودعـا التقرير إلى الحد من الاستخدام المكثف (الإسراف) لهـذه الأسمدة الكيماوية لما لها من مخاطر كبـيرة على الأحيـاء المائية.

فإذا قيل لهـؤلاء: كفـوا عن هـذا الإفسـاد في الأرض، قـالوا كمـا نص القـرآن الكـريم: ﴿ إِنَّمَـا نَحْنُ مُصْـلِحُونَ﴾ (البقـرة:11)، ويعقب القـرآن الكـريم على قـولهم هـذا بقوله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِـدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْـعُرُونَ﴾ (البقرة:12)

* * *

وكمثال آخر على حث الشريعة على وجوب الحفـاظ على طهارة البيئـة الحيويـة النهي عن الجلالة(1)، وهي مـا يأكـل القـاذورات من الحيوانـات، أو هي الدابـة الـتي تتبـع النجاسـات وتأكـل الجلـة ، وهي البعـرة والعـذرة، ففي الحديث: (نهى رسول الله ﷺ عن الإبل الجلالـة أن يؤكـل

1) وهي الدابة التي تأكل العذرة أو غيرها من النجاسات.

لحمها ولا يشرب لبنها ولا يحمل عليها إلا الأدم ، ولا يذكيها الناس حتى تعلف أربعين ليلة)(1)

بـــل ورد النهي عن ركوبهـــا، ففي الحـــديث: (نهى رسول اللـه ﷺ عن الجلالـة في الإبـل أن يـركب عليهـا أو يشرب من ألبانها) (2)، وقد علـل ذلـك بأنهـا ربمـا عـرقت فتلوث بعرقها.

ومن هـــذا البـــاب نهي الشـــرع أن تلقى في الأرض النجاسات ونحوها، وقد روي عن بعضهم قال:(كنـا نكـري أراضي رسول الله ﷺ ونشـترط على من يكريهـا ألا يلقي فيها العذرة)(3)

---

1) رواه الدارقطني والبيهقي.

2) رواه أبو داود.

3) رواه البيهقى.

رابعا ـ الكون المقروء

ينظر العارفون بحـزن إلى المختـالين بسـبب رحلتهم إلى القمر، أو تجولهم في الفضاء، أو مـا يحلمـون بـه من رقي في الكـواكب، أو مـا يوهمـون بـه أنفسـهم من غـزو للفضـاء، لأنهم يعتـبرونهم لم يفعلـوا سـوى أن رحلـوا من كون إلى كون..

رحلـوا من تـراب الأرض ليقعـوا على تـراب القمـر، وتخلصوا من جاذبية الأرض لتحتضنهم جاذبية القمر.

أما رحلة العارفين، فهي من الكون إلى المكون، كمـا قال ابن عطاء الله:(لا ترحل من كون إلى كـون، فتكـون كحمار الرحى يسير والـذي ارتحـل إليـه هـو الـذي ارتحـل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكـون: ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم:42)

ولذلك يعتبرون سكون الإنسان للأشياء وعدم عبــوره منها وقوفا، بل سقوطا:

يقول أحدهم معبرا عن ذلـك:(لـو أن رجلا دخـل إلى بستان فيه من جميـع مـا خلـق اللـه تعـالى من الأشـجار، عليها من جميع ما خلق اللـه تعـالى من الأطيـار، فخاطبـه كل طائر منهـا بلغتـه، وقـال: السـلام عليـك يـا ولي اللـه، فسكنت نفسه إلى ذلك كان في يدها أسيرا)

ولذلك ينظرون إلى الكـون المسـبح قبـل أن ينظـروا إلى الكون المسخر، فيجتهدون في تفقه أسرار تسـابيحه،

قـال الغـزالي:(فـإذن جميـع أقطـار ملكـوت السـموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بجسـمه وشخصـه، فهـو من مطالعـة جمال الملكوت في جنة عرضها السـموات والأرض. وكـل عـارف فلـه مثلهـا من غـير أن يضـيق بعضـهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقـدر تفـاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند اللـه ولا يدخل في الحِصر تفاوت درجاتهم)(1)

وهذا الرحيل هو سنة رسول الله ﷺ، روى ابن عباس أنه بات عند نبي الله ﷺ ذات ليلة فقـام نـبي اللـه ﷺ من الليل، فخرج فنظر إلى السماء، ثم تلا هذه الآية الـتي في آل عمــران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْــقِ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ﴾ (آل عمـران:190) إلى آخر السورة. ثم قـال: (اللهم اجعـل في قلـبي نُـورا، وفي سَـمْعي نـورا، وفي بَصَـري نـورا، وعن يميـني نـورا، وعن شمالي نـورا، ومن بين يَـدَيّ نـورا، ومن خَلْفي نـورا، ومن فَوْقي نورا، ومن تحتي نورا، وأعْظِم لي نورا يوم القيامـة) (2)

وأخــبر ﷺ عن بعض الحجب الـتي تحـول دون تأمـل خلــق اللــه، فقــال ﷺ:(انتهيت إلى الســماء الســابعة، فنظرت فإذا أنا فوقي برعد وصواعق، ثم أتيت على قــوم بطونهم كـالبيوت فيهـا الحيـات تـرى من خـارج بطـونهم،

---

1) الإحياء.

2) رواه البخاري ومسلم.

فقلت:(من هؤلاء؟) قال:(هؤلاء أكلـة الربـا) فلمـا نـزلت وانتهيت إلى سماء الدنيا فـإذا أنـا بـرهج ودخـان وأصـوات فقلت:(من هؤلاء؟) قال:(الشياطين يحرفـون على أعين بـني آدم أن لا يتفكـروا في ملكـوت السـماوات والأرض، ولولا ذلك لرأت العجائب)(1)

وسـنتجول في هـذا الفصـل مـع العـارفين في بعض جنان الملكوت، لنعيش بعض أشـواقهم، ونـذوق من بعض شرابهم.

ونحن نقـر في بدايـة هـذا الفصـل صـعوبة الكلام في هذا الباب من نـواح متعـددة، منهـا مـا لـه علاقـة بالـذوق، ومنها ما له علاقـة بـالتعبير، ومنهـا مـا لـه علاقـة بالعقـل، ومنها ما له علاقة بأولئك المترصدين لكـل كلمـة ليحكمـوا من خلالها بالكفر أو البدعة.

ولذلك سنحاول أن نبسط الكلام في الموضـوع بقـدر الطاقة، ونحاول أن نلتمس من التعابير ما لا يثير أحـدا من الناس.

1 ـ الفناء:

أول خطوة يبـدأ بهـا السـالكون طريـق المعرفـة هي إعدام رؤية الكون الذي يتوهمونه، والذي لا حقيقة وجودية له.

فلا حقيقة للكون القائم بذاته، أو الذي يستمد وجـوده من ذاته، كما يستمد تدبيره من ذاته.

---

1) رواه أحمد.

وهذا الإعدام يعبرون عنه بالفناء(1) عن رؤية الأكوان، ويعرفونه بأنه (اضمحلال مـا دون الحـق)، فيضـمحل عن القلب والشهود.

قـال الغـزالي عنـد ذكـره لمـراتب السـالكين في التوحيـد:(الرابعـة أن لا يـرى في الوجـود إلا واحـداً، وهي مشاهدة الصديقين، وتسميه الصوفية الفنـاء في التوحيـد؛ لأنه من حيث لا يرى إِلا واحداً، فلا يـرى نفسـه أيضـاً، وإذا لم ير نفسه لكونـه مسـتغرقاً في التوحيـد، كـان فانيـاً عن نفسـه في توحيـده، بمعـنى أنـه فـني عن رؤيـة نفسـه والخلق)(2)

ويقـول ابن القيم شـارحا هـذا الحـال: (وإن لم تكن ذاته فانية في الحال مضـمحلة، فتغيب صـور الموجـودات في شهود العبد، بحيث تكون كأنها دخلت في العـدم، كمـا كانت قبل أن توجد، ويبقى الحق تعالى ذو الجلال والإكرام وحده في قلب الشاهد، كما كان وحده قبل إيجاد العوالم) (3)

وهذا الفناء مرحلـة من مراحـل السـير، أو هـو لمعـة

---

1) يقصد بالفناء في كلام العارفين أمران:

1 ـ فناء سلوكي، وهو تغيير معنوى للسالك بإفناء ميوله ورغباتـه جميعـا من المخالفـة إلى الموافقة.

2 ــ فنـاء بمعـنى التجريـد العقلى وعـدم الالتفـات إلى المـدركات والأفكـار والأفعـال والأحاسيس وذلك بانحصاره فى التفكير فى الله، وهذا ما نريده هنا.

2) الإحياء: (4/212).

3) مدارج السالكين:3/370.

تلمع في ذهن العارف ووعيه بعد المكابدة والتأمل، ليعــود بعـدها إلى الكـون الحقيقي، وهـو الكـون المؤسـس بنـور الله، والموجود بإبداع الله، ليقرأه باسم الله.

فالعارف لا يحتقر الكـون بإعدامـه، وإنمـا يرفعـه بـأن يلبسه لباس العبودية والتوجه إلى الله.

وكمـا أن أي لا بس يحتـاج لخلـع ثوبـه القـديم ليلبس الجديـد، فكـذلك العـارف يفـني الكـون القـديم، أو لبـاس الكون القديم، وهو لباس لا اسم له، ليلبسه لباس الانتماء إلى الله.

ولذلك لا يوجد من يحترم الكـون كـاحترام العـارفين، ولا يوجــد من ينســب الكــون إلى مصــدره كمــا ينســبه العارفون، فهم لا يقصـرون الشـرك على الاعتقـاد بوجـود الند لله، بل يعتبرون من الشرك أو أساس الشـرك نسـبة الوجود الذاتي للأشياء.

وعلى هـذا المعـنى اتفـق العـارفون، وقـد جمـع ابن عطاء الله كل أقـوالهم في ذلـك بعبـارة مختصـرة فقـال: (الأكوان ثابتة بإثباته، وممحوة بأحدية ذاته)

فالأكوان ـ كما يراها العـارفون، وكمـا هي في حقيقـة الحال ـ عدم محض من حيث ذاتهـا، ومـا ثبوتهـا إلا بإثباتـه تعالى وإيجاده لها وظهوره فيها.

وهم يستشــهدون لهــذا المعــنى بــالمعنى الإشــاري المبثوث في ثنايا قوله تعالى: كُلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ إِلَّا وَجْهَـه) (القصص: 88))، فيفهمون منها أن كل ممكن هـو باعتبـار

ذاتـه هالـك، أو هـو عـدم محض ونفي صـرف، وإنمـا لـه الوجود من جهة ربه، فهو هالك باعتبار ذاته، موجـود بوجـه ربه، أي أن وجوده قاصر على جهة ربه.

وربما سياق الآية قد يفيـد هـذا المعـنى، فهـو قـد ورد في أثنـاء الـدعوة إلى توحيـد اللـه في الـدعاء والعبـادة، ليقول من جهة لا تتخذ أي ند تدعوه من دون الله فسيأتي اليوم الذي يهلك فيه، فلا يبقى شيء غير اللـه، وقـد تفيـد ما يريـده خـالعو لبـاس الكـون المعـدوم من نفي الوجـود الذاتي، فلذلك يكون من دعا غير الله، متوجها بالدعاء إلى الوهم، قال تعالى:﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهـاً آخَـرَ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ كُـلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ إِلَّا وَجْهَـهُ لَـهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ﴾ (القصص:88)

ولا تنـافي بين المعنـيين، ولا تصـادم بينهمـا، ولا يلغي أحدهما الآخر، بل إن المعنى الأول مؤسـس على المعـنى الثاني.

وهكذا يفهم العارفون من كـل النصـوص الـواردة في إثبات وحدانية الحق أو أحديته أو أحقيته:

وقد كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة في جوف الليل قال من ضـمن دعـاء التهجـد:(أنت الحـق ووعـدك الحـق وقولـك الحـق ولقـاؤك الحـق والجنـة حـق والنـار حـق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق) (1)

ففي قوله ﷺ:(أنت الحق) أي واجب الوجود؛ فأصـله

(1) رواه البخاري ومسلم.

من حق الشيء أي ثبت ووجب، فوجـود اللـه هـو الوجـود الحقيقي إذ وجوده لنفسه، لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم؛ وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعـدم، ويجـوز عليه لحاق العدم، ووجوده من موجـده لا من نفسـه، فهـو معدوم باعتبار ذاته في كل الأحوال، كما قال العارف:

الله قـل وذر الوجـود	إن كنت مرتـــــاداً
فالكــل دون اللــه أن	عـدم على التفصيل
واعلم بأنك والعــوالم	لولاه في محو وفي
من لا وجود لذاته من	فوجـوده لـولاه عين
والعـارفون بـربهم لم	ســـوى المتكـــبر

وعــبر الآخـر عن انشـغال العـارف باللـه عن الكـون بقوله:

شـــــغل المحب عن	في حب من خلـــــق
والعـــارفون عقـــولهم	عن كـل كـون ترتضـيه
فهم لديه مكرمون وفي	أحـــوالهم مجهولـــة

وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمـة قالهـا الشـاعر، كما ورد في الحديث كلمة لبيد(1): ألا كل شيء ما خلا الله باطل(2).

---

1) وقد ورد الحديث بصيغ مختلفة منها أشعر كلمة تكلمت بها العـرب، وفي روايـة أصدق كلمة قالها شاعر، وفي أخرى أصـدق بيت قالـه الشـاعر، وفي أخـرى أصـدق بيت قالته الشعراء، وفي أخرى أصدق كلمة قالتها العرب.

2) رواه البخاري ومسلم.

* * *

والقـرآن الكـريم يـدلنا على التأمـل ومعايشـة هـذه المعاني من خلال ذكره لمبدأ خلقـه الأشـياء، وكأنـه يردنـا إلى عدمها الأصلي، ليصاحبنا معنـاه في تعاملنـا معهـا، فلا نعطيها من الوجود فوق ما تستحقه:

وقـد قـال تعـالى عن مبـدأ الإنسـان:﴿ هَـلْ أَتَى عَلَى الْأِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ (الانسان:1)

وأخبر تعالى أن الغفلة عن أولية الإنسان هي السـبب في جحوده وكبريائه، فقال تعالى:﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يّـس:78)، ولهذا صحح له هذا الجهل بقوله تعالى:﴿ قُلْ يُحْيِيهَـا الَّذِي أَنْشَـأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يّـس:79)

ومثلما جاءت الآيات الكثيرة تبين أولية الإنسان لتـدل على أنه ليس قائما بذاته، بل هو قائم بقيوميـة اللـه، جـاء الحـديث عن خلـق الأشـياء جميعـا، بـل جـاء الحث على السير في الأرض لاكتشاف مبدأ الخلق، ومن ثم اكتشـاف أنها مخلوقة وليست قائمة بذاتها، قال تعالى:﴿ قُلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَـدَأَ الْخَلْـقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِـئُ النَّشْـأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت:20)

ومن هذا البـاب جـاءت أسـماء اللـه تعـالى الـتي نص عليها قوله تعالى:﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَـاطِنُ وَهُـوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:3)

فالتأمـل في المعـاني العميقـة الـتي تحملهـا هـذه

الأسـماء يلبس الأشـياء جميعـا ثـوب العـدم، ليبقى الحـق وحده هو المتفرد بالوجودالحقيقي.

يقول سيد قطب مبينا عمق المعاني التي تـدل عليهـا هذه الأسـماء الحسـنى:(ومـا يكـاد يفيـق من تصـور هـذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيـان البشـري وتفيض، حـتى تطالعه حقيقة أخـرى، لعلهـا أضـخم وأقـوى. حقيقـة أن لا كينونـة لشـيء في هـذا الوجـود على الحقيقـة. فالكينونـة الواحدة الحقيقيـة هي للـه وحـده سـبحانه ؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء، عليمة بكـل شـيء ﴿ هُـوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:3)

ويقول عن المعاني التي يستشعرها، وهــو يعيش في ظلال هـذه الأسـماء:(الأول فليس قبلـه شـيء. والآخـر فليس بعده شيء. والظاهر فليس فوقه شـيء. والبـاطن فليس دونـه شـيء.. الأول والآخـر مسـتغرقا كـل حقيقـة الزمان، والظاهر والباطن مسـتغرقا كـل حقيقـة المكـان. وهمـا مطلقتـان. ويتلفت القلب البشـري فلا يجـد كينونـة لشيء إلا لله. وهذه كـل مقومـات الكينونـة ثابتـة لـه دون سواه. حتى وجـود هـذا القلب ذاتـه لا يتحقـق إلا مسـتمدا من وجود الله. فهـذا الوجـود الإلهي هـو الوجـود الحقيقي الذي يستمد منـه كـل شـيء وجـوده. وهـذه الحقيقـة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته. وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود) (1)

---

1) في ظلال القرآن.

وقد عبر القرآن الكـريم ــ كـذلك ــ عن هـذا المعـنى باسم الله (الأحـد) في قولـه تعـالى:﴿ قُـلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ﴾ (الاخلاص:1)، وهو اسم عظيم يحوي ـ مع التأمل ـ الكثـير من الدلالات، ولهذا لما خشي رسـول اللـه ﷺ أن لا يقـدر حق قدره ـ كما قد لا تقـدر المعـاني الـواردة في السـورة حق قـدرها ــ ذكـر أن هـذه السـورة ــ الـتي تحـوي هـذه الحقيقة الجليلة ـ والتي نتوهمها صغيرة تعدل ثلث القـرآن كما روي عن أبي سعد، أن رجلا سمع رجلا يقرأ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الاخلاص:1) يرددها، فلما أصبح جـاء إلى النـبي ﷺ فذكر ذلك له - وكأن الرجل يتقالهـا - فقـال النـبي ﷺ: (والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن)(1)

ولهـذا كـان بلال في رمضـاء مكـة في بدايـة الإسـلام يصيح بها في نشـوة عظيمـة، وقـد فـني عن كـل العـذاب المحيط به:(أحد أحد)

ولا غرابة في كل هذا ـ كما يقول سيد قطب ـ (فـإن الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها: قل هو الله أحد . هـذه الأحديـة عقيـدة للضـمير، وتفسـير للوجـود، ومنهج للحياة)(2)

ولهذا ـ خلاف ما قد نتصور ـ فإن غاية رسـالة رسـول الله ﷺ لم تكن الدعوة والتربية على معنى التوحيـد الـذي

---

1) رواه ابن حبان، وفي حديث آخر، قال رسول الله ﷺ:(أيعجز أحدكم أن يقرأ في كل ليلة ثلث القـرآن قـالوا نحن اعجـز من ذلـك واضـعف قـال: (إن اللـه عـز وجـل جـزا القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله احد جزا من أجزاء القرآن)رواه أحمد ومسلم.

2) في ظلال القرآن.

ينفي الشريك فقط، وإنما الدعوة والتربية على معنى الأحدية الذي ينفي الوجود الذاتي لغير الله.

وعلى كليهما تقوم حياة المؤمن، ومن كليهما يستمد العارف.

وقد شرح سيد قطب بتعبيره الجميل المعاني التي يعيشها العارف، وهو في ظلال هذا الاسم الجليل، فقال:(إنها أحدية الوجود.. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته. وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده. وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية)(1)

وهذه الحقيقة هي التي تتأسس عليها كل حقائق المعرفة والسلوك، وهي النهاية التي ينتهي إليها سلوك العارف ليبدأ بها استمداده، فهو ما دام ينظر إلى الوجود نظرة الشريك الذي يزاحم ربه في وجوده، لا يستمد من هذا الوجود غير الجهل والتشتت، لكنه إن خلع عنه هذا الوجود المشرك، وحلاه بحلية الأحدية، فإن الوجود كله يصبح عيونا تفيض بالمعارف على قلبه.

ولهذالا يفهم العارفون من قول (لا إله إلا الله) ما يفهمه الكثير من قصر معناها على (لا معبود بحق إلا الله)، بل يفهمون ذلك، ومعه يفهمون أن (لا موجود بحق إلا الله)

* * *

1) في ظلال القرآن.

ولم يخالف أحد من العلماء في صحة هـذه المعـاني التي يتحدث عنها العارفون(1).

فهي معان شرعية تدل عليها النصـوص الكثـيرة، بـل يدل عليها العقل، ويستطعمها الذوق.

والرمي لأجل هذا بالبدعة والضلال لا دليـل عليـه، ولا مبرر له.

وبما أن بعض الناس ممن يـدعون الانتسـاب إلى ابن القيم أو ابن تيمية يخول لنفسـه الحكم بالبدعـة والضـلالة بسبب هذه المقولات، فإنـا سـنود رأيهمـا هنـا، لا من بـاب الجدل الذي نهينا عنه، وإنما من باب إلزامهم بما يلزمــون به أنفسهم.

تحدث ابن القيم عن الفناء والبقاء في كتبـه الكثـيرة، وممـا قالـه في مـدارج السـالكين عنـد حديثـه عن منزلـة الفناء:(الفناء ضد البقاء، والباقي إما باق بنفسـه من غـير حاجة إلى من يبقيه، بل بقاؤه من لوازم نفسـه وهـو اللـه تعالى وحده، وما سواه فبقاؤه ببقاء الـرب، وليس لـه من نفسه بقـاء، كمـا أنـه ليس لـه من نفسـه وجـود، فإيجـاده وإبقاؤه من ربـه وخالقـه، وإلا فهـو ليس لـه من نفسـه إلا العدم، قبل إيجاده والفناء بعد إيجاده)(2)

ويرفع توهم أن المراد بأن نفسه وذاته اقتضت عدمه

---

1) باسـتثناء بعض الحرفـيين الـذين لم تسـتطع عقـولهم أن تفهم هـذه المعـاني العميقة، ولم تتح لهم أذواقهم أن تستشعرها.

2) مدارج السالكين: 3/369.

وفناءه بقوله:(إنما الفناء أنك إذا نظرت إلى ذاته بقطع النظر عن إيجاد موجده له كان معدوما، وإذا نظرت إليه بعد وجوده مع قطع النظر عن إبقاء موجده له استحال بقاؤه، فإنه إنما يبقى بابقائه كما أنه إنما يوجد بإيجاده فهذا معنى قولنا إنه بنفسه معدوم وفان فافهمه)(1)

أما ابن تيمية، فتحدث في رسائلة كثيرا عن هذه الحال، وإن كان يعيب عليه نقصه عن الكمال وهو يتفق في ذلك مع كل من تحدث عن هذا الحال..

يقول في مجموع الفتاوى:(الفناء الذي يوجد فى كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور: أحدها فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب والتوكل عليه وعبادته وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو فى الحقيقة عبادة القلب وتوكله واستعانته وتألهه وإنابته وتوجهه إلى الله وحده لاشريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال، وليس لأحد خروج عن هذا، وهذا هو القلب السليم الذي قال الله فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: 89)، وهو سلامة القلب عن الإعتقادات الفاسدة ومايتبع ذلك.

وهذا الفناء لاينافيه البقاء، بل يجتمع هو والبقاء، فيكون العبد فانيا عن إرادة ما سواه وإن كان شاعرا بالله وبالسوى وترجمته قول (لا إله إلا الله)، وكان النبى ﷺ يقول:(لا اله الا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن) وهذا فى الجملة هو أول الدين وآخره.

---

1) مدارج السالكين: 3/369.

الأمر الثانى فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء عن الشهاده، ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه، فهذا الفناء فيه نقص، فإن شهود الحقائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مدبرا لعباده آمرا بشرائعه أكمل من شهود وجوده أو صفة من صفاته أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك) (1)

وقال في موضع آخر:(.. وهذا فناء عن ذكر السوى وشهوده وخطوره بالقلب، وهذا حال ناقص يعرض لبعض السالكين، ليس هو الغاية، ولا شرطا في الغاية، بل الغاية الفناء عن عبادة السوى.. وهو حال ابراهيم ومحمد الخليلين ـ صلى الله عليهما وسلم ـ فإنه قد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال:(إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا)(2).. وحقيقة هذا الفناء هو تحقيق الحنيفية، وهو إخلاص الدين لله وهو أن يفني بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبالحب فيه والبغض فيه عن الحب فيما سواه والبغض فيه، فلا يكون لمخلوق من المخلوقين لا لنفسه ولا لغير نفسه على قلبه شركة مع الله تعالى)(3)

---

1) مجموع الفتاوى:10/337.

2) رواه الحاكم.

3) الرد على المنطقيين: 517.

فهذه النصوص وغيرها تدل على أن حال الفناء الــذي تحدث عنه أهل الله حال معتبر عند ابن تيميــة وابن القيم، وأن ما يدعيــه من يــدعي صــحبتهما من الــدعاوى لا دليــل عليه، وهو محض أحقاد تمتلئ بهـا النفـوس، لا علم معتـبر يمكن أن يناقش.

أما ما ذكراه من نقص هذه الحال، فهو صحيح لا شك فيه.. والمتوقف عند هذه الحال والمسـتلذ لهـا انقطـع بــه الطريق.. أولم يفهم الغاية منه.. فالخالع للكون الفاني لن يفهم مراد اللــه من رسـائل الكـون حـتى يعيـد لبســه من جديد، باسم الله لا باسمه الذي لا وجود له.

ولكن استنقاص العارفين المتحـدثين عن هـذه الحـال غير صحيح.. ومقارنتهم في ذلك بالسلف الصالح، واعتبــار كلامهم بدعة بسبب ذلك أبعد عن الصواب.

ذلــك أن الكلام في هــذه المســألة يشــبه الكلام في التفسير والفقه.. وغيرها من علوم الشريعة.

فكلام المفسر في تفسير غريب القـرآن ربمـا يكـون بدعة لم يخض فيها السلف، لا لكونهـا بدعـة، ولكن لكـون ذلك الغريب كان مشهورا غير غريب عندهم.

والكلام في دقـــائق الفقـــه، وتقســـيمه إلى ســـنن وفرائض وموانع وأسباب .. وغير ذلك بدعة بالنسبة لفقهاء السـلف.. فلم تـدعهم الحاجـة في وقتهم إلى مثـل هـذه المصطلحات.

وهكذا الأمر في هذا الباب..

فأهل الله الـذين اختصـوا بـالبحث في هـذا الجـانب.. ودرسوا الأحوال التي يمر بها السالك في رحلتـه إلى اللـه لاحظوا هذه المرحلة الخطـيرة والمهمـة.. فلـذلك تحـدثوا عنها بصنوف من الأحاديث..

منها ما يرغب فيها، ويعتبرها قمة من قمم السـلوك.. وهو صـحيح.. لأن من وصـل إليهـا بـدأ البدايـة الصـحيحة.. والبداية الصحيحة لابد أن توصل إلى النهاية الصحيحة.

وليس ذلك نقصا.. وليس القيام بأداء ظواهر العبودية أكمل من هذا..

ذلك أن تلك الظواهر قد يقوم بها من لا حال لـه، بـل من لا إيمان له.

أمـا كلام العـارفين فهـو في أحـوال البـاطن، وهي أحوال دقيقة تستدعي تفاصيل دقيقة كتلك التفاصيل التي يتحدث فيها الفقهاء عن دقائق الفقه، ما يقـع منهـا ومـا لا يقع.. ولم يقـل أحـد من النـاس أن كلام الفقهـاء في هـذا قصور عن درجة السلف.

ولكن العارفين مـع هـذا ينبهـون السـالكين إلى عـدم الوقوف مع أي حال، وهم يرددون لهم في كل حين قولـه تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ {النَّجم:42}

* * *

قد يقال بعد هذا: فما الذي يميز العارفين؟

ولماذا لا يستوون مع سـائر المؤمـنين في النظـر إلى

الكون؟

ولمـــاذا تمتلئ الكتب بهـــذه المعـــاني الواضـــحة الصحيحة؟

والجواب عن ذلك: أن هذا العلم يتحول عند العارفين إلى معرفــة، فالعــالم يــدرك الشــيء، والعــارف يذوقــه ويعايشه.

وعنــدما يعيش العــارف أو الســالك هــذه المشــاعر النبيلة، فإن وديان البلاغة تفيض من لسانه لتعـبر عن تلـك المشاعر..وهذا سر تلك الكنوز العظيمة التي خلفها أوليـاء الله.

2 ـ البقاء:

بعد أن يخلع العـارف لبـاس الكـون المعـدوم، والـذي كان حجابه الحائل بينه وبين عبادة ربه ومعرفته، يعود إلى الكـون المنتسـب إلى اللـه، والـدال على اللـه، والمعـرف بالله.

فالعارفون جميعا متفقون على أن حالـة الفنـاء الـتي يمر بها السـالك ــ والـتي تعـبر عن حقيقـة عقديـة، وذوق عرفـاني ــ هي بدايـة المعرفـة لا نهايتهـا، فـإن الفنـاء هـو مقدمة ما يسمونه بالبقاء.

فالباقي بالله، والذي يرى الأكون، ويصـاحبها في اللـه أكمل من الذي فني عن الأكوان

وفي ذلـك يقـول ابن عطـاء اللـه يعـبر عن الحـالين:

(صاحب الحقيقة غاب عن الخلـق بشـهود الملـك الحـق، وفـني عن الأسـباب بشـهود مسـبب الأسـباب، فهـو عبـد مواجه بالحقيقة، ظـاهر عليـه سـناها سـالك للطريقـة قـد استولى على مداها، غير أنه غريق الأنوار مطمـوس الآثـار قد غلب سـكره على صـحوه وجمعـه على فرقـه وفنـاؤه على بقائه وغيبته على حضوره)

فهذه هي حال الفاني الذي شغله الله عن كل شيء، وهي حال شريفة، وصاحبها من الخـواص، لكنـه وإن كـان كاملاً بالنسبة لأهل الغفلة ناقص بالنسبة لخواص الخـواص الذين جمعوا بين الأمرين وهم أهل المعرفة.

فلذا قال ابن عطاء الله معقبـا على أوصـاف الفـاني: (غير أنه غريق الأنوار) قد غرق في بحار التوحيد والأحدية (مطمـوس الآثـار) قـد طمسـت بصـيرته عن النظـر إلى الآثار والعبيد، (قـد غلب سـكره) وعـدم إحساسـه بالآثـار على صحوه وهو إحساسه بها، وهو رؤية الحق وحده على فرقه، وهو رؤية الحق والخلق، فهو في مقام الجمع لا في مقام الفرق.

أما الباقي، فحاله أكمل، قال ابن عطاء الله بعد ذكره لحال الفاني:(وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً، وغـاب فازداد حضوراً، فلا جمعه يحجبه عن فرقه ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه عن بقائه ولا بقاؤه يصـده عن فنائـه، يعطي كل ذي قسط قسطه ويوفي كل ذي حق حقه)

فهـذا العـارف البـاقي بربـه قـد جمـع بين المزيـتين، (فباطنـه مكمـل بالحقيقـة، وظـاهره مجمـل بالشـريعة،

فيشكر الخلق والحق لا يغيب عن الحق في حال مخالطة الخلق، ليعطي كل ذي قسط قسطه)

وقد جمع ابن عطاء الله حال السالكين والواصلين في قوله:(من عرف الحق شهده في كل شيء، ومن فني به غاب عن كل شيء)

فالعارف في حال البقاء يرى الخلق والحق، فيرى الحق تعالى ظاهراً في كل الأشياء وقائماً بها، مع عدم غيبته عن نفسه وحسه، بخلاف الفاني عن نفسه وعن الأكوان، فإنه لا يرى في الوجود ظاهراً إلا الله تعالى، ويغيب عن كل شيء سواه حتى عن نفسه وحسه.

والعارفون يشيرون بالبقاء، الذي هو العودة إلى الكون إلى استيقاظ الفاني من حال الفناء والاصطلام.. إلى حال الصحو والتحقيق، وهي مراتب قد يمر ببعضها السالك، وقد يتجاوزها إلى مقامات أرفع وأعلى من غير أن يمر عليها.

ويعبرون بها عن بقاء الكون بالله، فالبقاء هو الدوام، واستمرار الوجود.

3 ـ القراءة:

بعد أن يمحى الكون اللاموجود ــ المؤسس على الوهم ــ في ذهن العارف ووجدانه، ثم يعود من جديد بخلعة أخرى، هي خلعة الانتساب لله، فيعود له البقاء باسم الله، يتحول إلى كتاب يقرؤه العارف ليرى من خلاله صفات ربه وكمالاته.

فـالكون المقــروء هــو المرحلــة الثالثــة من علاقــة العارفين بالكون، أو هو المرحلة الأولى للعرفان.

فالعارف هو الذي لديه القدرة على حل رموز الكون، أو هو الخبير الذي لديه المفـاتيح الـتي يفـك بهـا الشـيفرة التي يختزنها الكون، أو هو صاحب البصيرة الـذي يـرى مـا يخبأ بين سطور الكون.

ولهذا كان أول ما أمر به رسول الله ﷺ، بل ما أمرت به أمته ـ كما يشير العارفون ـ هـو أن تعـاد قـراءة الكـون باسم الله، كما قال تعـالى:﴿ اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ﴾ (العلق:1)، فالآية تحتمل من حيث الإشارة أن يكون اســم الموصول مفعولا به، ويصـير المعـنى حينئـذ (اقـرأ باسـم ربك الأشياء التي خلقها)

والقرآن الكريم مليئ بهذا المعنى ممـا قـد لا يحوجنـا إلى هذا المعنى الإشاري الذي يفهمـه العـارفون، بـل فيـه الدلالة على كيفية قراءة الكون باسم الله.

فالله تعالى يأمرنا بقراء الرحمة الإلهية من خلال حياة الأرض بعد موتها، قال تعالى:﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَـارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (الروم: 50)

ويأمرنا بالاستبشار تفـاؤلا بفضـل اللـه، وفرحـا باللـه، وتنسما لرحمة الله عند هبوب الريـاح الـتي يرسـلها اللـه، قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِـهِ الْمَـاءَ فَأَخْرَجْنَا بِـهِ مِنْ كُـلِّ الثَّمَـرَاتِ كَـذَلِكَ نُخْـرِجُ الْمَـوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (لأعراف:57)

ويعلمنا أن نقرأ لطف الله وخبرته المحيطة بكل شي من خلال حروف الماء الساقطة على الأرض المخضرة، قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج:63)

ويعلمنا أن نقرأ علم الله وقدرته من خلال السطور المبثوثة في تقلب الزمان بأعمارنا، قال:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (النحل:70)

ويرينا قوة الله القاهرة، وقدرته الشاملة باستعراض تفاصيل دقيق المكونات وجليلها:

فالسموات التي ننبهر لضخامتها لا تعدو أن تكون شيئا حقيرا جدا أمام عظمة الله، قال تعالى:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر:67)

والقرآن الكريم يرشدنا من خلال هذه الآية إلى أن سبب الجهل بقدر الله هو عدم قراءة الكون باسم الله، فهؤلاء نظروا إلى عظم السموات والأرض غافلين عن خالقهما.

وليس من الغريب لهذا أن تحوي سيدة آي القرآن الكريم[1] الحديث عن خلق الله لتستدل به على الله،

[1] عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:(يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟)، قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟) قال: قلت:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (البقرة: من الآية 255)، فضرب في صدري وقال: (ليهنك العلم يا أبا المنذر) رواه مسلم.

قال تعالى:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَـا بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَـا شَـاءَ وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَـا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقـرة: 255)

فالآية الكريمة تدلنا على طريق العبور من السـموات والأرض إلى الحي القيوم، لأنه لا يكون هذا الإبداع العظيم في هذا الخلق العظيم إلا بحياة المبدع وقيوميته، فالتوازن والتكامل والبقاء في المخلوقات دليل قيام خالقها بها.

ومن هـذه الأبـواب الـتي يفتحهـا لنـا القـرآن الكـريم للتعرف على الله من خلال كتاب الكـون مـا ورد فيـه من استدلالات على البعث، فهي ـ عند التأمل ـ أدلة على اللـه أكثر من دلالتها على البعث.

وهي تدل على اللـه قبـل البعث، لأن الأسـاس الـذي أوقع الدهريين والمنكرين للبعث هو اعتقـادهم بالاسـتحالة العقلية لعودة العظم الرميم للحياة، كما قال تعالى ضـاربا المثـل ببعضـهم:﴿ وَضَـرَبَ لَنَـا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ قَـالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يّـس:78)

والقـرآن الكـريم ــ لينفي هـذه الشـبهة، ويرفـع هـذا الالتباس ـ لا يتكلف كلاما عقليا جافا كالكلام الـذي يتعمـده الفلاسفة، بل يكتفي بأمرنا برفع أبصـارنا وحواسـنا للنظـر إلى الأرض الخاشعة كيف تتحول بالمـاء الربـاني إلى جنـة من جنـان الحيـاة، قـال تعـالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِـهِ أَنَّكَ تَـرَى الْأَرْضَ

خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَـا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (فصلت:39)، وقال تعالى: وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَـذَلِكَ تُخْرَجُونَ (الزخرف:11)، وقال تعالى: وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَـدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَـا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (فاطر:9)

أو يرشدهم إلى استعادة تـذكر مـا سـبق من النشـأة الأولى، قال تعالى: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَهُـوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (يّـس:79)

ويخــاطب الــذين قــالوا ــ مغــترين بمــا لــديهم من المعارف ـ: أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (الاســراء: 49)، بــأمرهم بــأن يتحولــوا إلى أي شــيء شاءوا مما يتعتقدون قوته: قُل كُونُواْ حِجَـارَةً أَوْ حَدِيـداً أَوْ خَلْقـاً مِّمَّا يَكْبُـرُ فِي صُـدُورِكُمْ (الاسـراء: 50-51)، فـإذا بقيت حيرتهم حينها ويقولون: مَن يُعِيدُنَا ، فإن الجــواب القــرآني يكتفي بتـذكيرهم بـالنظر إلى مبـدأ خلقهم، قـال تعالى: قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وحينـذاك يبـدل هـؤلاء الغـافلون عن كنـوز المعـارف المخبـأة في السـموات والأرض الموضـوع، فيسـألون عن موعد ما لا يؤمنون به،وكأن عدم تحديد الموعد هو الـدليل على ما ينكونـه، قـال تعـالى:فَسَيُنْغِضُـونَ إِلَيْـكَ رُؤُوسَـهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً (الاسراء: 51)

أما صعوبة تحقيق ذلـك، فـالقرآن الكـريم يـدل عليـه بــالنظر في الســموات والأرض، فيســتدل بالقــدرة على

النشـأة الثانيـة بقدرتـه تعـالى على النشـأة الأولى، قـال تعـالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (يّس:81)

فكل شيء يسـير على اللـه، والكـون كلـه يـدل على ذلك اليسر، قال تعالى: أَوَلَمْ يَـرَوْا كَيْـفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (العنكبوت:19)، وقال تعالى: أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (قّ:15)

ويــرد على غلاظ القلــوب من بــني إســرائيل الــذي صورت لهم عقولهم الغارقة في أوحـال المـادة أن اللـه ـ تعالى عما يقولون ـ يلحقـه العيـاء، فـرد عليهم تعـالى في قوله تعـالى: أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَـقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَـوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الاحقاف:33)

وهذه النظرة العرفانية لسطور المكونات تكسبها من الجمال ما لا يكسبها أي وصف بشري، فلا مقارنة بين من يرى ذات الزهرة التي سرعان مـا تـذبل، فيحـزن لـذبولها بقدر ما سره تفتحهـا، وبين من يـرى في ابتسـام الزهـرة لطف الله ورحمته وجماله.

وقد ذكر النورسي الفرق في آثـار النظـرة العرفانيـة والنــاظرة الغافلــة للكــون بقولــه:(ثم إن الإيمــان أراني بفضل أسرار القرآن الكريم أراني أحوال الدنيا وأوضـاعها المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتـدحرج هكـذا في غياهب العدم - كما ظنّ في بادئ الأمر - بل إنهـا نـوع من رسائل ربانيـة ومكـاتيب صـمدانية، وصـحائف نقـوش

للأسـماء السـبحانية قـد أتمّت مهامهـا، وأفـادت معانيهـا، وأخلفت عنها نتائجها في الوجود، فـأعلمني الإيمـان بـذلك ماهية الدنيا علم اليقين)[1]

وشبه عبور المؤمن للكون الحسي الذي يسـتوي في النظر إليه العارف والغافل، بـالنظر إلى المـرآة، فهي من حيث أنها زجاجة، نرى مادتهـا الزجاجيـة، وتكـون الصـورة المتمثلة فيها شيئا ثانويا، بينمـا إن كـان القصـد من النظـر الى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيهـا، فالصـورة تتوضـح أمامنا بينما يبقى زجاج المرآة أمراً ثانوياً.

وقد وضع اصطلاحين لذلك، ليوضح من خلالها النظرة القرآنيـة العرفانيـة للكـون، اسـتفادهما من اصـطلاحات النحويين هما (المعنى الاسمي للكون، والمعـنى الحـرفي له، فالاسم ما دل على معنى في نفسه، أما الحـرف فهـو الذي: دلّ على معنى في غيره.

والنظـرة القرآنيـة الإيمانيـة إلى الموجـودات تجعلهـا جميعا حروفاً، تعبّر عن معنى في غيرها، وهذا المعـنى هـو تجليات الاسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات.

وكما أن الكون من حيث صورته المادية يحتـوي على عناصـر محـددة تتكـون منهـا جميـع أشـكال الموجـودات، ويسـمون الجـدول الـذي يحـوي هـذه العناصـر بالجـدول الدوري، فبمثل ذلك يتحدث العارفون عمـا يمكن تسـميته بالجدول الأسمائي للكون.

1) اللمعة السادسة والعشرون (رسالة الشيوخ)

وهذا الجدول يستخلص صفات الله من خلال أشــكال المكونات وأنـواع واختلاف تـدبيرها، وقـد شـرح النورسـي بعض مـا يرتبـط بهـذا الجـدول بقولـه:(إن في كـل شـئ وجوهاً كثيرة جـداً متوجهـة - كالنوافـذ - الى اللـه سـبحانه وتعالى، بمضمون الآية الكريمة ﴿ وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا يُسَـبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾)(الاسراء: 44) إذ أن حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند إلى الاسماء الإلهية الحسنى، فحقيقـة كـل شــئ تســتند الى اســم من الاســماء أو إلى كثــير من الاسماء. وأن الاتقان الموجود في الأشياء يستند إلى اسم من الأسماء) (2)

ويضرب بعض الأمثلة على ذلك بالعلوم الماديـة الـتي تنقلب بهــذه النظــرة إلى علــوم روحيــة، فعلم الحكمــة الحقيقي يســتند إلى اســم اللـــه (الحكيم)، وعلم الطب يستند إلى اسم الله (الشافي)، وعلم الهندسة يسـتند إلى اسم الله (المقدّر)، وهكذا كل العلوم تسـتند الى الأسـماء الحسنى تبدأ منها، وتنتهي إليها.

ولهذا اتفق العارفون على أن حقائق الأشياء، إنما هي الأسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الأشياء فهي ظلال تلك الحقائق..

قال الشيخ عبـد السـلام بن مشـيش مخاطبـاً مريـده الشـيخ أبـا الحسـن الشـاذلي في وصـية لـه:(حـدد بصـر الإيمان تجد اللـه تعـالى في كـل شـيء، وعنـد كـل شـئ، وقبل كل شئ، وبعد كل شئ، وفوق كل شئ، وتحت كـل

---

2) الكلمة الثانية والثلاثون.

شيء، قريباً من كل شئ، ومحيطاً بكل شئ، بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته، وعد عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب في المسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو هو.. كان الله ولا شئ معه، وهو الآن على ما عليه كان)

وتشبيهنا القراءة الأسمائية للكون بالجدول الدوري للعناصر تشبيه من حيث الأسس التي يقوم عليها كليهما، فالكون من حيث تركيبه يتركب من تلك العناصر، ومن حيث أسسه يقوم على تلك الأسماء.

أما من حيث الكم والمحدودية، فالفرق كبير بينهما، فعناصر الكون المادية محدودة، ولكن حقائق الأسماء الحسنى المستندة للمكونات غير محدودة، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (لقمان:27) فلو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً وأمد بسبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات اللّه الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً.

ولم تذكر السبعة من باب الحصر، وكيف يحصر ما لا نهاية له، بل ذكرت على وجه المبالغة، كما قال تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (الكهف: 109)

ولهذا يختلف العارفون المستمدون من بحار الكون

في قراءة حروف الكون بحسب أحـوالهم ومـراتبهم، فمـا يدفع هذا إلى الرجاء قد يدفع الآخـر إلى الخـوف، لأن كـل واحـد منهم يلاحـظ في كـل حين مـا لا يلاحـظ الآخـر، بـل يلاحظ في الأوقات المختلفة المعارف المختلفة.

وكمثال على تقريب ذلك ــ ولله المثـل الأعلى ــ مـا نقرؤه نحن من رؤية الدموع، فقـد تعـبر عن الفـرح، وقـد تعبر عن الحزن، وقـد تعـبر عن الخشـوع الـذي دعـا إليـه الرجاء، وقد تعبر عن الخشوع الذي دعا إليه الخوف.. وقد تعبر عن أشياء كثيرة لا يمكن حصرها.

ويشير إلى هذا المعنى ما أخبر به رسول اللـه ﷺ من أحـــوال القيامـــة وأهوالهـــا، حيث (يجمـــع اللّـــه الأولين والآخـرين في صـعيد واحـد، يسـمعهم الـداعي وينفـذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مـا لا يطيقون ولا يحتملون)

في ذلك الموقف يقول بعض الناس لبعض: ألا تــرون ما أنتم فيه مما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشـفع لكم إلى ربكم؟

فيبدأون بـآدم ﵇، فيقولـون: يـا آدم أنت أبـو البشـر خلقـك اللّـه بيـده، ونفخ فيـك من روحـه، وأمـر الملائكـة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى مـا نحن فيـه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: ربي قد غضـب اليـوم غضـباً لم يغضـب قبلـه مثلـه، ولن يغضـب بعـده مثلـه، وإنـه قـد نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبـوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيـذهبون إلى نـوح ﵇، فيقولـون: يـا نـوح أنت أول الرسل إلى أهـل الأرض، وقـد سـماك اللّـه عبـداً شـكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا تـرى مـا نحن فيـه، ألا تـرى مـا قـد بلغنـا؟ فيقـول نـوح: إن ربي قـد غضـب اليـوم غضـباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله قط، وإنه قد كان لي دعـوة دعوتهـا على قـومي، نفسـي نفسـي نفسـي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

وهكذا يذهبون إلى إبراهيم ﵇، فيقـول:(إن ربي قـد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعــده مثله، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غـيري، اذهبـوا إلى موسى)

فيقول موسى ﵇:(إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثلـه، نفسـي نفسـي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى)

فيقول عيسى ﵇:(إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثلـه، نفسـي نفسـي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمداً ﷺ)

فيأتون محمداً ﷺ، فيقولون: يا محمد أنت رسول اللّه وخاتم الأنبياء، وقد غفر اللّـه لـك مـا تقـدم من ذنبـك ومـا تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى مـا قد بلغنا؟

قال ﷺ في بيان ما يفعل ذلـك اليـوم:(فـأقوم فـآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لـربي عـزَّ وجـلَّ، ثم يفتح اللّـه علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه

على أحد قبلي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطـه، واشفه تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يـا رب، أمتي يا رب؟ فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حسـاب عليـه من البـاب الأيمن من أبـواب الجنـة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفس محمـد بيـده، إن مـا بين المصـراعين من مصـاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى)(1)

ففي هـذا الحـديث إشـارات جليلـة إلى القـراءات المختلفة لأفعـال اللـه، فبينمـا اقتصـر نظـر الأنبيـاء عليهم السلام ـ مع جلالتهم ـ في ذلـك الحين ومـع تلـك الأهـوال على النظر إلى غضب الله عرف رسول اللـه ﷺ أن ذلـك الغضب يحمل معاني الرحمة الأزلية، فقرأ رحمة اللـه من خلال مظاهر الغضب، كما نقرأ رحمة الله بالغيث مع دوي الرعد.

وفي قولـه ﷺ:(ثم يفتح اللّـه علي ويلهمـني من محامده وحسن الثناء عليه مـا لم يفتحـه على أحـد قبلي) دليل على عدم انحصار المعارف الإلهية.

وقـد كـانت هـذه المعـارف هي الحـادي الـذي حـدا بيعقوب ﵇ إلى الطمأنينة لأمر الله، قال تعالى في حكاية ما كان يقوله لهم قبل رجـوع يوسـف ﵇:﴿ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: 96)

ويروي المفسرون عن حنة امرأة عمران، أنهـا كـانت امرأة لا تحمل، فرأت يومـاً طـائراً يـزق فرخـه، فاشـتهت

1) رواه البخاري ومسلم.

الولـد فـدعت اللّـه تعـالى أن يهبهـا ولـداً، فاسـتجاب اللّـه دعاءها.

فكانت قراءتها لرحمة اللـه الـتي وهبت ذلـك الطـائر فرخه هي السر الذي ألهمها أن تدعو الله.

وكـأن اللـه تعـالى يـبين من خلال المكونـات قدراتـه المختلفة ووجوه تدبيره، لنفتقر إليـه كمـا يفتقـر إليـه كـل شيء.

فالتجليات التي تحملهـا المكونـات لا نهايـة لهـا، وكـل واحد يقرأ بحسب استعداده ومرتبته وهمته، وسـنذكر هنـا بعض قراءات العارفين، ولكن قبل ذلك، وللاستشهاد على بعض ما تحمله المكونـات من حقـائق الأسـماء الحسـنى، نستشهد بذلك العارف باللـه الـذي آوتـه الجبـال والغابـات أياما طويلة من عمره الإمام بديع الزمـان النوسـي، الـذي جعل من رسائل النور مفاتيح لقراءة حروف الكون.

فقد ذكر أنه يمكن مشاهدة آثار تجلي عشرين اسـماً من الأسماء على ظاهر كـل ذي حيـاة فحسـب، ولتقـريب هذه الحقيقة الدقيقة والعظيمة الواسعة، استشهد بالمثال التالي، والذي نتصرف فيه من باب مراعاة الاختصار بعض التصرف.

فذكر أنه لو أراد فنان بارع في التصوير والنحت رسم صورة زهرة فائقة الجمال، أو نحت تمثال بديع، فإنـه يبـدأ أول ما يبدأ بتعيين بعض خطوط الشكل العام لهمـا، وهـذا التعـيين يتم بتنظيم، ويعملـه بتقـدير يسـتند فيـه إلى علم الهندسـة، فيعيّن الحـدود وفقـه بعلمٍ وبحكمـة، لـذا تحكُم

معاني العلم والحكمة وراءَ التنظيم والتحديد.

ثم إن تلك الاعضاء الـتي عُيّنت وفـق العلم والحكمـة أخذت صيغة الصنعة المتقنـة والعنايـة الدقيقـة، لـذا تحكمُ معاني الصنع والعناية وراء العلم والحكمة.

وقابلية الحسن والزينة في الظهور يدل على أن الذي يحرك الصنعة والعناية هو إرادة التجميل والتحسين وقصـد التزيين، فهما إذن يحكمان من وراء الصنعة والعناية.

وعنـدما يبـدأ الفنـان بإضـفاء حالـة التبسـم لتمثالـه، وشرع بمنح أوضاع حياتية لصـورة الزهـرة، يكـون قـد بـدأ بفعلَي التزيين والتنوير، ويحركهما معنيا اللطف والكرم.

وهكذا.. يحرك معاني الكـرم واللطـف، ومـا وراءهمـا معاني التودد والتعرف، أي تعريـف نفسـه بمهارتـه وفنـه، وتحبيبها الى الآخرين.

وهذا التعريف والتحبيب آتيان من الميـل إلى الرحمـة وإرادة النعمة.

ومعاني الترحم والتحنن هذه، لا يسوقهما الى الظهور لدى ذلك المستغنى عن الناس، غير ما في ذاته من جمال معنوي وكمال معنوي يريدان الظهور، فأجمل ما في ذلـك الجمال، وهو المحبة، وألذ ما فيه وهـو الرحمـة، كـل منهـا يريد إراءة نفسه بمرآة الصنعة، ويريد رؤيـة نفسـه بعيـون المشتاقين.

فالجمال والكمال محبوب لذاتـه، (يحب نفسـه أكـثر من أي شـئ آخـر، حيث أنـه حُسـن وعشـق في الـوقت

نفسه، فاتحاد الحسن والعشق آتٍ من هذه النقطة.. ولما كان الجمال يحب نفسه، فلابـد أنـه يريـد رؤيـة نفسـه في المرايـــا، فـــالنعم الموضـــوعة على التمثـــال، والثمـــرات اللطيفة المعلقة على الصورة، تحمل لمعةً براقة من ذلك الجمـال المعنـوي - كـل حسـب قابليتـه - فتُظهـر تلـك اللمعـات السـاطعة نفسـها الى صـاحب الجمـال، والى الآخرين معاً)(1)

فعلى منوال هذا المثال الذي أورده بـديع الزمـان تتم قراءة العارف للكون، وللأسماء الحسـنى الـتي تتجلى في مرآته، قال النورسي:(وعلى غرار هذا المثال الـذي ينظم الصـانع الحكيم ـــ ولله المثـل الاعلى ـــ الجنـة والـدنيا والسـموات والارض والنباتـات والحيوانـات والجن والانس والملك والروحانيات، أي بتعبير موجز ينظم سبحانه جميـع الأشياء كليّهـا وجزئيهـا.. ينظمهـا جميعـاً بتجليـات أسـمائه الحسـنى ويعطي لكـل منهـا مقـداراً معينـاً حـتى يجعلـه يستقرىء اسم:المقدر، المنظم، المصور) (2)

ففي النظر إلى زهرة واحـدة جميلـة صـحائف كثـيرة جداً من صحائف التعرف على الله:

فصحيفة هيئة الشئ التي تبين شكله العام ومقـداره، تلهج باسماء: يا مصور يا مقدر يا منظم.

وصحيفة صور الاعضاء المتباينة المنكشفة ضمن تلك

1) الكلمة الثانية والثلاثون.

2) الكلمة الثانية والثلاثون.

الهيئـة البسـيطة للزهـرة، أسـماء كثـيرة أمثـال: العليم، الحكيم.

وصـحيفة إضـفاء الحسـن والزينـة على الأعضـاء المتباينة بأنماط متنوعة من الحسن والزينة تكتب في تلك الصحيفة أسماء كثيرة من امثال: الصانع، البارئ.

وصـحيفة الزينـة والحسـن البـديع الموهوبـان لتلـك الزهرة تقرأ اسماء كثيرة امثال: يا لطيف. يا كريم.

وصـحيفة تعليـق ثمـرات لذيـذة على تلـك الزهـرة يجعلان تلك الصـحيفة، تسـتقرئ اسـماء كثـيرةً أمثـال: يـا ودود يا رحيم يا منعم.

وصـحيفة الإنعـام والإحسـان تقـرأ أسـماء أمثـال: يـا رحمن يا حنان.

وصحيفة ظهور لمعات الحسن والجمال الواضحة في تلك النعم تكتب وتقرأ اسماء: يا جميل ذا الكمال يا كامـل ذا الجمال.

فهذه زهرة واحـدة تلهج بجميـع هـذه المعـارف الـتي تحتوي من الأعماق ما لا حدود له، فإلى أي حد من السمو والكليـة تسـتقرىء جميـع الازهـار، وجميـع ذوي الحيـاة والموجودات الاسماء الحسنى الإلهية.

* * *

وهذه القراءة الـتي يتنعم بهـا العـارفون لا تكـون من طرف واحد، كما هي العـادة في جميـع كتب الـدنيا.. حيث

يكون الكتاب مفتوحا، وعين القارئ هي التي تكد لترى ما تنطق به الحروف.

فكتاب الله الذي يسمونه صامتا نطق عند العارفين.. فصاحت كل ذرة تعرفهم بحقيقتها وانتمائها..

يقول الغزالي:(بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون)(1)

واستدرك للذين لا يفهمون من العبارات إلا ظواهرها بقوله:(ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات، فإنّ الحمار شريك فيه، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم، وإنما أريد به سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي) (2)

وقد ذكر النورسي بعض ما يسمعه العارفون من هذه الأحاديث، فقال: إن كنت تريد أن تشاهد تلك الحقائق الرفيعة عن قرب، فاذهب إلى بحرٍ هائج، وإلى أرض مهتزة بالزلازل، وأسألهما: ما تقولان؟ ستسمع حتماً أنهما يناديان: يا جليل.. يا جليل.. يا عزيز.. يا جبار..

---

1) الإحياء.

2) الإحياء.

ثم اذهب إلى الفـراخ والصـغار من الحيوانـات، الـتي تعيش في البحــر أو على الارض، والـتي تُـربى في منتهى الشفقة والرحمة، وأسألها: ما تقولين؟ لابد أنهـا تـترنم: يـا جميل.. يا جميل.. يا رحيم.. يا رحيم.

ثم انصـت الى السـماء كيـف تنـادي: يـا جـليـــل ذو الجمال!

وأعـر سـمعك إلى الارض كيـف تـردد: يـا جميـل ذو الجلال.

وتصـنّت للحـيوانات كيـف تقــول: يا رحمن يا رزاق.

واسأل الربيع، فستسمع منـه: يا حـنان يـا رحمــن يـا رحـيم يا كريم يا لطيف يا عطـوف يـا مصـوّر يـا منـوّر يـــا محـسن يا مزيّن.. وأمثالـها من الأسماء الكثيرة.

واسأل إنساناً هو حقاً إنسان وشاهد كيف يقـرأ جميـع الاسـماء الحسـنى، فهي مكتوبــةٌ على جبهتــه، حــتى اذا أنعمت النظر ستقرؤها أنت بنفسك.

وكـأن الكـون كلـه موسـيقى متناغمـة الالحـان لـذكر عظيم. فـامتزاج أصـغر نغمــة وأوطئهــا مـع أعظم نغمــة وأعلاها ينتج لحناً لطيفاً مهيباً.. وقس على ذلك)[1]

وانطلاقا من هذه النظرة العرفانية يقبل العارف بالله على التعــرف على خلــق اللــه، فيبحث في جــل العلــوم والمعارف بنشوة عظيمـة، وهـو يـرى مـا سـطر فيهـا من

---

1) الكلمة الرابعة والعشرون.

كلمات الله.

وهكذا في الوقت الـذي ينحجب فيـه الغافـل بـالعلوم التي يطلقون عليها علوما مادية، يعرج من خلالها العــارف إلى بحـار معرفـة اللـه، لتصـبح في نظـره علـوم الـروح والقلب والسر.

قال الغزالي عند بيانـه لانشـعاب العلـوم الماديـة من القرآن الكريم:(ثم هذه العلوم ما عـددناها ومـا لم نعـدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإن جميعها مغترفـة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال)(1)

ثم ذكـر بعض النمـاذج عن ذلـك بقولـه:(فمن أفعـال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلا الشفاء والمرض، كما قال الله تعـالى حكايـة عن ابـراهيم ﷺ تعـالى: واذا مرضـت فهو يشفين ، وهذا الفعل الواحـد لا يعرفـه الا من عـرف الطب بكماله، اذ لا معنى للطب الا معرفة المرض بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه) (2)

ومن النماذج تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، والـتي نص عليهـا قولـه تعـالى منبهـا إلى النظـر فيهما: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَــرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْـدِيرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ (الأنعـام: 96) وكـل مـا يرتبـط بالفلـك إلا (من عـرف هيئـات تـركيب السـموات والأرض، وهو علم برأسه)

1) جواهر القرآن.

2) جواهر القرآن.

ومثل ذلك تركيب الإنسـان (فلا يعـرف كمـال معـنى قوله تعالى: يَـا أَيُّهَـا الْإِنسَـانُ مَـا غَـرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَـرِيمِ الَّذِي خَلَقَـكَ فَسَـوَّاكَ فَعَـدَلَكَ فِي أَيِّ صُـورَةٍ مَّا شَـاء رَكَّبَـكَ (الانفطار:6ـ 8) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الانسان ظاهرا وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها) (3)

* * *

قد يقال ـ هنا ـ فمـا المـيزة الـتي يسـتحقها العـارف دون العامي، وكلاهما يقرأ الكون، وكلاهما يفهم منه دلالته على الله.

وما الميزة التي يتميز بها العـارف، والمتكلم يقـرأمن صفحات الكون ما لا يقرؤه العارف، وعالم الطبيعة يعرف من معارف الكون ما لا يطلع عليه العارف.

وللجواب على ذلك نـذكر مـا تتمـيز بـه المعرفـة عن العلم، فالعلم اكتشاف قد يـدفع إليـه الفضـول، والمعرفـة معايشة يدفع إليها الشوق والاحتراق.

ولهذا تختلف نظرة العارف عن العـالم للأشـياء، كمـا اختلفت نظرة يعقوب ﵇ وأبنائه حول قميص يوسف.

فأبناء يعقوب ﵇ لم يـروا في قميص يوسـف سـوى خيوط متجمعة لا تختلف عن أي خيوط، بينما رأي يعقـوب ﵇ ـ المكتوي بنار العشق ـ في تلك الخيوط ابنـه يوسـف ﵇، بل إنه شم رائحته من بعيـد، قـال تعـالى يحكي هـذه المواقف المتناقضة نحو الشيء الواحد حاكيا قول يوسف

(3) جواهر القرآن.

ﷺ: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95)﴾ (يوسف: 93 – 95)

وهذه الآيات الكريمة فيها إشارات جليلة ترتبط بذوق العارف، والتفريق بينه وبين ذوق العامي، فالقميص الذي يحمل رائحة يوسف ﷺ كالكون الذي يحمل ختم خالقه ومبدعه، والعمى الذي وجده إخوة يوسف ﷺ هو عمى العامي عن رؤية ذلك الختم، وعود البصر ليعقوب ﷺ كعود البصيرة للعارف بعد اكتحاله برؤية الختم المطبوع على الأشياء.

فالأشياء واحدة، ولكن الشأن ليس في وحدة الأشياء، وإنما في النظر إلى الأشياء والمواقف من الأشياء.

فالفرق جليل بين من يوحد الله بنفي غير الله، وبين من يوحده بالإثبات المحض، فلا يرى غيرا يحتاج إلى نفيه.

وفرق كبير بين من يرى الكون قائما بذاته، وبين من يراه ظلمة لولا نور الله، كما قال ابن عطاء الله:(الكونُ كلُّه ظُلْمةٌ، وإنَّما أنارَهُ ظهورُ الحقِّ فيه، فمن رأى الكونَ ولم يشهدُهُ فيه أو عنده أو قَبْلَه أو بَعْدَه فقد أعْوَزَهُ وجودُ الأنوارِ، وحُجبَتْ عنه شموسُ المعارفِ بسُحُبِ الآثار)

وفرق كبير بين النظر الإيماني إلى المكونات والنظر الطبيعي، فالنظرة واحدة ولكن القلب المستقبل للنظرة

مختلف، كالأرض تسقى بمطر واحد لكن بعضها ينتج زهرا والآخـر شـوكا،: يُسْـقَى بِمَـاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ (الرعد: 4)

وقد ذكر الغزالي الفـرق بين الرؤيـتين رؤيـة الموحـد ورؤية الطبيعي بقوله:(وكل ما نظرنا فيه فـإن الطبـيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضـلاله وشـقاوته، والموفـق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسـعادته. ومـا من ذرّة في السـماء والأرض إلا واللـه سـبحانه وتعـالى يضـل بهـا من يشاء ويهدي بها من يشاء، فمن نظر في هـذه الأمـور من حيث إنها فعل اللـه تعـالى وصـنعه اسـتفاد منـه المعرفـة بجلال اللـه تعـالى وعظمتـه واهتـدى بـه، ومن نظـر فيهـا قاصراً للنظر عليها من حيث تـأثير بعضـها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقي وارتد) (1)

وقد ذكر النورسـي الفـرق بين الرؤيـتين بتفريقـه بين توحيدين:

توحيد العامي الذي يقول:(لاشريك لـه، ليسـت هـذه الكائنات لغيره)، وهذا يكون عرضـة لتـداخل الغفلات، بـل الضلالات في أفكار صاحبه.

وتوحيد حقيقي، هو توحيد العـارف الـذي يقـول:(هـو الله وحدَه له الملك، وله الكون، له كل شئ) فيرى سـكتّه على كل شئ، ويقرأ خاتمه على كل شئ، فيثبته لـه اثباتـاً حضورياً.

---

1) الإحياء.

ومثل هذه التوحيد، ومثل هـذه الرؤيـة لايمكن تـداخل الضلالة والاوهام فيها أبدا(2).

ولتقريب الصورة للأذهان نذكر هذا المثال الذي أبــدع فيه بديع الزمان أيما إبداع فقـد ذكـر أن حاكمـا عظيمـا ذا تقــوى وصــلاح وذا مهــارة وإبــداع أراد أن يكتب القــرآن الحكيم كتابة تليق بقدسية معانيه الجليلـة، فـأراد أن يُلبِس القــرآن الكــريم مــا يناســب إعجــازه الســامي من ثــوب قشيب خارق مثله.

فبدأ بكتابة القرآن الكريم كتابة عجيبة جـداً مسـتعملاً جميع أنواع الجواهر النفيسة ليشير بهـا إلى تنـوع حقائقـه العظيمة، فكتب بعض حروفه المجسمة بالالماس والزمرد وقسـماً منهـا بـاللؤلؤ والمرجـان وطائفـة منهـا بـالجوهر والعقيق، ونوعاً منها بالذهب والفضة، حـتى أضـفى جمـالاً رائعاً وحسناً جالباً للانظار يعجب بهـا كـل من يراهـا سـواء أعلم القراءة أم جهلها.

ثم عرض هذا القرآن البـديع الكتابـة، الرائـع الجمـال، على فيلسـوف أجنـبي ــ ونحن نشـير بـه هنـا إلى النظـر السطحي للعامي ـ وعلى عالم مسلم. وأمرهما بأن يكتب كل منكما كتاباً حول حكمة هذا القرآن.

فكتب الفيلسوف كتاباً، وكتب العالم المسلم كتاباً.

أما كتاب الفيلسوف، فاقتصر على البحث عن نقوش الحروف وجمالها، وعلاقة بعضها ببعض، وأوضاع كل منهـا،

2) المثنوي العربي النوري.

وخواص جواهرها وميزاتها وصفاتها، ولم يتعرض في كتابه إلى معاني ذلك القرآن العظيم قط، بل لم يدرك أن ذلـك القرآن البديع هو كتاب عظيم تنم حروفه عن معان جليلة، وإنما حصر نظره في روعة حروفه وجمالها الخارق.

ومع هذا فهو مهندس بارع، ومصـور فنـان، وكيميـائي حاذق، وصائغ ماهر، لذا فقد كتب كتابه هذا وفق مـا يتقنـه من مهارات ويجيده من فنون.

أما العالم المسلم ـ ونحن نشير به هنا إلى العـارف ـ فما إن نظر إلى تلك الكتابة البديعة حـتى علم أنـه: كتـاب مـبين وقـرآن حكيم، فلم يصـرف اهتمامـه الى زينتـه الظاهرة، ولا أشغل نفسه بزخارف حروفه البديعـة، وانمـا توجه كلياً ـ وهو التواق للحق ــ الى مـا هـو أسـمى وأثمن وألطف وأشرف وأنفع وأشمل مما انشغل به الفيلسـوف الاجنبي بملايين الاضعاف، فبحث عمـا تحت تلـك النقـوش الجميلـة من حقـائق سـامية جليلـة وأسـرار نـيرة بديعـة، فكتب كتابـه تفسـيراً قيمـاً لهـذا القـرآن الحكيم، فأجـاد وأتقن.

والنورسـي يشـير بـالقرآن الجميـل الـزاهي إلى هـذا الكون البديع، وبالحـاكم المهيب إلى سـلطان الازل والابـد تعالى، أما الـرجلان، فـالأول هـو العـامي ولـو كـان عالمـا بالعلوم القديمة والحديثة، وأما الآخـر، فهـو العـارف الـذي تتلمذ على أنوار القرآن الكريم.

فالفرق كبير بين الرؤيتين، فالعارف ينظر إلى الكـون ـ كما يقرأ القرآن الكريم ــ فـ (ينظـر الى الموجـودات -

التي كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الحرفي، أي ينظر اليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسنَ خلقه! ما أجملَ خلقه! ما أعظم دلالته على جمال المبدع الجليل)، وهذا النظر هو الذي يكشف الجمالَ الحقيقي للكائنات.

أما العلم المجرد عن المعرفة فهو غارق في تزيينات حروف الموجودات، مبهوت أمام علاقات بعضها ببعض،، قد انصرف عن النظر عن قراءة حروف الكون الدالة على كاتبها، فإذا رأى شيئا من جمال الكائنات قال:(ما أجمل هذا) بدلاً من:(ما أجمل خلق هذا)(1)

***

ولأهمية هذا النوع من القراءة الكونية، ولعلاقته الوثيقة بالإيمان، بل بأرفع درجات الإيمان يثني القرآن الكريم على المؤمنين الذين أمضوا حياتهم في قراءة رسائل الله إليهم عبر مكوناته.

وأول هؤلاء، وعلى رأسهم العارفون الذين يعبر عنهم القرآن الكريم بأولي الألباب(2)، وهم الذين خرجوا من ظواهر المكونات إلى بواطنها، ولم تحجبهم الصور المزخرفة للمكونات عن الحروف المسجلة فيها.

ولعل أعظم وصف قرآني لهم هو ما ورد في أواخر

---

1) الكلمة الثانية عشرة.

2) نرى أن القرآن الكريم يعبر عن العارفين بمصطلح أولي الألباب.

ســـورة آل عمـــران من قولـــه تعـــالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْـــقِ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَــارِ لَآيَــاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامـاً وَقُعُـوداً وَعَلَى جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْتَ هَـذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران:191)

وقد كان لهذه الآيـات محـل خـاص من قلب رسـول الله ﷺ كما تروي كتب السنة، فقد روي أن رسول اللّه ﷺ كان يقرأ هذه الآيات وما يليها من آخـر سـورة آل عمـران إذا قام من الليل لتهجده، قال ابن عباس: بت عند خـالتي ميمونة فتحدث رسول اللّـه ﷺ مـع أهلـة سـاعة ثم رقـد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السـماء فقـال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَــارِ لَآيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ ﴾ (آل عمـران:190) الآيـات، ثم قـام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشـرة ركعـة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح (1).

وفي هذه الآيات برهـان جلي على الأثـر الـذي تتركـه القراءة الإيمانية لحروف المكونات، فالقرآن الكـريم قـدم الفكر على الذكر، وقدم القراءة على التسبيح، ثم ذكر أن أول ما يقوله هؤلاء العـارفون، أو أول مـا يقرؤونـه هـو أن هذا الخلق العظيم لم يخلق عبثا.

ومن العبثية أن نقصر دلالة كل المكونات على مجـرد احتياجها إلى خالق، ثم لا نرحل من ذلك إلى التعرف على هذا الخالق الذي دلت على وجوده هذه المكونات.

---

1) أصل الحديث رواه البخاري ومسلم.

وهـؤلاء العـارفون الـذين يخبرنـا القـرآن الكـريم عن أحوالهم بمجـرد امتلاء قلـوبهم بالمعـاني الـتي يـدل عليهـا الكون انفجرت ألسنتهم بدعاء اللـه ومناجاتـه، وكـأنهم رأو الكون، وهو يمد يديه بالافتقار والاضطرار إلى الله، فمـدوا أيديهم معه.

وكــل مــا ورد من أدعيتهم يــدل على قــراءة متأنيــة عميقة لحروف المكونات.

ومن الآيات المتحدثة عن هذا الصـنف قولـه تعـالى: أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَسَـلَكَهُ يَنَـابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (الزمر: 21)

ونلاحـظ هنـا كـذلك أن هـؤلاء العـارفين لا يقتصـرون على النظــر إلى المكونــات، بــل يبحثــون في حركاتهــا وسكناتها وعجيب ما يحدث لها من التحولات، ليتعرفوا من خلال ذلك على الله، وكأن الحسين كان ينظر من مشـكاة هـذه الآيـة عنـدما قـال في مناجاتـه:(إلــهي! قـد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، أن مرادك أن تتعـرف إلي في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء)

ويلي هـؤلاء ــ الـذين تعمقـوا في معرفـة اللـه نتيجـة تعمقهم في معرفـة الكـون ــ أصـحاب العقـول الراجحـة الذين يمـدون أبصـارهم لتأمـل جميـع المكونـات في الـبر والبحــر والســماء والأرض، قــال تعــالى: إِنَّ فِي خَلْــقِ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْــلِ وَالنَّهَــارِ وَالْفُلْــكِ الَّتِي

تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (البقرة:164)

ونلاحظ في هذه الآية الكريمة التفصيل في ذكر أنواع المكونات، ثم الإخبار بأن هذه الآيات خاصة بالذين يعقلون، وفي ذلك إشارة إلى الفريق الثاني ممن يستفيدون من آيات الله، وهم الذين يستعملون عقولهم في الاستدلال على الخالق، وقد مثل هؤلاء علماء التوحيد والكلام، بخلاف الآيات السابقة التي عبرت عن العقل باللب.

ومثل هذه الآية ما ورد من تفاصيل قد لا يدرك أكثرها إلا العلماء المختصون، والمعبر عنهم في القرآن الكريم بالذين يعقلون، قال تعالى: وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (الرعد:4)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكون صنف المفكرين، وهم الذين يمزجون بين الرؤى المختلفة للكون ليستنتجوا منها المعارف الإلهية، قال تعالى عنهم: وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(3) (الرعد: 3)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكون أصحاب الحواس

المرهفـة، أو الـذين شـفت حواسـهم لتـدرك مـا يخـتزن الظاهر من حقائق البـاطن، قـال تعـالى: هُـوَ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْـكُنُوا فِيـهِ وَالنَّهَـارَ مُبْصِـرًا إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(67) (يونس: 67)

ومن الأصـناف القارئـة لكتـاب الكـون العلمـاء، قـال تعـــالى: وَمِنْ آيَاتِــهِ خَلْــقُ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (الروم:22)

وقد قصر الخشية من الله على هؤلاء، قال تعالى بعد تعداد آيات الكون: وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَـامِ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (فاطر:28)

ومن الأصناف القارئة لكتاب الكـون المؤمنـون، قـال تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَـاءً فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ نَبَـاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْـرِجُ مِنْـهُ حَبّـاً مُتَرَاكِبـاً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْـوَانٌ دَانِيَـةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَـابٍ وَالزَّيْتُـونَ وَالرُّمَّانَ مُشْـتَبِهاً وَغَيْـرَ مُتَشَـابِهٍ انْظُـرُوا إِلَى ثَمَـرِهِ إِذَا أَثْمَـرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأنعام:99)

ومن هذه الأصناف القارئة المـنيبون والمتقـون، قـال تعالى: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِـهِ وَيُنَـزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ رِزْقـاً وَمَـا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (غافر:13)

ومنهم العابدون الموحـدون، قـال تعـالى: وَمِنْ آيَاتِـهِ اللَّيْـلُ وَالنَّهَـارُ وَالشَّـمْسُ وَالْقَمَـرُ لا تَسْـجُدُوا لِلشَّـمْسِ وَلا لِلْقَمَـــرِ وَاسْــجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُــدُونَ (فصلت:37)

ومنهم الشاكرون الحامدون، قال تعالى: وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (القصص:73)

وقد يجمع القرآن الكريم بين هذه الأصناف في نسق واحد، كما ورد في قوله تعالى: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ(3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(5) (الجاثية)

ونرى أن التأمل والتعمق في فواصل هذه الآيات يكشف عن معارف جليلة ترتبط بهذه الأصناف، ونوع المكونات التي تتأملها، وطريقة تأملها، وهو تصنيف أساسي له علاقة كبيرة بالسلوك، وقد نتحدث عنه في المناسبات المرتبطة به.

ولهذه الأصناف جميعا ورد قوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (فصلت:53)، فهذه الآيات موجهة لهؤلاء، أو هي بعبارة أخرى موجهة لجميع الناس، ولكن لا يستفيد منها غير هؤلاء.

أما غيرهم من المعرضين عن آيات الله الذين يقصرون نظرهم على شهواتهم، فلا يرون في الكون غير سوق لتغذية هذه الشهوات، فالقرآن الكريم يضعهم في صنف المعرضين، قال تعالى: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (الانبياء:32)، وقال

تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (يوسف:105)

وهؤلاء هم الأميون في عالم الحقائق، وإن قرأو جميع حروف العالم، وحللوا جميع لغاته، فالعجب كل العجب ـ كما يقول الغزالي ـ ممن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته؟)(1)

4 ـ اليقين:

بعد القراءات المتواصلة للحروف التي تبرزها المكونات، والمعاني التي ترسمها رسائلها الإلهية يطل العارف على واحة اليقين، كما يطل الظمآن على مورد الماء العذب الذي يسد له كل ظمأ، ويطفئ له كل حرقة.. فاليقين هو الغاية التي يصل إليها العارف بعد قراءته المتواصلة لسطور الكون.

ولهذا اعتبر القرآن الكريم تفصيل الآيات وتعديدها علة لليقين وطريقا إليه، فقال: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (الرعد:2)

---

(1) الإحياء.

ولأجل هذه القيمة التي يحتلها اليقين في سلم السير إلى اللــه اعتــبره القــرآن الكــريم غايــة الغايــات، فقــال: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:99)

واعتــبر الغايــة الــتي قصــدت من إشــهاد إبــراهيم ﷺ لملكوت السموات والأرض هي وصوله إلى درجــة اليقين، قــال تعــالى: ﴿ وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:75)

فطريق اليقين الذي تحقق به إبراهيم ﷺ هــو مــا رآه من ملكوت السموات والأرض، والقرآن الكــريم يعــبر عن رؤيته بـ ﴿ نُرِي ﴾، وفي ذلك إشــارة إلى أن رؤيــة إبــراهيم ﷺ كانت رؤية بالله، لا بنفسه، أي أنه صار باقيا بالله بعــد أن فنى عن نفسه.

ويحكي القرآن الكريم بعض ما أريه إبــراهيم ﷺ ومــا قرأه، فقال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْـهِ اللَّيْـلُ رَأى كَوْكَبـاً قَـالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَــلَ قَــالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الأنعــام:76)، ثم رأى القمر بازعا، ﴿ قالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَـلَ قَـالَ لَئِنْ لَمْ يَهْـدِنِي رَبِّي لَأَكُـونَنَّ مِنَ الْقَـوْمِ الضَّـالِّينَ﴾ (الأنعـام: 77))، ثم رأى الشمس بازغة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَـالَ يَـا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: 78)

والكثير قد يتصــور أن مــا ذكــره إبــراهيم ﷺ هــو من باب التمثيل والاحتيال لإرشاد قومه، ونحن لا ننكر هذا، ولا ننكر كذلك أن الله تعالى يصــف لنــا الطريــق الــذي ســلكه إبــراهيم ﷺ للوصــول إلى اللــه، لا إلى اعتقــاد وجــوده أو تفرده بالألوهيــة فحســب، وإنمــا إلى معــان أخــرى أعمــق

وأجل.

ولا يـرد على ذلـك مـا ذكـره من ربوبيـة الأشـياء، فالربوبية غير الألوهية، وقد قال تعـالى حاكيـا عن يوسـف ﵇: ﴿ وَقَـالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَـاجٍ مِنْهُمَـا اذْكُـرْنِي عِنْـدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْـرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّـجْنِ بِضْـعَ سِـنِينَ﴾ (يوسف:42)، ولهذا لم يقل إبراهيم ﵇:(هـذا إلهي)، بـل قال:﴿ هَـذَا رَبِّي ﴾، فلعـل مـراده هنـا هـو مـا اعتقـده من منافع الأشياء، فلما أفلت تبين له عجزها، وأن اللـه تعـالى هو المتفرد بالنفع والضر(1).

ولأجل هـذا المحـل الرفيـع لليقين في سـلم الطريـق إلى الله أخبر اللـه أن أئمـة الهـدى العـارفين باللـه الـذين جعلهم اللـه نجومـا لهدايـة الخلـق هم الـذين زاوجـوا بين الصبر واليقين، أو المجاهدة والمعرفة قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَـا لَمَّا صَـبَرُوا وَكَـانُوا بِآياتِنَـا يُوقِنُـونَ﴾ (السجدة:24)

وآيات الله بأنواعها المختلفة لا يفهمها ولا يصـدقها ولا يقدرها حق قـدرها سـوى الموقـنين، قـال تعـالى:﴿ وَقَـالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:118)

---

1) وقد أول بعضهم ذلك، فذكر أن المراد منه درجات ما كان يظهر لإبراهيم الخليل ﵇ في ترقيه، ففسر الكوكب بأنه وصل إلى حجاب من حجب النور فعبر عنـه بـالكوكب، ولم يـرد هـذه الأجسـام المضـيئة، فـإن آحـاد العـوام لا يخفى عليهم أن الربوبيـة لا تليـق بالأجسام بل يدركون ذلك بأوائل نظرهم فما لا يضلل العوام لا يضلل الخليـل ﵇، انظـر: الإحياء:1/337، وهو تأويـل بعيـد حكـاه الغـزالي عن بعضـهم، فلا يصـح أن نعـدل بألفـاظ القرآن الكريم عن دلالاتها الظـاهرة، إلا أن يكـون ذلـك من بـاب الإشـارة، فلا حـرج فيـه بشرط الإقرار بظاهر المعنى.

ومن هـذه الآيـات آيـات اللـه الكونيـة المتجليـة في الأرض، قـــال تعـــالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَـــاتٌ لِلْمُـــوقِنِينَ﴾ (الذريات:20)، أو المتجلي في الإنسان والكائنـات الحيـة، قـال تعـالى:﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَـا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَـاتٌ لِقَـوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثـية:4)، فكـل هـذه الآيـات لا يـدركها سـوى الموقنين.

ومثل ذلـك آيـات اللـه المسـتقبلية المرتبطـة بمصـير الإنسان أومصير الأرض لا يـؤمن بهـا غـير الموقـنين، قـال تعالى:﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَـا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآياتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (النمل:82)

وحقائق القرآن الـتي هي بصـائر البصـائر لا يراهـا ولا يعرفها ولا يهتدي بها ويـرحم غـير الموقـنين، قـال تعـالى: ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثــية: 20)

والمعارف المرتبطة بالله لا يفهمها، أو يـذعن لهـا، أو يستشـعر سـموها سـوى الموقـنين، قـال تعـالى: ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الدخان:7)

وأحكـام اللـه لا يـدرك حكمهـا، ويسـتكنه أسـرارها، ويعرف وجوه المنافع والمصالح فيها سوى الموقنين، قـال تعالى:﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَـنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمـاً لِقَوْمٍ يُوقِنُـونَ﴾ (المائـدة:50)، والآيـة تشـير إلى أن إدراك الحسن المتغلغل في ثنايا الأحكام لا يقلب صفحاته سـوى الموقـنين، ولعلـه لأجـل هـذا لم يتصـد للبحث في أسـرار الشريعة ومقاصدها سوى من جمعـوا بين العلم والتقـوى،

أو بين اليقين والإرادة.

ولهذا كان ﷺ يرغبنا في أن نسأل اللــه اليقين معتـبرا إياه خيرا من العافية، وكيـف لا يكـون كـذلك، وهـو عافيـة القلب، قال ﷺ:(عليكم بالصدق، فإنه مع الـبر، وهمـا في الجنة، وإياكم والكذب فإنـه مـع الفجـور، وهمـا في النـار، وسلوا الله اليقين والمعافاة فإنه لم يؤت أحـد بعـد اليقين خيرا من المعافاة، ولا تحاسـدوا ولا تباغضـوا، ولا تقـاطعوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم الله) (1)

وفي هـذا الحـديث إشـارة صـريحة بـأن اليقين من المـواهب الربانيـة الـتي تتـنزل على من تحقـق بأسـبابها، فأسباب اليقين كسبية وحقيقته وهبية.

وقد كان ﷺ يعلمنا أن نـدعو اللـه بـأن يرزقنـا اليقين، كهذا الدعاء الشـامل الجـامع الخاشـع:(اللهم إني أسـألك رحمة من عندك تهدي بها قلـبي، وتجمـع بهـا أمـري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفـع بهـا شـاهدي، وتـذكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصـمني بها من كل سـوء، اللهم أعطـني إيمانـا ويقينـا ليس بعـده كفر، ورحمة أنال بهـا شـرف كرامتـك في الـدنيا والآخـرة اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننـا وبين معاصـيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما يهون علينـا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنـــا، واجعله الوارث منا؛ واجعل ثأرنا على من ظلمنـا، وانصـرنا على من عادانـا، ولا تجعـل مصـيبتنا في ديننـا، ولا تجعـل

1) رواه أحمد والبخاري في الأدب وابن ماجة.

الـدنيا أكـبر همنـا ولا مبلـغ علمنـا، ولا تسـلط علينـا من لا يرحمنا)(1)

فالرسـول ﷺ يشـير في هـذا الـدعاء الجـامع إلى أن اليقين هو قاتل الكفر، فيستحيل على من بلغ درجة اليقين أن يتحول إلى الكفر، وأن اليقين كذلك قاتل الأحزان، فهو الذي يهون مصائب الدنيا ويرفـع آلامهـا، كمـا قـال ﷺ:(لا ترضين أحدا بسخط الله ولا تحمدن أحدا على فضـل اللـه ولا تذمن أحدا على ما لم يؤتك اللـه فـإن مـا رزق اللـه لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره وإن اللـه بعدلـه وقسـطه جعـل الـروح والفـرح في الرضـى واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)(2)

وقد أخبر ﷺ أن الأجور المعدة للأعمال متوقفـة على اليقين قال ﷺ:(إن اللـه تعـالى قـد افـترض عليكم صـوم رمضـان، وسـننت لكم قيامـه، فمن صـامه وقامـه إيمانـا واحتسابا ويقينا كان كفارة لما مضى) (3)

وفي نبوءاته ﷺ الغيبية الصـادرة من حرصـه ﷺ على هذه الأمة يخبر ﷺ عن الخطـر المحـدق بأمتـه النـاتج عن ضعف اليقين، قـال ﷺ:(مـا أخـاف على أمـتي إلا ضـعف اليقين)(4)

---

1) رواه الترمذي.

2) رواه الطبراني في الكبير وفيه خالد بن يزيد العمرى واتهم بالوضع.

3) رواه النسائي والبيهقي.

***

ومن هـــذه المنطلقـــات القرآنيـــة والنبويـــة أجمـــع العارفون بالله على أن اليقين هو البـذرة الـتي تنبت منهـا جميع المحاسن التي ينضح بها العرفان.

وقــد أجمعــوا على اعتبــاره المــركب الــذي يحمــل السالكين إلى الله، وبقدر سلامة المركب يكون الوصـول، ولهذا ورد في وصية لقمان لابنه:(يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامــل حتى ينقص يقينه)

وقــد قــال أبــو سـعيد الخــراز معـبرا عن هـذا الــدور: (العلم ما استعملك واليقين مـا حملـك)، فلـولا اليقين مـا سار ركب إلى الله ولا ثبت لأحد قدم في السلوك إلا به.

وقــد أجمعــوا كــذلك على أن اليقين لا يســاكن قلبــا يسكن لغير الله، وقــد وقــال ذو النــون: (اليقين يــدعو إلى قصر الأمل وقصر الأمــل يــدعو إلى الزهــد والزهــد يــورث الحكمة وهي تورث النظر في العواقب)، وقال:(ثلاثة من أعلام اليقين: قلــة مخالطــة النــاس في العشــرة وتــرك المدح لهم في العطية والتنزه عن ذمهم عند المنــع وثلاثــة من أعلامه أيضا النظر إلى اللــه في كــل شــيء والرجــوع إليــه في كــل أمــر والاســتعانة بــه في كــل حــال)، وقــال السري:(اليقين سكونك عند جــولان المــوارد في صــدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا)، وكل هذه التعاريف تدور حول التجرد المحض لله.

---

4) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي.

وأجمعوا على أن الطريق لليقين هو التقوى، قال ابن عطاء: (على قـدر قـربهم من التقـوى أدركـوا من اليقين، وأصل التقوى مباينة النهي وهـو مباينـة النفس فعلى قـدر مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين) وهذا التعريف كالـذي سبقه يدور حول توحيد الهمة المتوجهة لله، فلا يجتمع في قلب الموقن التوحيد مع الشرك.

ويشـير الجنيـد إلى أن اليقين لا يعـني مـا يتصـوره البعض ـ ممن يشحنون حياة العارفين والأولياء بالكرامـات مع مـا قـد يلابسـها من خرافـات وأسـاطير ــ فـالموقن لا يحتاج لأن يمشي على الماء ليثبت صحة يقينه:(قد مشـى رجال باليقين على الماء ومـات بـالعطش من هـو أفضـل منهم يقينا)

***

نتساءل بعد هذا عن سر كون اليقين هو الدرجة العليا التي تصب فيها كـل الـدرجات مـع أنـه من المعـاني الـتي يفهمها الجميع، ويعيها الجميـع، بـل يـدعيها الجميـع.. فـأي فضل للعارفين بعد هذا؟

والجواب عن ذلـك من خلال النصـوص المقدسـة هـو أن اليقين درجات بعضها فوق بعض، وليس مرادنا منها هنا إلا أعلاها، وهي درجـة المقـربين.. وهم ــ أيضـا ــ درجـات بعضهم فوق بعض.

وأولى درجات اليقين التي يتحدث عنها العـارفون هي الدرجة التي تبدأ من الإدراك التام للأشـياء إدراكـا مشـابها لإدراك السـمع والبصـر، كمـا قـال تعـالى عن المجـرمين:

﴿ وَلَوْ تَـرَى إِذِ الْمُجْرِمُـونَ نَاكِسُـو رُؤُوسِـهِمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَـا أَبْصَــرْنَا وَسَــمِعْنَا فَارْجِعْنَــا نَعْمَــلْ صَــالِحاً إِنَّا مُوقِنُــونَ﴾ (السجدة:12)، فقد اعتبروا إدراكهم للحقائق إدراك سماع وبصر يقينا.

ولهذا، فإن أولى علامات العارف أن يكون قلبه مـرآة تتجلى فيها الحقائق بوضوح تام، كما قال شاعرهم:

إذا سـكن الغـدير على	وجنب أن يحركــــه
بـدت فيـه السـماء بلا	كـذاك الشـمس تبـدو
كـذاك قلـوب أربـاب	يرى في صفوها اللـه

وهذا هو الفرق الأساسي بين العلم والمعرفة، فالعلم بحث واستدلال، والمعرفـة شـهود وعيـان، والعلم مكابـدة وشك، والمعرفة راحة ويقين.

ففي الوقت الذي يتيـه فيـه العلمـاء بحثـا عن الأدلـة، ويتنـازعون وفـق مـا تقتضـيه أنظـارهم، يجلس العـارفون المتخلصون من كثافة حجاب العقـل المقيـد بقيـود الحس والوهم في أرائك جنة المشاهدة والمكاشفة واليقين.

فالعـارف يـرى مـا يـؤمن بـه ويعيشـه، أمـا العـالم أو طالب العلم فيكتفي بأن يبحث عن أدلـة مـا يسـمع عنـه، وقد يحجب بالأدلة عن المدلول، وبالطريق عن الغاية.

وفي الوقت الذي يقلب فيـه العـالم صـفحات الكـون ليستدل به على ربه، ينطلـق العـارف من بـه ليسـتدل بـه على الكون، قال ابن عطاء الله:(الكون كله ظلمة، وإنمـا أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو

عنده أو قبله أو بعـده فقـد أعـوزه وجـود الأنـوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار)

فالكون في نظر العارفين ـ بالنظر إلى ذاته ـ لا يـزال خـاملا في ظلمـة العـدم المحض، فلا وجـود لـه لـولا نـور الموجد، فلولا ظهور الحـق فيـه، ظهـور إيجـاد وتعريـف لا ظهور حلول وتكييف لما كان له أي وجود.

وهذا هو الفرق العظيم بين العارف والعالم، فالعارف في محـل الرؤيـة قـد تجـاوز فيـافي الاسـتدلال وصـحراء النظـر ومتاهـات البحث، أمـا العـالم فلا يـزال تنقطـع بـه السبل دون حصول ذلك اليقين الذي ينعم به العارف، قال ابن عطاء الله: (شتان بين من يستدل به أو يستدل عليـه، المستدل بـه عـرف الحـق لأهلـه، وأثبت الأمـر من وجـود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليـه. وإلا فمـتى غاب حتى يستدل عليه؟ ومتى بعد حـتى تكـون الآثـار هي التي توصل إليه؟)

ولهذا ينطلق العارفون من الله إلى الكون، ويأخــذون الأشياء من الله قبل أخذها من الكـون، ولهـذا لم ينحجبـوا بـالكون عن المكـون، بـل انحجبـوا بـالمكون عن الكـون، الكون باعتباره أصلا لا باعتباره فرعا وتابعا.

وقــد ســمى الغــزالي هــذا اليقين (علم المكاشــفة) وعرفه بأنه عبارة عن نور يظهـر في القلب عنـد تطهـيره وتزكيته من صفاته المذمومة.

وهذا النور المتجلي على القلب تنكشف بـه الحقـائق الكثيرة الـتي كـان ــ في مرحلـة العلم ــ يسـمع من قبـل

أسماءها، ويتـوهم لهـا معـاني مجملـة غـير متضـحة، وقـد ينتشر له من بعض تلك المعاني ما يوهم التناقض أو يدعو إلى الشـك، ولكن في مرحلـة اليقين الـذي يرفـع الحجب يبصـر الحقـائق كمـا هي، (فتتضـح إذ ذاك حـتى تحصـل المعرفة الحقيقية بذات اللـه سـبحانه، وبصـفاته الباقيـات التامات، وبأفعاله، وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة، ووجـه ترتيبه للآخرة على الدنيا، والمعرفة بمعنى النبوّة والنبــيّ، ومعنى الوحي، ومعـنى الشـيطان، ومعـنى لفـظ الملائكـة والشياطين، وكيفيـة معـاداة الشـياطين للإنسـان، وكيفيـة ظهـور الملـك للأنبــياء، وكيفيــة وصـول الـوحي إليهم، والمعرفــة بملكـوت السـموات والأرض، ومعرفــة القلب وكيفية تصـادم جنـود الملائكـة والشـياطين فيـه، ومعرفـة الفرق بـين لمة الملـك ولمـة الشـيطان، ومعرفـة الآخـرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحسـاب، ومعنى قوله تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} (الاسراء:14)، ومعنى قولـه تعـالى: وَإِنَّ الـدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَـانُوا يَعْلَمُـونَ (العنكبـوت: 64)، ومعـنى لقـاء اللـه عـز وجـل والنظـر إلى وجهـه الكـريم، ومعنى القرب منـه والـنزول في جـواره، ومعـنى حصـول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبيــين، ومعـنى تفـاوت درجـات أهـل الجنـان حـتى يـرى بعضـهم البعض كما يرى الكوكب الدرّي في جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله)[1]

وقد تاه الخلق الذين لم يجاوزا مرحلة العلم في هـذه

---

1) الإحياء.

المعارف جميعا، وكـثر الخلاف بينهم، لأن كـل واحـد منهم ينظـر إلى هـذه المسـائل، وهـو متلبس بحجـاب العقـل، بخلاف من جاوزه وترقى إلى المشاهدة.

هذا الكتاب

هذه الرسالة من سلسلة [حقائق ورقائق] تدعو إلى النظر إلى الكون نظرة جديدة تنطلق من قراءته باسم الله، وتنتهي بصحبته في الله.

وقد حاولت حصر أوصاف الكون ــ انطلاقا من النصوص المقدسة ـ في أربعة أوصاف كل واحد منها معراج من معارج السلام، ورقية من رقى السعادة.

وهذه الأوصاف الأربعة هي: الحياة، والعبادة، والتسخير، والمقروئية.

فمعرفتنا بالكون الحي تشعرنا بالأنس، وتملؤنا بنشوة الصداقة الحميمة، فلا يمكن أن نصادق جمادا.

ومعرفتنا بالكون العابد تعرفنا بوظيفتنا، وتجعلنا نلهج بالتسبيح في حلقة ذكر الكون الواسع.

ومعرفتنا بالكون المسخر تجعلنا نتناول الأشياء من يد الله، لا من يد الطبيعة، ونتناول الأشياء بالله، لا بأيدينا.

ومعرفتنا بالكون المقروء تعبر بنا من الكون إلى المكون، وتزج بنا في رحاب الحضرة المقدسة، فنبصر من خلال الأشياء مشيئ الأشياء، فنصادق مع قطرات الندى، وتفتح الزهر، وهبوب النسيم، رب الكون ومبدعه.